جيفري آرتشر

«لعلّه أفضل كُتّاب القصة والرواية المعاصرين»

صحيفة ميل أون صاندي



قط وتسعة كلاب

رسوم: رونالد سيرل

قط وتسعة كلاب

قط وتسعة كلاب

جيفري آرتشر

رسوم: رونالد سيرل

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

للتعرّف على فروعنا في
المملكة العربية السعودية ، قطر ، الكويت والإمارات العربية المتحدة
نرجوا زيارة موقعنا على الإنترنت
www.jarirbookstore.com
للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على :
jbpublications@jarirbookstore.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

المملكة العربية السعودية ص.ب: ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧١
تليفون: ٤٦٢٦٠٠٠ ١ ٩٦٦+ – فاكس: ٤٦٥٦٣٦٣ ١ ٩٦٦+

JEFFREY ARCHER

CAT O'NINE TALES

And Other Stories

Drawings by Ronald Searle

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

قط وتسعة كلاب

تصـدرت أعمال "جيفرى آرشر"، مـن روايات وقصص قصيرة، مـن قبيـل "*Not A Penny More, Not A Penny Less*"، و"*Kane & Abel*" و"*A Twist in the Tale*"ـ تصدرت قوائم أفضل المبيعات فى أنحاء العالم، مع مبيعات تجاوزت ١٢٠ مليون نسخة.

خـدم المؤلـف لخمسة أعوام فى مجلس العمـوم البريطانى، وأربعـة عشـر عامًـا فـى مجلـس اللـوردات، وقضـى عامـين فى سجـون جلالـة الملكـة، الأمر الـذى تمخض عن سلسلـة تتكون مـن ثلاثة كتب بعنـوان "*Prison Diaries*"، التى لاقت تقديرًا عاليًا.

أحـدث رواياتـه "*False Impression*" بلغت المرتبة الأولى عالميًا فى أفضل المبيعات، وبقيت على قوائم أفضل الكتب مبيعًا فـى المملكـة المتحـدة لأكثر مـن ثلاثة شهـور، وهو يعمـل حاليًا على تحويلها إلى سيناريو سينمائى.

المؤلف متزوج ولديه ابنان، ويعيش بين لندن وكامبـردج.

إلى إليزابيث

المحتويات

المقدمة

بينما كنت سجينًا لعامين، فى خمسة سجون مختلفة، التقطت قصصًا متنوعة لم تكن ملائمة لتتضمنها يوميات السجن، التى كانت عبارة عن تسجيل لليوميات. تلك الحكايات عليها علامة النجمة فى قائمة المحتويات.

وعلى الرغم من أن تلك القصص التسع تم تنقيحها وتنميقها؛ فإن لكل منها أصلاً من الواقع. كل القصص، عدا واحدة، طلب منى أصحابها ألا أكشف عن أسمائهم الحقيقية.

والقصص الثلاث الأخرى فى هذا الكتاب هى من الواقع أيضًا، ولكننى صادفتها بعد إطلاق سراحى من السجن: فى أثينا "مأساة يونانية"، وفى لندن "حكيم الزمان"، وفى روما القصة المفضلة لدىَّ "عين المحب".

الرجلُ الذى سَرَقَ مكْتَبَ بَرِيدِهِ



البداية

ألقى القاضى جراى نظرة متفحصة على المتهمين فى قفص الاتهام، وقد اعترف السيد كريس هاسكنز وزوجته السيدة سو هاسكنز بسرقة مبلغ ٢٥٠ ألف جنيه إسترلينى، يخص مكتب البريد، واعترفا أيضًا بتزوير أربعة جوازات سفر.

بدا السيد هاسكنز وزوجته فى العمر نفسه تقريبًا، وهذا أمر متوقع تمامًا؛ حيث إنهما كانا معًا فى نفس المدرسة قبل أربعين عامًا، ويمكن للمرء أن يمر بهما فى الشارع دون أن يلفتا نظره. كان طول كريس خمس أقدام وتسع بوصات، وقد بدأ شعره الداكن المموج يشيب، وكان زائد الوزن بمقدار ستة أو سبعة كيلوجرامات على الأقل. وقف منتصب القامة فى القفص، وبالرغم من ذلك فقد كانت حلته مهندمة، وقميصه نظيفًا ورباط عنقه المخطط يوحى بأنه عضو فى أحد النوادى، وحذاؤه الأسود لامعًا ونظيفًا. وقفت زوجته سو إلى جانبه، ثوبها الأنيق المنقوش بالزهور وحذاؤها الرقيق أشارا إلى أنها امرأة منظمة ومرتبة، ولكنهما كانا يرتديان عندئذ الملابس التى يذهبان بها عادة إلى دار العبادة، وعلى كل حال، فقد اعتبرا المحكمة مكاناً لا يقل وقارًا عن دار العبادة.

أولى القاضى جراى انتباهه إلى محامى الزوجين هاسكنز، وهو شاب تم اختياره بهدف اقتصاد النفقات وليس لسعة خبرته.

قال القاضى: "لا شك أنك تقترح أن يكون هناك مراعاة للظروف التى دفعت لارتكاب الجريمة فى هذه القضية يا سيد رودجرز".

البداية

ألقى القاضى جراى نظرة متفحصة على المتهمين فى قفص الاتهام، وقد اعترف السيد كريس هاسكنز وزوجته السيدة سو هاسكنز بسرقة مبلغ ٢٥٠ ألف جنيه إسترلينى، يخص مكتب البريد، واعترفا أيضًا بتزوير أربعة جوازات سفر.

بدا السيد هاسكنز وزوجته فى العمر نفسه تقريبًا، وهذا أمر متوقع تمامًا؛ حيث إنهما كانا معًا فى نفس المدرسة قبل أربعين عامًا، ويمكن للمرء أن يمر بهما فى الشارع دون أن يلفتا نظره. كان طول كريس خمس أقدام وتسع بوصات، وقد بدأ شعره الداكن المموج يشيب، وكان زائد الوزن بمقدار ستة أو سبعة كيلوجرامات على الأقل. وقف منتصب القامة فى القفص، وبالرغم من ذلك فقد كانت حلته مهندمة، وقميصه نظيفًا ورباط عنقه المخطط يوحى بأنه عضو فى أحد النوادى، وحذاؤه الأسود لامعًا ونظيفًا. وقفت زوجته سو إلى جانبه، ثوبها الأنيق المنقوش بالزهور وحذاؤها الرقيق أشارا إلى أنها امرأة منظمة ومرتبة، ولكنهما كانا يرتديان عندئذ الملابس التى يذهبان بها عادة إلى دار العبادة، وعلى كل حال، فقد اعتبرا المحكمة مكاناً لا يقل وقارًا عن دار العبادة.

أولى القاضى جراى انتباهه إلى محامى الزوجين هاسكنز، وهو شاب تم اختياره بهدف اقتصاد النفقات وليس لسعة خبرته.

قال القاضى: "لا شك أنك تقترح أن يكون هناك مراعاة للظروف التى دفعت لارتكاب الجريمة فى هذه القضية يا سيد رودجرز".

"نعم يا سيادة القاضى"، هكذا صرح المحامى حديث التخرج وهو يثب ناهضًا من مكانه. كان بوده أن يخبر القاضى أن هذه هى قضيته الثانية لا أكثر؛ لكنه شعر أن القاضى لن يعتبر هذا الظرف داعيًا لتخفيف الحكم.

استرخى القاضى جراى فى جلسته وهو يتأهب لسماع كيف أن زوجة أب السيد هاسكنز كانت توسعه ضربًا دون رحمة، ليلة بعد أخرى، وكيف اغتصب عم شرير السيدة هاسكنز وهى فى سن المراهقة، ولكن كلا؛ أكد السيد رودجرز للمحكمة أن الزوجين هاسكنز نشأ فى ظروف متوازنة وسعيدة، وكانا معًا فى المدرسة حقيقة الأمر، وأن ابنتها الوحيدة؛ تريسى، خريجة جامعة بريستول وتعمل وكيلة لبيع العقارات فى أشفورد. أى إنها أسرة نموذجية.

ألقى السيد رودجرز نظرة سريعة على مذكرة الدعوى قبل أن يمضى فى شرح كيف انتهى الأمر بالزوجين هاسكنز وراء قفص الاتهام فى ذلك الصباح، وصار القاضى جراى أكثر اهتمامًا بحكايتهما، وحين عاد المحامى إلى مكانه شعر القاضى بأنه فى حاجة إلى المزيد من الوقت لكى يحدد طول فترة العقوبة. أمر المتهمين بأن يمثلا أمامه يوم الاثنين التالى فى العاشرة صباحًا، وحتى ذلك الحين سيكون قد توصل إلى قرار.

نهض السيد رودجرز مرة ثانية.

تساءل القاضى، رافعًا أحد حاجبيه قائلاً: "لا شك أنك ترجو أن أمنح موكلَيْك إطلاق سراح بكفالة يا سيد رودجرز؟ أليس كذلك؟"، وقبل أن يتمكن المحامى الشاب من الإجابة، قال القاضى: "موافق".

أخبر جاسبر جراى زوجته بشأن جرم السيد والسيدة هاسكنز أثناء تناول غداء يوم الأحد، وقبل أن ينتهى من تناول لحم الضأن، عرضت عليه زوجته فانيسا جراى رأيها.

"احكم عليهما بساعة واحدة من الخدمة العامة، ثم استصدر أمـرًا من المحكمة لمكتب البريد أن يرد لهما مالهما كاملاً" هكذا قالـت، بطريقـة تفصـح عـن بداهـة لا يتميـز بهـا الرجـال علـى الدوام. اتفق القاضى مع رأى زوجته ليكون عادلاً، ولكنه أخبرها مع ذلك أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون عواقب.

سألته: " ولم لا ؟"

" بسبب جوازات السفر الأربعة".



لم يفاجـأ القاضـى جراى عندما وجد السيـد والسيدة هاسكنز واقفين فى تأهب بالقفص فى العاشرة من صباح اليوم التالى؛ فعلى كل حال، لم يكونا اثنين من المجرمين.

رفـع القاضـى رأسـه، وحـدق فيهمـا وهـو يحـاول أن يظهر الغـم والحـزن: "لقـد ثبتـت إدانتكمـا بجريمـة السرقـة مـن مكتـب البريد وبجريمـة تزوير جوازات سفـر". لم يكترث بأن يضيـف أى صفـات للجريمـة مـن قبيل شريـرة، أو مروعـة، أو

حتى منافية للشرف؛ ذلك أنه لم ير هذه الصفات ملائمة للمناسبة. ثم أردف قائلاً : "وبالتالى لم تتركا لى أى خيار إلا أن أحكم عليكما بالسجن". ثم توجه القاضى بحديثه إلى السيد هاسكنز قائلاً: "لقد كنت بلا شك المحرض على هذه الجريمة، ونظرًا لهذا أحكم عليك بثلاث سنوات سجنًا". لم يستطع كريس هاسكنز أن يخفى دهشته؛ فقد أنذره المحامى بألا يتوقع أقل من خمس سنوات من السجن. منع كريس نفسه من أن يقول: شكرًا لك يا سيدى.

ثم التفت القاضى نحو السيدة هاسكنز وقال: "أدرك أن دورك فى هذه المؤامرة لم يتعد واجب الإخلاص لزوجك. ومع ذلك، فأنت تدركين جيدًا الفرق بين الصواب والخطأ، وبالتالى، فإننى أحكم عليك بالسجن لمدة عام".

اعترض كريس هاسكنز قائلاً: "سيادة القاضى".

قطب القاضى جراى جبينه للمرة الأولى؛ حيث لم يكن معتادًا على مقاطعته بينما يتلو حكمًا، ثم قال: "سيد هاسكنز، إن كنت تنتوى أن تنقض حكمى ـــــ".

قاطع السيد هاسكنز القاضى مرة أخرى قائلاً: "بالمرة يا سيدى القاضى. إننى أتساءل وحسب إن كان مسموحًا لى أن أقضى أنا فترة سجن زوجتى!".

أخذ القاضى بهذا المطلب على غرة؛ حيث إنه لم يستطع العثور على رد مناسب لسؤال لم يطرح عليه من قبل أبدًا. قرع بمطرقته الصغيرة، ونهض واقفًا وغادر قاعة المحكمة على جناح السرعة، وصاح الحاجب بسرعة: "فلينهض الجميع".

التقى كريس وسو لأول مرة فى ملعب مدرستهما الابتدائية فى كليثوربس، وهى بلدة ساحلية على الشاطئ الغربى لإنجلترا. كان كريس يقف فى الطابور منتظرًا حصته المحدودة من الحليب وهو قرار حكومى بالنسبة لكل أطفال المدارس تحت

عمر السادسة عشرة. كانت سو هى مراقبة عملية توزيع الحليب. كانت مهمتها هى أن تتأكد من أن الجميع قد أخذوا حصتهم المضبوطة، وحين ناولت كريس زجاجته الصغيرة، لم يُولِ أحدهما الآخر أدنى اهتمام. كان صف سو يقع أعلى صف كريس؛ لذا فنادرًا ما صادف أحدهما الآخر خلال اليوم إلا عندما يقف كريس بطابور الحليب. فى نهاية العام اجتازت سو امتحان التأهيل وتم نقلها إلى المدرسة الثانوية المحلية، واختير كريس ليكون متعهد توزيع الحليب الجديد. وفى شهر سبتمبر التالى اجتاز هو الآخر امتحان التأهيل، ولحق بـ سو فى مدرسة بلدة كليثوربس الثانوية.

ظلا غافلين عن بعضهما خلال أيام دراستهما حتى أصبحت سو مشرفة فى صفها. وعندئذ، لم يكن بوسع كريس إلا أن ينتبه لها لأنها عند انتهاء طابور الصباح كانت تتلو ملاحظات وقرارات المدرسة الخاصة بهذا اليوم. وكلما ذكر اسم سو فى محادثات الأولاد كانوا يصفونها بالزعيمة على سبيل السخرية (من الغريب أن النساء ذوات السلطة كثيرًا ما يكتسبن أسماء ساخرة من هذا القبيل، فى حين أن الرجال على المستوى القيادى نفسه يكتسبون سمعة الحزم وسمات القيادة).

عندما غادرت سو المدرسة عند نهاية العام نسى كريس من جديد كل شىء يتعلق بها. لم يسر على أثر خطواتها الواثقة ولكنه أصبح الفتى الزعيم، فعلى الرغم من أنه أصاب نجاحًا بمعاييره الخاصة ولكنه كان بالنسبة له عامًا عاديًا بلا أحداث مميزة. اشترك فى فريق المدرسة للكريكيت، وفازوا بالمركز الخامس فى المنافسة بين المدن بعد أن هزموا فريق مدرسة جريمسبى الثانوية، وأبلى بلاء لا بأس به فى الامتحان النهائى، لكن بما لا يستحق تقديرًا خاصًا.

ما إن غادر كريس المدرسة حتى تلقى رسالة من وزارة الدفاع، تأمره بالتوجه إلى مكتب التجنيد المحلى من أجل

غامـر بأن يقـول متلهفًا: "سو؟". لكـن العريف سو سمارت رفعـت عينيها عـن أوراقها وحدقـت فى المجند الـذى جرؤ على مخاطبتها باسمها الأول. تعرفت على الوجه، دون أن تعرف أين رأته سابقًا.

تطوع قائلاً: "أنا كريس هاسكنز".

قالـت: "نعـم، هاسكنز" ثم ترددت قبـل أن تضيف: "توجه إلى الرقيب ترافيس بالمخازن، وسوف يطلعك على مهامك".

أجاب كريس: "أمرك يا سيادة العريف"، وسرعان ما اختفى باتجـاه المخازن. بينما كان كريـس يبتعد لم يلحظ أن سو بدأت توليه نظرة أخرى.

لم يلتق كريس بالعريف سو سمارت مرة ثانية حتى مغادرته الأولى لقضـاء نهايـة الأسبـوع. رآها تجلس فـى الطرف الآخر من عربة القطار فى رحلته عائدًا إلى كليثرويس. لم يبادر بأية محاولـة لينضـم إليها، بل تظاهر بأنـه لم يرها. ومع ذلك فقد وجـد نفسه يتطلع نحوها بين الحـين والآخر، معجبًا بجسدها الرشيق ـ ولم يذكر أنه رآها بهذا الجمال قبل ذلك أبدًا.

حـين دخـل القطـار إلى محطـة كليثرويس، رأى كريس أمـه وهـى تثرثر مع امـرأة أخـرى. وتعرف على تلك المرأة فى الحال ـ فلديها الشعر الأحمر نفسه، والقد الرشيق ذاته، و....

وما إن لحق بأمه على الرصيف حتى قدمت السيدة سمارت والدة سو التحية له قائلة: "مرحبًا يا كريس، هل كانت سو على متن القطار معك؟".

قال كريس وهو يلمح سو تقترب منهما : "لم أنتبه".

فقالـت أم كريـس: "لقـد توقعـت أن تريـا بعضكمـا البعض كثيرًا بعد أن صرتما الآن فى المعسكر نفسه".

قالـت سـو وهـى تحـاول أن تبدو غـير مباليـة : "كلا، ليس تمامًا".

الخدمة الوطنية لفترة سنتين إلزاميتين على جميع الشباب فى سن الثامنة عشرة، عندما كان عليهم الخدمة فى القوات المسلحة. كان على كريس أن يختار فقط ما بين الجيش، والأسطول الملكى أو القوات الجوية الملكية.

اختار القوات الجوية، بل وقضى لحظة يتخيل ما قد يكون عليه الأمر لو أنه أصبح طيارًا حربيًا. وبعد أن اجتاز كريس مباشرة الفحص الطبى وملأ كل الأوراق الرسمية الضرورية فى مكتب التجنيد المحلى، أعطاه الرقيب المسئول بطاقة ليستقل القطار إلى مكان ما يدعى مابلثروب؛ كان عليه أن يكون بالثكنة عند الثامنة من صباح أول أيام الشهر التالى.

أمضى كريس الاثنى عشر أسبوعًا التالية تحت التدريب الأساسى، جنبًا إلى جنب، مع مائة وعشرين من المجندين الجدد. وسرعان ما اكتشف أن واحدًا فقط من المجندين من بين كل ألف سيتم اختياره طيارًا حربيًا. وكريس لم يكن هذا الواحد من الألف. وعند نهاية الاثنى عشر أسبوعًا تم تخييره بين العمل بالمقصف، أو قاعة الطعام الخاصة بالضباط، أو فى مخازن المقر الرئيسى لعمليات الطيران، واختار عمليات الطيران، فوضعوه فى وظيفة بالمخازن.

وعندما تسلم واجباته يوم الاثنين التالى التقى من جديد بـ سو، ولكى نكون أكثر دقة فقد التقى بالعريف سو سمارت. كانت، ولا شك، تقف على رأس الصف؛ ولكن هذه المرة تقوم بتوزيع تعليمات المهام. لم يتعرف عليها كريس للوهلة الأولى، وقد ارتدت زيها الرسمى الأزرق الأنيق ويكاد شعرها يختفى تمامًا تحت غطاء الرأس. على أى حال، كان معجبًا بساقيها الملفوفتين عندما قالت: "هاسكنز، التحق بمخازن المقر الرئيسى". رفع كريس رأسه، كان هذا هو الصوت الذى لا يمكنه أن ينساه أبدًا.

افترق كلاهما عند بوابات المعسكر ومضيا فى طريقين منفصلين. سار كريس عائدًا إلى مبانى المبيت، فى حين توجهت سو إلى مقر ضباط الصف. حين دخل كريس مبنى المبيت لكى يلحق برفاقه المجندين، كان واحدًا منهم يتباهى بسلاح الطيران الذى فصل منه؛ بل إنه راح يقدم لهم وصفًا تفصيليًا لسراويل سلاح القوات الجوية؛ حيث إنها " مصنوعة بقماش داكن من اللون الأزرق ممسوكة بمطاط سميك" هكذا أكد لمن يستمعون إليه بنظرة مسحورة. رقد كريس على فراشه وتوقف عن الاستماع إلى الحكاية التى لا تروق له، بينما شرد بأفكاره إلى سو. وتساءل كم من الوقت سيمضى قبل أن يتسنى له أن يراها من جديد.

لم يطل انتظار كريس كما كان يخشى؛ لأنه حين دخل إلى المقصف لتناول الغداء فى اليوم التالى رأى سو جالسة فى الركن مع مجموعة من الفتيات من غرفة العمليات. أراد أن يتوجه إلى مائدتها ويطلب منها ببساطة موعدًا للخروج معا كما يفعل النجم دافيد نايفن فى أحد أفلامه. كان هناك فيلم للنجمة دوريس داى يعرض بسينما أوديون ورأى أنها قد تستمتع به، لكن الأسهل عليه أن يخطو فى حقل ألغام من أن يقتحم مجلسها بينما يرى ذلك زملاؤه.

اختار كريس وجبة غدائه من على المنضدة: سلطانية من حساء الخضراوات، نقانق وبطاطس مقلية، وفطيرة بالكسترد. حمل الصينية نحو مائدة فى الجانب الآخر من الغرفة وانضم إلى مجموعة من رفاقه المجندين الجدد. كان يتناول فطيرة الكسترد، بينما يناقش فرص فوز فريق جريمسبى أمام فريق بلاكبول، حين شعر بيد تلمس كتفه. التفت فرأى سو واقفة خلفه وهى تبتسم. توقف رفقاؤه على المائدة عن حديثهم. اكتسى وجه كريس بالحمرة.

قالت السيدة هاسكنز: "حسنًا، من الأفضل أن ننطلق؛ فعليَّ أن أقدم العشاء لـ كريس ووالده قبل أن يذهبا لمشاهدة مباراة كرة القدم".

بعد أن ابتعد كريس وأمه نحو باب الخروج سألت السيدة سمارت ابنتها سو قائلة: "هل تتذكرينه؟".

ترددت سو وقالت: "هاسكنز المختال؟ لا أظن أنى أتذكره".

فقالت أمها مبتسمة: "أوه، إنه يروق لك حقًا، أليس كذلك؟".

***

عندما صار كريس على متن القطار فى مساء يوم الأحد ذلك، كانت سو تجلس فى نهاية العربة. كان كريس على وشك أن يمضى من جانبها مباشرة ليجد لنفسه مقعدًا فى العربة التالية حين سمعها تقول: "مرحبًا يا كريس؛ هل قضيت إجازة طيبة؟".

قال كريس: "لا بأس بها، سيادة العريف"، وتوقف لينظر نحوها، وأكمل: "لقد هزم فريق جريمسبى فريق لنكولن ثلاثة إلى واحد، وأنا كنت قد نسيت المذاق الطيب لوجبة السمك ورقائق البطاطس فى كليثوربس مقارنة بطعام المعسكر".

ابتسمت سو قائلة: "لم لا تنضم إلىّ"، هكذا قالت، وهى تربت على المقعد المجاور لها، ثم أردفت: "وأعتقد أنه لا بأس فى أن تنادينى سو حينما نكون خارج الثكنات".

خلال رحلة العودة إلى مابلثورب، كان أغلب الحديث من نصيب سو، أولاً لأن كريس كان شديد الاندهاش بها أيعقل أن تكون هذه هى نفسها الفتاة الصغيرة شديدة النحافة التى كانت تناوله الحليب كل صباح؟ وثانيًا لأنه أدرك أنه سيضطر للتوقف عن الحديث لحظة أن يضعا أقدامهما فى المعسكر من جديد. فلا يجب أن يخالط ضباط الصف المجندين العاديين.

تساءلت سو: "هل ترتبط بأى موعد مساء السبت؟". تحول اللـون الأحمر لوجه كريس إلى القرمـزى بينما هز رأسه نفيًا. قالـت: "كنت أفكر فى الذهاب لمشاهـدة فيلم كالاماتى جاين". توقفـت ثـم أردفـت: "هل تهتـم بالذهاب معـى؟". أومـأ كريس موافقًـا ثـم أردفت هـى: "لم لا نلتقـى أمام بوابـات المعسكر فى السادسـة؟". صدرت عن كريس إيمـاءة موافقة أخرى ثم قال: "إذن أراك حينها". استدار كريس ليجد أصدقاءه يحدقون فيه بإجلال.

لم يتذكـر كريـس الشـىء الكثيـر مـن الفيلـم لأنـه أمضى أغلـب وقتـه فـى محاولة استجمـاع شجاعتـه بما يكفـى ليضع ذراعـه حـول كتفى سو. ولم يفلح فى القيـام بذلك حتى عندما قـام هـوارد كيـل بتقبيل دوريـس داى. وبالرغم مـن ذلك، فبعد أن غـادرا السينما وسارا عائدين لانتظار الأتوبيس، تناولت سو يده.

"مـاذا ستفعـل عندمـا تنتهـى من تأديـة الخدمـة؟"؛ هكذا سألته سو بينما يحملهما الأتوبيس الأخير إلى المعسكر.

"أظـن أننـى سألحـق بوالـدى فـى العمـل علـى خطـوط الأتوبيس، وأنت؟".

" بعد أن أخدم لثلاثة أعوام سيكون علىَّ أن أقرر ما إذا كنت أريـد أن أصيـر ضابطًـا وأن أتخـذ مـن العمل بالقـوات الجوية مهنة دائمة".

نجح كريس فى أن يتلفظ قائلاً بسرعة: "أتمنى أن تعودى للعمل فى كليثوربس".

تزوج كريس وسو هاسكنز بعد ذلك بعام فى سانت آيدان.

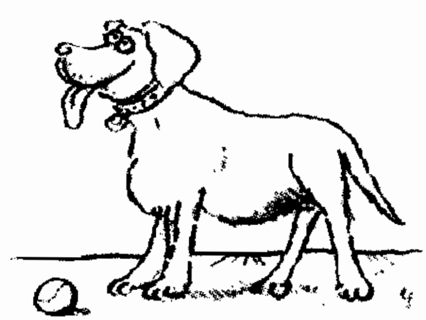
بعـد الزفـاف، انطلـق العروسـان إلى نيوهايفين فـى سيارة مستأجـرة؛ لقضـاء شهـر العسـل علـى الشاطـئ الجنوبـى للبرتغـال. ومـا هـى إلا أيـام قليلـة علـى شاطـئ ألجـراف حتى

نفدت منهما النقود. وقاد كريس السيارة بهما عائدين إلى كليثوربس، لكنه تعهد أنهما سيعودان إلى آلبوفييرا بمجرد أن يستطيع تحمل نفقة ذلك.

بدأ كريس وسو حياتهما الزوجية باستئجار ثلاث غرف فى الدور الأرضى بمبنى شبه منفصل بطريق جوبيل. كان المسئولان السابقان عن الحليب بالمدرسة غير قادرين الآن على إخفاء سعادتهما عن أعين أى شخص يعرفهما.

لحق كريس بأبيه فى العمل على خطوط الأتوبيس وصار محصلاً بشركة جرين لاين مونيسيبال كوتش، فى حين عملت سو كمتدربة بشركة تأمين محلية. بعد ذلك بعام وضعت وتركت وظيفتها لترعى هذه الطفلة؛ مما دفع كريس ليكدح أكثر فى عمله ويسعى للحصول على ترقية. وبإيعاز مستمر من سو، بدأ كريس يذاكر ليخوض امتحان الترقية. بعد ذلك بأربعة أعوام رقى كريس ليصبح مفتشًا، وصارت أحوال أسرة هاسكنز مبشرة بكل الخير.

عندما أخبرت تريسى والدها أنها ترغب فى مُهْر صغير ليكون هدية العام الجديد، اضطر إلى أن يوضح أنهم لا يملكون مساحة كافية فى منزلهما لذلك. وصل كريس لحل وسط، ففى عيد ميلاد تريسى السابع أهداها جروًا من نوع لابرادور، وأسموه كورب. لم تكن أسرة هاسكنز ترغب فى أى



شىء، وهكذا كانت ستنتهى هذه الحكاية لو لم يتم الاستغناء عن كريس فى عمله، لكن هذا هو ما كان.

استحوذت شركة هول كاريج باص على شركة جرين لاين مونيسيبال كوتش. ومع دمج الشركتين، صار فقدان الوظائف لا مناص منه، واعتُبِر كريس واحدًا من هؤلاء الزائدين عن الحاجة. والبديل الوحيد الذى توصلت له الإدارة هو إعادة توظيف كريس فى وظيفة محصل، لكن ترفع كريس عن العرض بكل شمم وكبرياء. شعر بثقة شديدة فى عثوره على عمل آخر، وبالتالى قَبِل التقاعد من الشركة.

لم يمض وقت طويل قبل أن تنتهى نقود مكافأة التقاعد، وبالرغم من وعد تيد هيث بعالم جديد متفائل، سرعان ما اكتشف كريس أن العثور على وظيفة بديلة لم يكن بهذه السهولة فى كليثوربس. لم تبدر عن سو أى شكوى، وبما أن تريسى قد صارت تقضى يومها الآن بالمدرسة، فقد حصلت سو على عمل بدوام جزئى فى مطعم بارسونز المحلى لوجبات السمك والبطاطس المقلية. أمنت لهم هذه الوظيفة راتبًا أسبوعيًا ثابتًا، مضافًا إليه الإكراميات. ليس هذا وحسب، بل وسمحت لـ كريس أن يتمتع بطبق كبير من سمك البكلاه ورقائق البطاطس المقلية كل يوم وقت الغداء.

واصل كريس محاولاته للعثور على وظيفة. كان يزور مكتب التوظيف كل صباح، عدا صباح الجمعة؛ حيث يقف فى طابور طويل، بانتظار الحصول على المبلغ الهزيل لإعانة البطالة. وبعد اثنى عشر شهرًا من لقاءات طلب العمل المخفقة، ومن عبارة (نأسف لأنك لا تبدو لنا بالمؤهلات المطلوبة للوظيفة)، بلغ كريس من التوتر درجة جعلته يفكر بجدية فى استعادة وظيفته القديمة كمُحَصل فى إحدى حافلات النقل. أكدت له سو أنه بعد وقت قصير سرعان ما ستتم ترقيته من جديد كمفتش.

فـى هـذه الأثنـاء، تقلـدت سـو مسئوليـات أهم فـى المطعم، وبعدهـا بعـام صـارت مسـاعـدة المدير. ومـرة أخـرى، كان يمكن لهـذه الحكايـة أن تنتهـى هنـا، غـير أن سـو هـذه المـرة هـى من قدمت ملاحظتها.

أثنـاء تناولهمـا عشاء من السمـك حذرت كريس مـن أن السيد بارسونـز وحرمه يفكران فـى التقاعد المبكر ويخططان لعرض المطعم للبيع.

قال لها: "ما المبلغ الذى يتوقعانه من البيع؟".

قالـت: "سمعـت السيـد بارسونـز يذكـر رقـم خمسـة آلاف جنيه".

قـال كريـس، وهـو يلتقـط بالشوكـة قطعة بطاطـس: "إذن لنأمل أن الملاك الجدد سيعرفون كيف يديرونه".

"الأغلب أن الملاك الجدد سوف يأتون بطاقم عمل جديد. لا تنس ما جرى لك عند بيع شركة الأتوبيسات لشركة أخرى".

راح كريس يفكر بالأمر.

فـى الثامنـة والنصف مـن صباح اليـوم التالى. غـادرت سو المنـزل لكى تصحـب تريسـى إلى المدرسة، قبل التوجـه لعملها. ومـا إن غادرت الاثنتـان المنزل، حتى خرج كريـس بالكلب كورب للانطـلاق فـى جولتهمـا الصباحيـة المعتـادة. وتحـير الكلـب عندما لم يتجه سيده نحو الشاطئ؛ حيث يمكن له أن يستمتع بفـترة مـن المـرح والنشاط قـرب الأمـواج، ولكن بـدلاً من ذلك سـار بالاتجاه المقابل، وانتهى به إلى أن قيده فى سياج أمام بنك مدلاند فى هاى ستريت.

لم يستطع مدير البنك أن يخفى دهشته عندما طلب السيد هاسكنـز مقابلته لمناقشة مشروع استثمـارى. وراجع على عجل حساب السيد هاسكنز وزوجته، فوجد أن رصيدهما سبعة عشر جنيهًـا واثنا عشر شلنًا. وسَـرَّه أنهما لم يتجاوزا حدود السحب

أبدًا، بالرغم من بطالة السيد هاسكنز لأكثر من عام.

استمع المدير فى تعاطف لعميله المحتمل، لكنه هز رأسه بالرفض فى أسف حتى قبل أن يتم كريس عرضه الذى تدرب عليه جيدًا.

شرح له المدير قائلاً: " لا يمكن للبنك أن يقدم على مجازفة كتلك، على الأقل أنه ليس لديكما إلا أقل القليل من الضمانات لتأمين السداد. حتى منزلكما ليس ملكًا لكما". شكره كريس، وصافحه وغادر بجسارة.

عبر شارع هاى ستريت، قيد كورب إلى سياج آخر ودخل بنك مارتينز. كان على كريس أن ينتظر لوقت طويل قبل أن يكون بمقدور المدير أن يراه. وقوبل بالرد نفسه، لكن على الأقل فى هذه المرة نصحه المدير بأنه يستطيع أن يتوجه إلى شركة بريطانيا فاينينس، وهى كما أوضح له شركة جديدة مختصة بتقديم قروض تأسيس المشروعات الصغيرة. شكره كريس، وغادر البنك، وفك وثاق كورب وهرع عائدًا إلى طريق جوبيل، وقد سبق بدقائق عودة سو ومعها غداؤه: سمك البكلاه ورقائق البطاطس.

بعد الغداء، غادر كريس المنزل وقصد أقرب كابينة هاتف. وضع أربعة بنسات فى الصندوق وضغط الزر "أ". لم تستغرق المكالمة أكثر من دقيقة. عاد بعدها للمنزل، لكنه لم يخبر سو بأنه لديه موعد فى الصباح التالى.

فى اليوم التالى، انتظر كريس حتى تغادر سو المنزل بصحبة تريسى قبل أن يسرع للدور العلوى ويدخل غرفة نومهما. خلع سرواله الجينز وقميصه القطنى، ولبس بدلاً منهما الحُلة التى لم يلبسها منذ الزفاف، مع قميص كريمى اللون لا يلبسه إلا عند ذهابه لدار العبادة، ورابطة عنق أهدتها له حماته فى رأس السنة، والتى اعتقد أنه لن يضعها أبدًا حول رقبته. ثم لمع حذاءه بحيث صار من الممكن لرقيبه أيام الجيش أن يوافق على

لياقتـه ليمـر بموكـب الاستعراض. تفحص صورته فـى المرآة، آمـلاً أن يبـدو مثل مدير محتمـل لمشروع تجـارى. ترك الكلب فى الحديقة الخلفية للمبنى، وتوجه للبلدة.

وصـل كريس مبكـرًا عـن موعـده بربـع سـاعـة؛ حيـث كان سيقابـل السيـد ترمايـن؛ مديـر القروض بشركـة بريطانيـا فاينينس. طلب منـه أن يستريح بغرفة الانتظار. تناول كريس نسخـة مـن صحيفـة المال والاستثمـار لأول مرة فـى حياته. لم يعثر بها على أية صفحات رياضية. بعد ربع ساعة قادته إحدى السكرتيرات إلى مكتب السيد ترماين.

استمـع المدير التنفيذى للقروض بـكل تعاطف إلى العرض الطمـوح لـ كريس، ثم تساءل، تمامًـا كما فعل الاثنان الآخران: "ما هى الضمانات التى تمتلكها؟".

أجـاب كريـس دون خـداع : " لا شـىء. عـدا، حقيقـة أننـى وزوجتـى سوف نعمل طوال ساعات يقظتنا، وأنها بالفعل تعرف كل شـىء يتعلق بالعمـل". انتظر كريس سماع الأسباب العديدة التى بسببها لا يمكن للشركة أن تستجيب لمطلبه.

ولكـن بدلاً مـن ذلك سأله السيد ترماين: " بما أن زوجتك ستسهـم بمقـدار النصـف فـى استثمارنـا، فمـا رأيها فـى الأمر ككل؟".

اندفع كريس قائلاً: " إننى حتى لم أناقشه معها بعد".

فقـال السيـد ترمايـن: " إذن فإننـى أقترح عليـك أن تفعل ذلـك، وبسرعـة؛ لأنه قبل أن نقدِّر استثمارنا مع السيد هاسكنز وزوجتـه، سيكون علينا أن نلتقى بالسيـدة هاسكنز، من أجل أن نتبين إن كانت تبلغ نصف ما تدعيه من المهارة".

أعلن كريس الأنباء لزوجته مساء على العشاء. لم تنبس سو بكلمة، وهى مشكلة لم يتعرض لها كريس كثيرًا فيما سبق.

ما إن التقى السيد ترماين بالسيدة هاسكنز لم يكن عليهما فعل شىء سوى ملء عدد لا نهاية له من الأوراق والنماذج قبل

أن تدفع شركة بريطانيا فاينينس لهما قرضًا بمبلغ خمسة آلاف جنيه. بعد ذلك بشهر انتقل السيد هاسكنز وزوجته من بيتهما فى طريق جوبيل إلى مطعم السمك والبطاطس فى بيتش ستريت.

المنتصف

أمضى كريس وسو يوم الأحد الأول يمحوان اسم بارسونز من واجهة المتجر، ويكتبان هاسكنز: *تحت إدارة جديدة*. وسرعان ما شرعت سو فى تعليم كريس كيف يعد المقادير المضبوطة لصنع أفضل عجين، وظلت تذكره بأنه لو كان هذا أمرًا سهلاً لما وقف الزبائن طابورًا أمام أحد المتاجر بينما يبقى منافس آخر بلا زبائن على بعد ياردات قليلة. مرت بضع أسابيع قبل أن يتمكن كريس من صنع رقائق بطاطس مقرمشة، ولكن ليست صلبة، أو يحدث ما هو أسوأ فتكون نَديَّة. وبينما صار هو مدير الواجهة الأمامية؛ يلف السمك ويرش الملح والخل، فإن سو قد اتخذت مجلسها من وراء درج النقود وجمع الريع. فى المساء، كانت تحرص سو دائمًا على الانتهاء من دفاتر الحساب أولاً فأولاً، ولم تكن تلحق بـ كريس فى شقتهما الصغيرة إلا بعد أن يصير المتجر نظيفًا ويمكن للمرء أن يرى صورة وجهه فى النضد الأمامية.

كانت سو دائمًا هى آخر من ينتهى من العمل، غير أن كريس كان أول من يستيقظ فى الصباح. كان ينهض فى الرابعة صباحًا، يرتدى حُلةَ تريض ثقيلة ويتوجه نحو الميناء مع كورب، ثم يعود بعد ساعتين وقد انتقى أفضل سمك بكلاه، وسمك القد والسمك المبسط، بعد لحظات من وصول سفن

الصيد الصغيرة للمرفأ مع رزق الصباح.

وبالرغم من أن كليثوربس كان يوجد بها متاجر عديدة لتقديم وجبات السمك والبطاطس المقلية؛ فلم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ طابور الزبائن فى التراكم أمام متجر هاسكنز، وأحيانًا قبل حتى أن تدير سو لافتة "مغلق" لتسمح بدخول أول الزبائن إلى المتجر. ولم يتراخ هذا الطابور أو يتباطأ أبدًا ما بين الحادية عشرة صباحًا والثالثة بعد الظهر، أو من الخامسة إلى التاسعة مساء، حين يتم إدارة اللافتة أخيرًا ـ ولكن فقط بعد تقديم الخدمة لآخر الزبائن.

عند نهاية عامهما الأول بلغ ربح الزوجين هاسكنز ما يتجاوز تسعمائة جنيه. وكلما طالت الطوابير تناقص دينهم لشركة بريطانيا فاينيتس؛ بحيث أصبح بمقدورهما أن يسددا القرض كاملًا، قبل انتهاء الأعوام الخمسة لفترة السداد بثمانية أشهر.

خلال الأعوام العشرة التالية، غزت سمعة متجر هاسكنز كل الجهات أرضًا وكذلك بحرًا؛ مما نتج عنه دعوة كريس لعضوية نادى الروتارى بكليثوربس، وصارت سو نائبة رئيسة اتحاد الأمهات.

فى ذكرى زواجهما العشرين عاد كريس وسو إلى البرتغال من أجل شهر عسل آخر. أقاما فى فندق أربع نجوم لمدة أسبوعين، وهذه المرة لم يضطرا للعودة إلى البيت مبكرًا. كان السيد هاسكنز وزوجته يزوران آلبوفيرا فى كل صيف على مدار الأعوام العشرة التالية، فعندما كانا يعتادان شيئًا لا يتوقفان عن فعله.

غادرت ابنتهما تريسى مدرسة كليثوربس الثانوية للالتحاق بجامعة بريستول؛ حيث درست إدارة الأعمال. كان الحدث المؤسف الوحيد فى حياتهم هو وفاة كلبهم كورب، لكنه

كان يبلغ من العمر حينها أربعة عشر عامًا.

***

كان كريس يستمتع بمشروبه مع بعض رفاقه فى نادى الروتارى عندما أخبره ديف كوينتن، مدير أفخم مكتب بريد بالمدينة، أنه سوف ينتقل إلى ليك دستريكت ويخطط لبيع استثماره فى هذا المشروع.

فى هذه المرة راعى كريس أن يناقش أحدث نواياه مع زوجته. أخذت سو مرة أخرى على حين غرة، وعندما انتبهت من المفاجأة، طرحت عدة أسئلة وسمعت جوابها قبل أن تذهب معه لزيارة شركة بريطانيا فاينينس.

سألهما السيد ترماين، والذى ترقى مؤخرًا إلى منصب مدير القروض: "كم يبلغ رصيدكما فى بنك ميدلاند؟".

فحصت سو دفتر حساباتها، وأجابت: "سبعة وثلاثين ألفا، وأربعمائة وثمانية جنيهات".

كان سؤاله التالى: "وبكم تقدران قيمة متجركما للسمك والبطاطس المقلية؟".

قالت سو فى ثقة: " نتوقع أن نفكر فى عروض لبيعه بقيمة تزيد عن مائة ألف جنيه".

" وبكم تقدر قيمة مكتب البريد، مع النظر لموقعه البارز والمهم؟".

" يقول السيد كوينتن إن مكتب البريد يقدر بمائتين وسبعين ألفًا، لكنه يؤكد لى أن المبلغ سيستقر على ربع المليون، إذا أمكنهم أن يجدوا المشترى المناسب".

قال المحلل، دون حاجة للرجوع إلى أى دفتر حسابات: "وعلى هذا فإن العجز لديكم يتجاوز المائة ألف"، ثم سكت وأردف: " كم بلغ ربح مكتب البريد للعام السابق؟".

أجابت سو: " مائتين وثلاثين ألفًا من الجنيهات".

قال لها: "ربح صاف؟".

ومن جديد، احتاجت سو أن تحسب على أصابعها. قالت : "ستة وعشرون ألفًا، لكن هذا لا يشمل الفائدة المضافة للشقة السكنية الواسعة الملحقة به، مع تغطية الضرائب والعوائد فى الربح السنوى". سكتت ثم أردفت قائلة: "وهذه المرة سوف نملك العقار".

قال السيد ترماين : "إذا صدَّق محاسبونا على كل تلك الأرقام، وإذا كان بمقدوركما بيع متجر السمك والبطاطس بحوالى مائة ألف، فيبدو لى هذا استثمارًا لا غبار عليه. ولكن..". . بدا التخوف على العميلين مما بعد "لكن". "ودائمًا ما تكون هناك لكن، عندما يتعلق الأمر بإقراض المال. سيكون القرض، بالطبع، ساريًا مادام مكتب البريد يحافظ على تقييمه كعقار من الدرجة "أ". إن المبانى والعقارات فى تلك المنطقة تباع حاليًا بحوالى عشرين ألفًا، وعلى هذا فإن القيمة الفعلية لمكتب البريد كاستثمار، وأكررها، تبقى ما بقى محتفظًا بتقييمه كعقار من الدرجة "أ"".

قال كريس: "ولكنه كان مصنفًا باعتباره مكتب بريد من الدرجة "أ" على مدار الثلاثين عامًا الماضية؛ فلِمَ قد يتغير هذا فى المستقبل؟".

أجابه المحلل: "إذا كان بمقدورى أن أتنبأ بالمستقبل يا سيد هاسكنز فلن أختار أبدًا استثمارًا خاسرًا، ولكن لأننى لا أستطيع ذلك فعلىّ أن أخاطر. شركة بريطانيا تستثمر فى الأشخاص، وفى هذا الصدد ليس لديكما ما تثبتانه". ابتسم وأكمل : "نحن نتوقع، كما كان عليه الأمر فى القرض الأول، أن يتم تسديد القرض على أقساط أربعة، خلال فترة خمسة أعوام؛ وفى هذه الحالة، حين يكون المبلغ كبيرًا هكذا، سوف نرغب فى أخذ نسبة من مكسب الملكية".

تساءل كريس: "كم هذه النسبة؟".

" ثمانيــة ونصف فــى المائة، مع العقوبات المضافة إن لم يتم تسديد الأقساط فى المواعيد المحددة".

قالت سو: " سيكون علينا التفكير فى عرضكم مليًا، وسوف نبلغك بقرارنا ما إن نتوصل لقرار".

ابتسم السيد ترماين ابتسامة مصطنعة.

***

فيما كانا عائدين بسرعة نحو الميناء، على أمل أن يفتحا المتجر فـى الوقـت المناسب قبـل وصـول أول زبائنهما، سألـت سو: "ما مغزى كل هذا الكلام حول الدرجة "أ"؟".

قـال كريـس: "الدرجـة "أ" هـى حيـث توجـد كل الأربـاح، وحسابـات الادخـار، والمعاشـات، وطلبـات البريـد، وضرائـب السيـارات وحتـى السنـدات الممتـازة التى تكفل لـك ربحًا جيدًا. وبدونهـا، عليـك أن تعتمـدى علـى تراخيـص التليفزيـون، والطوابـع، وفواتـير الكهربـاء، وربمـا دخـل قليـل إضافـى إذا سمحـوا لـك بـإدارة متجـر إلى جانـب هـذا. إذا كان هـذا كل ما يمكن للسيد كوينتن أن يقدمه فلعل من الأفضل لنا أن نستمر فى إدارة متجر السمك والبطاطس".

تساءلـت سـو: "هـل هنـاك احتمـال أن نفقـد الدرجـة "أ" الخاصة بنا؟".

قال كريس: "مطلقًا، أو ذلك ما أكده لى مدير مكتب البلدية، وهـو عضـو وصديق فى نادى الروتارى. قال لى إن هذا الأمر لم يخضـع للمناقشة أبدًا فى المقر، ويمكنـك أن تكونى واثقة تمامًا مـن أن شركـة بريطانيـا فاينينس سوف تتأكد مـن أننا لن نفقد الدرجة "أ" قبل أن تكون مستعدة للإسهام بمائة ألف".

"إذن فمازلت ترى أن نمضى فى هذا؟".

قال كريس: "مع بعض التعديلات على شروطهم".

"مثل ماذا؟".

"حسنًا، فى البداية، ليس لدىّ شك فى أن السيد ترماين سوف يخفض النسبة إلى ثمانية فى المائة، فالآن، قد بدأ بنك هاى ستريت هو أيضا يستثمر فى المشروعات التجارية، ولا تنسى أنه فى هذه المرة سيكون مسئولاً عن العقار".

باع الزوجان هاسكنز متجرهما للسمك والبطاطس بمبلغ ١١٢ ألف جنيه، وقد أضافا إليه مبلغ ٣٨ ألفًا من رصيدهما الائتمانى، وأضافت شركة بريطانيا على ذلك قرضًا بمبلغ مائة ألف بفائدة تبلغ نسبتها ٨ فى المائة، وأرسل شيكًا بمبلغ ٢٥٠ ألفًا إلى مقر مكتب البريد فى لندن.

أعلن كريس : "حان وقت الاحتفال".

سألته سو: "ماذا يدور ببالك؟ لأننا لا نستطيع تحمل إنفاق المزيد من المال".

قال: "لنَقُد السيارة حتى آشفورد ونقضى نهاية الأسبوع مع ابنتنا ..." توقف قليلاً ثم أردف: "وفى طريق عودتنا...."

كررت سو: "وفى طريق عودتنا؟".

"فلنمر بمتجر باتريسا للكلاب".

بعد ذلك بشهر، انتقل كل من السيد هاسكنز وزوجته، ومعهما ستامب، كلب آخر من نوع اللابرادو، ولكنه أسود هذه المرة، من متجر السمك والبطاطس فى بيتش ستريت إلى مكتب البريد من الدرجة "أ" فى فيكتوريا كريسنت.

عاد كريس وسو بسرعة إلى العمل لفترات طويلة لم يقضياها من قبل منذ افتتحا لأول مرة متجرهما للسمك والبطاطس. وعلى مدار الأعوام الخمسة التالية لم ينفقا أموالهما على شىء غير الضروريات؛ حتى إنهما توقفا عن الخروج فى الإجازات، بالرغم من أنهما كثيرًا ما فكرا فى القيام برحلة أخرى إلى البرتغال، لكن ذلك كان ينبغى تأجيله حتى يكملا مدفوعاتهما إلى شركة بريطانيا. واصل كريس الاضطلاع

بواجباته فى نادى الروتارى، فى حين صارت سو هى رئيسة فرع اتحاد الأمهات لبلدة كليثوربس. ورقيت تريسى إلى مديرة موقع، وكان ستامب يأكل أكثر مما يأكله الثلاثة مجتمعين.

فى عامهما الرابع، فاز السيد هاسكنز وزوجته بجائزة "مكتب بريد العام" وبعدها بتسعة أشهر سددا القسط الأخير لشركة بريطانيا.

دعا مجلس إدارة شركة بريطانيا كريس وسو على الغداء فى فندق رويال للاحتفال بحقيقة أنهما الآن مالكا مكتب البريد بدون أن يكون عليهما بنس واحد من الديون.

قال لهم كريس مذكرًا: "مازال علينا أن نستعيد المبلغ الأصلى للاستثمار. لا أكثر من مائتى وخمسين ألف جنيه".

اقترح رئيس مجلس إدارة الشركة قائلاً: "لو واصلتما التقدم على المنوال الحالى فلابد أن الأمر سيقتضى منكما خمسة أعوام أخرى لتحقيق ذلك وتستطيعان الاعتماد على استثمار قيمته تفوق المليون".

تساءل كريس: "هل معنى ذلك أننا من أصحاب الملايين؟".

تدخلت سو قائلة: "كلا، ليس صحيحًا. إن حسابنا الحالى يعرض رصيدًا يزيد بقليل عن عشرة آلاف؛ فأنت إذن من أصحاب العشرة آلاف".

ضحك رئيس مجلس الإدارة، ودعا المجلس لتحية كريس وسو هاسكنز.

أضاف رئيس مجلس الإدارة قائلاً: "أخبرنى جواسيسى يا كريس أنك سوف تصبح الرئيس التالى لنادى الروتارى المحلى".

قال كريس بينما يخفض الكوب: "إنها مجرد شائعة وبالتأكيد لن يحدث هذا قبل أن تتخذ سو مكانها فى اللجنة العليا لاتحاد الأمهات. لا تندهش إذا وصلت لمنصب رئيسة الاتحاد فى البلاد كلها". هكذا أضاف بفخر واضح.

تساءل رئيس مجلس الإدارة: "وعلى هذا، فما الذى تخططان للقيام به تاليًا؟".

فقال كريس دون تردد: "سنأخذ إجازة لمدة شهر فى البرتغال، فبعد خمسة أعوام من تدبر أمورنا على شاطئ كليثوربس، والاكتفاء بأطباق السمك والبطاطس أظن أننا نستحق ذلك".

يصلح ذلك أيضًا لأن يكون نهاية مُرضية لهذه الحكاية، لولا أن تدخلت الجهات الرسمية مرة أخرى؛ وهذه المرة عن طريق رسالة موجهة إلى كل من السيد هاسكنز وزوجته من المدير المالى لمكاتب البريد. وجدا الرسالة بانتظارهما على سجادة المدخل عندما عادا من آلبوفييرا.

المقر الرئيسى لهيئة مكاتب البريد،

١٤٨ أولد ستريت، لندن إيه. سى. آى. فى ٩٠ إتش كيو

العزيزان: السيد والسيدة هاسكنز،

تجرى هيئة مكاتب البريد عملية إعادة تقييم لما لديها من عقارات وممتلكات، وعند الانتهاء من ذلك، سوف تكون هناك بعض التغييرات لحالة بعض مؤسساتها الأقدم.

وعلىَّ بالتالى أن أعلمكما أن مجلس الإدارة اضطر على مضض أن يتخذ قراره بأننا لن نمنح الدرجة "أ" بعد ذلك لمنشأتين فى منطقة كليثوربس. ولما كان الفرع الجديد فى هاى ستريت سوف يستمر فى تقييمه بصفته من الدرجة "أ"، فإن مكتبكما فى فيكتوريا كريسنت سيتم تخفيض درجته إلى الفئة "ب". ومن أجل أن تتمكنا من اتخاذ التعديلات الضرورية، فإننا لن ننوى إجراء تلك التغييرات حتى مطلع العام الجديد.

نأمل فى استمرار علاقتنا بكما.

المخلص،

المدير المالى

بعد أن قرأت سو الرسالة للمرة الثانية قالت : "هل معنى هذا ما فهمته؟".

قال كريس: "ببساطة يا حبيبتى، لا نستطيع أن نأمل أبدًا فى استرداد الاستثمار الأصلى بمبلغ مائتى وخمسين ألفًا، حتى ولو عملنا ليل نهار لبقية حياتنا".

سألت سو: "إذن سوف نعرض مكتب البريد للبيع".

تساءل كريس: "ولكن من الذى سيرغب فى شرائه بهذا الثمن إن اكتشف أن العقار لم يعد من الدرجة "أ"؟".

"لقد أكد لنا موظف شركة بريطانيا أننا ما إن نسدد الدين فإن العقار يساوى المليون".

قال كريس: "هذا فقط إن كانت أرباح الاستثمار خمسمائة ألف ويدر ربحًا بحوالى ثمانين ألفًا فى العام".

"لابد أن نلجأ لطلب استشارة قانونية".

وافق كريس على مضض، بالرغم من أنه كان يعلم الرد الذى سيسمعه من مستشاره. لم يكن القانون فى صفهما، هكذا نصحهما محاميهما بأريحية، وبالتالى فهو لا ينصحهما برفع دعوى ضد مكتب البريد، مادامت نتيجتها غير مؤكدة. قال : "ربما تحرزان نصرًا أخلاقيًا، لكن هذا لن يعنى شيئًا لرصيدكما فى البنك".

كان القرار التالى الذى اتخذه كريس وسو هو أن يعرضا مكتب البريد فى سوق العقارات ويريا إن أبدى أى شخص اهتمامه بالصفقة، ومن جديد اتضح أن رأى كريس صحيح: لم يتجشم مشقة إلقاء نظرة على العقار إلا ثلاثة أزواج وزوجات، ولم يعد أى منهم لإلقاء نظرة أخرى ما إن اكتشفوا أن العقار لم يعد من الدرجة "أ".

قالت سو: "أراهن أن هؤلاء المسئولين هناك فى المقر الرئيسى كانوا يعلمون تمام العلم من زمن بعيد أنهم سوف يغيرون درجتنا من قبل أن يضعوا مالنا فى جيوبهم، ولكن كان

من الأنسب لهم طبعًا ألا يخبرونا بذلك".

قال كريس: "قد تكونين على حق، لكن لا شيء مؤكدًا تمامًا ــ فهم لا يعلنون كل شيء كتابة فى الحين نفسه؛ لذلك لا نستطيع أن نثبت ضدهم أى شيء".

"ولا نستطيع شيئًا آخر".

"فيم تفكرين يا حبيبتى؟".

تساءلت سو: "ما المبلغ الذى سرقوه منا؟".

"حسنًا، إذا كنت تقصدين بهذا مبلغ الاستثمار الأصلى".

"مدخرات حياتنا، كل بنس كسبناه على مدى الثلاثين عامًا الماضية، ناهيك عن معاش التقاعد الخاص بنا".

سكت كريس قليلاً ورفع رأسه؛ ليجرى بعض الحسابات. ثم قال: "باستبعاد أى ربح كنا قد نجنيه ، فبمجرد أن نستعيد مرة أخرى رأسمالنا الأصلى ــــــــ".

كررت سو: "نعم، فقط المبلغ الذى سرقوه منا".

قال كريس: "أكثر قليلاً من مائتين وخمسين ألفًا، إذا لم نضف الفائدة".

"ولم يعد الآن لدينا أى أمل فى رؤية أية نقود ولو بنسًا واحدًا من ذلك الاستثمار الأصلى مرة أخرى، حتى ولو عملنا ليل نهار لبقية حياتنا؟".

"تلك هى الحقيقة يا حبيبتى".

"إذن فأنا أنتوى التقاعد مع مطلع العام الجديد".

سألها كريس: "وما الذى تتوقعين أن نعتمد عليه فى عيشنا خلال بقية حياتنا؟".

"مبلغ استثمارنا الأصلى".

"وكيف تنوين الحصول على هذا المبلغ؟".

"عن طريق استغلال سمعتنا التى لا تشوبها شائبة".

النهاية

نهض كل من كريس وسو مبكرين فى الصباح التالى: فعلى كل حال، كان لديهما الكثير من العمل ليقوما به خلال الشهور الثلاثة التالية إن كانا يأملان فى مراكمة ما يكفى من رأس المال لكى يتقاعدا مع أول أيام شهر يناير. نبهت سو كريس إلى أنه سيكون عليهما اتخاذ استعدادات تفصيلية إن كان مقدرًا لخطتها أن تنجح ولم يخالفها الرأى. كان كل منهما يعرف أنهما لا يستطيعان ضغط الزر قبل يوم الجمعة الثانى من شهر نوفمبر، عندها سيكون لديهما فرصة باتساع ستة أسابيع حسب التعبير الذى استخدمه كريس قبل أن يكتشف (أولئك الأشخاص هناك فى لندن) ما كانا يدبران له. لكن هذا لن يعنى أنه لم يكن هناك الكثير من العمل التمهيدى اللازم فى تلك الأثناء. فى البداية، كانا بحاجة لخطة للهرب، حتى قبل أن يحددا مسألة استعادتهما لأية أموال مسلوبة. لم يعتبر أحد منهما أن ما هما على وشك القيام به يعد سرقة على الإطلاق.

فردت سو على منضدة مكتب البريد خريطة لأوربا. راحا يناقشان البدائل المختلفة لعدة أيام واستقرا فى نهاية الأمر على البرتغال، التى اعتبرها كل منهما مكانا مثاليًا للتقاعد المبكر. فى زياراتهما الكثيرة إلى آلجراف كانا يعودان بصفة دائمة إلى آلبوفيرا، المدينة نفسها التى أمضيا بها شهر عسلهما المختصر، وعادا لزيارتها فى العقد الثانى والعقد الثالث من عمرهما، وقضيا بها الكثير والكثير من احتفالات ذكرى زواجهما، حتى إنهما قد تواعدا على أن يتقاعدا بها إن هما ربحا جائزة فى اليانصيب.

فى اليوم التالى اشترت سو شريطًا لتعليم اللغة البرتغالية للمبتدئين، الذى كانا يديرانه قبل الإفطار فى كل صباح، ثم

يقضيان ساعة أخرى فى المساء، يختبران مهاراتهما اللغوية الجديدة. وكم أسعدهما أن يكتشفا أنهما على مدى السنوات قد نجح كل منهما فى التقاط مفردات من تلك اللغة أكثر مما كانا يدركان. وبالرغم من عدم طلاقتهما، فلم يكونا مبتدئين بكل تأكيد، وسرعان ما انتقل الاثنان إلى شرائط المراحل المتقدمة.

قال كريس لزوجته أثناء حلاقته لذقنه ذات صباح: "لن يكون بمقدورنا أن نستخدم جوازى السفر الخاصين بنا، لابد أن نفكر فى تغيير هوياتنا، وإلا فإن السلطات سوف تمسك بنا على الفور".

قالت سو: "لقد فكرت بهذا الشأن، ولابد أن نستغل لصالحنا عملنا فى مكتب البريد الخاص بنا".

توقف كريس عن الحلاقة، والتفت لينصت إلى زوجته.

"لا تنس أننا بالفعل نوفر كل الوثائق والاستمارات اللازمة لمن يريد من العملاء الحصول على جواز سفر".

لم يقاطع كريس زوجته سو عندما أخذت تشرح له كيف خططت لأن يكونا على ثقة من مغادرتهما البلاد بأمان تام تحت أسماء مستعارة.

ضحك كريس ضحكة مكتومة، ثم قال بعد أن وضع موسى الحلاقة جانبًا: "ربما سوف أطلق لحيتى".

خلال تلك السنوات كان كريس وسو قد عقدا صداقات مع عملاء كثيرين ممن يتعاملون بانتظام مع مكتب البريد. راح كل واحد منهما يدون على صفحات من الورق أسماء جميع عملائهما ممن تنطبق عليهم المعايير التى تبحث سو عنها. وانتهيا إلى قائمة تشتمل على دزينتين من المرشحين: ثلاث عشرة امرأة وأحد عشر رجلاً. ومن تلك اللحظة فصاعدًا، كلما دخل إلى مكتب البريد واحد من هؤلاء العملاء غير المرتابين فى شىء، سوف يخوض كريس أو سو غمار محادثة معه ليس لها إلا هدف واحد.

"هل ستسافرين إلى أى مكان بحلول العام الجديد يا سيدة بروير؟".

"كلا يا سيدة هاسكنز، إن ابنى وزوجته سوف يأتيان إلينا عشية الإجازة، وهكذا سوف يتسنى لنا أن نتعرف على حفيدتنا الجديدة".

أجابت سو: "كم هذا لطيف لكما يا سيدة بروير. أنا وكريس نفكر فى قضاء عيد الميلاد بالولايات المتحدة".

قالت السيدة بروير: "يا للروعة! إننى لم أسافر للخارج أبدًا"، ثم أضافت: "ناهيك عن أمريكا".

اجتازت السيدة بروير جولة ثانية، لكنها لن يتم استجوابها من جديد حتى زيارتها التالية.

مع حلول نهاية شهر سبتمبر، انضمت سبعة أسماء أخرى إلى السيدة بروير على القائمة القصيرة - أربع نساء وثلاثة رجال، جميعهم تتراوح أعمارهم بين الحادية والخمسين والسابعة والخمسين، كما أنهم يشتركون جميعًا فى شىء آخر وهو أنهم لم يسافروا للخارج قبل ذلك قط.

المشكلة الثانية التى واجهت الزوجين هاسكنز كانت ملء استمارة لشهادة ميلاد؛ مما اقتضى أكثر من مجرد استجواب تفصيلى، وكان كل من سو وكريس يتراجعان على الفور ما إن يُظْهِرْ أحد المرشحين على القائمة القصيرة أى علامات من الشك. مع مستهل أكتوبر كانا قد توصلا لأسماء أربعة عملاء ممن زودوهم عن طيب خاطر بتاريخ ميلادهم، ومكان مولدهم، وألقاب أسر أمهاتهم قبل الزواج والاسم الأول للأب.

كانت زيارة الزوجين هاسكنز التالية إلى معمل بوتس بشارع سانت بيتر أفينيو؛ حيث تناويا الجلوس فى حجرة صغيرة وحصلا على عدة شرائط طويلة من الصور الفوتوغرافية التقطت بسعر جنيهين ونصف للمرة. ثم عكفت سو على ملء استمارات الطلبات الضرورية من أجل جواز السفر، نيابة عن

أربعة من عملائها الغافلين. سجلت جميع التفاصيل ذات الصلة بهم، فى حين وضعت صورها الفوتوغرافية هى وكريس، إلى جانب طلب بريدى قيمته ٤٢ جنيهًا، وباعتباره مديرًا لمكتب البريد، كان كريس فى غاية السعادة حين وضع توقيعه باسمه الحقيقى أدنى كل استمارة من التى ملأتها سو.

أرسلت الطلبات الأربعة إلى المقر الرئيسى لمكتب البريد فى بيتى فرانس بـ "لندن"، خلال أيام الاثنين، والثلاثاء، والجمعة، والسبت خلال الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر.

فى يوم الأربعاء الحادى عشر من نوفمبر وصل جواز السفر الأول عائدًا إلى فيكتوريا كريسنت، موجهًا إلى السيد ريج آبليارد. بعدها بيومين، ظهر جواز ثان، باسم السيدة أودرى رامسبوتوم. فى اليوم التالى ظهر جواز السيدة بيتى بروير، وأخيرًا، وبعد أسبوع، وصل جواز السيد ستان جيرارد.

كانت سو قد أوضحت لـ "كريس" مسبقًا أنه سيكون عليهما مغادرة البلاد مستخدمين زوجًا من الجوازات، ثم سيكون عليهما التخلص منهما، قبل الانتقال إلى الزوج الآخر من جوازات السفر، ولكن ليس قبل أن يجدا مكانا يعيشان فيه فى آلبوفييرا.



واصل كريس وسو التمرن على لغتهما البرتغالية كلما كانا بمفردهما فى المكتب، بينما كانا يعلنان لأى عميل يزورهما أنهما سوف يسافران خلال عطلة العام الجديد وأنهما قد خططا لرحلة إلى أمريكا، وأى شخص فضولى كان يحظى ببعض التفاصيل من سو وكريس، فكانا يقولان إنهما سيقضيان أسبوعًا فى سان فرانسيسكو، متبوعًا ببضعة أيام فى سياتل.

بحلول الأسبوع الثانى من نوفمبر، كان كل شىء جاهزًا لضغط زر عملية استعادة المال المسلوب.

فى التاسعة تمامًا من صباح يوم الجمعة أجرت سو اتصالها الأسبوعى للمقر الرئيسى. أدخلت كودها الشخصى قبل أن يتم تحويلها إلى الموظف المالى. الاختلاف الوحيد هذه المرة أنها كان بوسعها أن تسمع صوت ضربات قلبها. كررت كودها قبل أن تبلغ موظف الائتمان بمقدار النقود السائلة التى تطلبها من أجل الأسبوع التالى وكان مبلغًا كبيرًا بما يكفى ليسمح لها بتغطية أية سحوبات من أية حسابات ادخارية بمكتب البريد، وكذلك المعاشات وطلبات البريد النقدية الأخرى، وبالرغم من أن هناك محاسبًا من المقر الرئيسى يراجع على الدوام الدفاتر عند نهاية كل شهر، فلابد من أن هناك فسحة من الحرية مسموحًا بها خلال فترة الاستعداد للأعياد الوشيكة. وعلى هذا، فالتدقيق البالغ سيجرى فى يناير للتأكد من أن الدفاتر متوازنة، غير أن أيًّا من سو أو كريس لم يكن لديه النية بأن يكون موجودًا فى المكان نفسه خلال شهر يناير. وخلال الأعوام الستة الماضية كانت دفاتر سو دائمًا متوازنة ومضبوطة، وكان المقر الرئيسى يعتبرها المديرة المثالية.

كان على سو أن تراجع السجلات لكى تتذكر المبلغ الذى طلبته فى الأسبوع نفسه من العام السابق أربعون ألف جنيه،

والـذى اتضـح أنه أكثر ممـا تريد بثمانمائة جنيـه، وهذا العام طلبـت سـتـين ألفًـا وانتظـرت تعليقًـا من مديـر الائتمـان، لكن الصـوت الـذى أتاهـا مـن المقـر الرئيسـى لم يكـن لا مندهشًـا ولا قلقًـا. وأرسـل المبلـغ كاملاً إليها بسيـارة مؤمنة يوم الاثنين التالى.

علـى مـدار الأسبـوع تعهـد كريـس وسـو بواجباتهمـا نحـو جميع عملائهما؛ فعلى كل حال لم يكونا ينتويان أن يقصرا فى أى مـن عاداتهمـا أو واجباتهما، لكنهما مع ذلك وجدا نفسيهما أمـام مبلـغ فائض عـن الحاجة قيمتـه ٢١ ألف جنيـه مع نهاية الأسبـوع الأول. تركا النقـود مغلقًا عليها فى الخزانة، فى حالة مـا إن قرر مسئول صعـب الإرضاء من المقر الرئيسى أن يجرى تفتيشًا مفاجئًا.

ما إن أغلقت سو الباب الأمامى وأنزلت الستائر فى السادسة مسـاء، لم يكـن يتحـدث أى منهمـا إلا باللغـة البـرتغاليـة، فيما أمضيـا بقيـة المسـاء يمـلآن الطلبـات البـريديـة، ويكشطـون بطاقـات الخدش ويدخلـون أرقـام اليانصيـب، وكثيرًا مـا كانا يسقطان فى النوم وهما يعملان.

فى كل صباح كان كريس يستيقظ مبكرًا ويصعد إلى سيارته الروفـر، ومعـه ستاميس؛ رفيقـه الوحيد. كان يرتحـل شمالاً، وشرقًـا، وجنوبًـا، وغربًـا يوم الاثنـين إلى مكتب بريـد لنكولن، والثلاثـاء إلى مكتـب لاوث، والأربعـاء سكيجنيس، والخميس إلى هـال، والجمعـة أمنجهـام؛ حيث كان يحـوّل سندات بريدية عديـدة إلى نقـود سائلـة، وكذلـك يجمـع مغانمـه مـن بطاقات الخدش وبطاقـات اليانصيب، مما أتاح له أن يكمل مدخراتهما المكتسبـة حديثًـا مضيفًا إليها بضع مئـات أخرى من الجنيهات فى كل يوم.

فـى يوم الجمعة الأخير من شهر نوفمـبر، الأسبوع الثانى، قدمـت سـو طلبًا بمبلغ سبعين ألف جنيه مـن المكتب الرئيسى؛

بحيث أمكنهما فى يوم السبت التالى أن يضيفا اثنين وثلاثين ألفا أخرى لمكاسبهما الخفية.

فى أول أيام الجمعة من شهر ديسمبر، رفعت سو المبلغ إلى ثمانين ألف جنيه؛ وكم اندهشت حين تبينت أنه لم يكن هناك أية تساؤلات من جانب المقر الرئيسى: فعلى كل حال، ألم يتم تكريم سو هاسكنز بصفتها المديرة المثالية للعام، مع التقدير الخاص من مجلس الإدارة؟ وبكل التزام وصلت عربة مؤمنة لتنقل إليهما المبلغ كاملاً، نقودًا سائلة، فى وقت مبكر من نهار الاثنين.

أسبوع آخر من الأرباح المتزايدة سمح لسو هاسكنز أن تضيف تسعة وثلاثين ألفًا إضافية إلى المبلغ المكنوز دون أن يوجد على المائدة لاعبون آخرون يطلبون رؤية ما بين يديها. كانا يعدان الآن المبلغ الزائد عن الحاجة وقيمته مائة ألف جنيه، والذى كان مصفوفًا فى كومات صغيرة منتظمة من الأوراق النقدية المستخدمة، التى ترقد فوق أربعة جوازات سفر دفنت فى قاع الخزانة.

لم يكن كريس يكاد يغمض عينيه فى الليل؛ إذ إنه واصل التوقيع على سندات بريدية لا آخر لها، وراح يخدش أكوامًا من بطاقات الخدش، وقبل أن يدخل إلى الفراش، يملأ أوراق يانصيب عديدة بتركيبات لا نهائية من الأرقام. ويوميًا كان عليه أن يزور كل مكتب بريد فى نطاق خمسين ميلاً، جامعًا مغانمه، ولكن بالرغم من عملهما الدءوب وتفانيهما، وبحلول الأسبوع الثانى من شهر ديسمبر لم يجمع السيد هاسكنز وزوجته أكثر من نصف المبلغ المطلوب استعادته أى المائتى وخمسين ألفًا التى استثمراها فى الأصل.

نبهت سو كريس إلى أن عليهما أن يجازفا مجازفة أكبر؛ إذا كان مازالا يطمحان لجمع المبلغ الكامل بحلول العام الجديد.

فـى يـوم الجمعة الثانى من شهر ديسمـبر، الأسبوع الرابع، اتصلت سو بالموظف المختص فى المقر الرئيسـى، وطلبت مبلغ ١١٥ ألف جنيه.

قـال الصوت علـى الطرف الآخر من الخط: "لديكم موسم مزدحـم للغايـة". أول علامـة ريبـة، هكـذا قالـت سـو لنفسها، ولكنها كانت قد أعدت جيدًا الرد المرسوم.

قالـت سـو له: "لا تتخيل مدى انشغالنـا، ولكن لا تنس أننا فـى كليثوربس لدينا أشخاص يتقاعدون أكثر مـن أى مدينة أخرى على الساحل فى بريطانيا كلها".

أتاهـا الصوت من الطرف الآخر للخـط: "المرء يتعلم شيئًا جديـدًا كل يـوم"، ثم أضاف: "لا تقلقى، سيكون المال لديك يوم الاثنين. واصلى عملك الرائع".

وعدته سـو قائلة: "سأواصل"، مما شجعها على طلب مبلغ مائـة وأربعـين ألفًـا فـى الأسبـوع الأخـير قبـل العـام الجديـد، منتبهـة إلى أن أى مبلـغ يزيد عن المائة والخمسين ألفا لابد أن يراجعه المكتب الرئيسى بلندن.

عندما أنزلت سو الستائر فى السادسة من عشية العام الجديد، كان كل منهما منهكًا كل الإنهاك.

كانـت سـو هـى أول مـن تعافـى من الإنهـاك. ذكـرت زوجها بينما مرت من أمام الخزينة المكتظة عن آخرها : "لا يمكننا أن نضيـع دقيقة واحدة". أدخلت الكود، وفتحت الباب وسحبت كل شـىء مـن حسابهما الجارى، ثـم وضعت المال علـى المنضدة فى رزم منتظمـة ــ أوراق من فئات الخمسين، والعشرين، والعشرة، والخمسة ـ قبل أن يشرعا فى عد مغانمهما.

حسـب كريس الرقـم النهائـى وتأكـد مـن أن لديهمـا فـى حسابهمـا ٢٦٧ ألفًـا و٣٠٠ جنيـه قامـا بإعـادة مبلـغ ١٧ ألفًا و٣٠٠ جنيـه مـن جديد للخزينـة، وأغلقا بابها. فعلى كل حال،

لم ينتويا أبدًا أن يجنيا أرباحًا ـ فهكذا تصير سرقة حقيقية. بدأت سو تحيط كل ألف برباط مطاطى، بينما ينقل كريس المائتى والخمسين ألفًا إلى الكيس القماشى الخشن القديم الذى ينتمى للقوات الجوية. وعند الثامنة صباحًا صارا متأهبين للانطلاق. ضبط كريس جهاز الإنذار، وتسلل بهدوء للخارج من الباب الخلفى ووضع الكيس القماشى فى حقيبة السيارة، أعلى أربع حقائب أخرى قد حزمتها زوجته فى وقت سابق من ذلك الصباح. لحقت به فى مقدمة السيارة، وعندئذ أدار كريس المحرك.

بعد أن جذبت سو الباب لتغلقه قالت: "لقد نسينا شيئًا ما".

وهنا قالا بصوت واحد: "ستامبس". أوقف كريس محرك السيارة، وخرج منها وعاد لمكتب البريد، وأعاد إدخال الكود، وأبطل عمل جهاز الإنذار وفتح الباب الخلفى وراح يبحث عن ستامبس. وجده غارقًا فى النوم بالمطبخ، وتردد كثيرًا قبل أن يأخذه من سلة نومه الدافئة إلى المقعد الخلفى للسيارة. ألم ينتبها أنها عشية العام الجديد؟

أعاد كريس ضبط جهاز الإنذار وأغلق الباب للمرة الثانية.

وفى الثامنة والثلث صباحًا انطلق السيد هاسكنز وزوجته فى رحلتهما إلى آشفورد بكنت. تبينت سو أن أمامهما أربعة أيام طيبة قبل أن ينتبه أى شخص لغيابهما. كان أول يوم فى العام الجديد ويوم تلقى الهدايا، أما الأحد والاثنين فكانا إجازة البنوك، والتى ستعود للعمل نظريا صباح الثلاثاء، وفى ذلك الوقت سيكونان يتفرجان على عقارات للإيجار فى ألجراف.

لم يكد أى من الاثنين ينطق بكلمة خلال الرحلة الطويلة إلى كنت، ولا حتى باللغة البرتغالية. لم تكن سو تصدق أنهما نجحا فى الإفلات بما لديهما، بل إن كريس كان أكثر منها دهشة أمام نجاحهما فى ذلك.

ذكرته سو قائلة: "لم نفلح تمامًا بعد، ليس قبل أن نقود سيارتنا نحو ألبوفيرا، ولا تنس يا سيد آبليارد، لم نعد أنا وأنت نحمل الاسم نفسه كزوج وزوجة".

"هل سنقع فى الخطيئة بعد كل تلك السنوات معاً يا سيدة برويير؟".

أوقف كريس السيارة أمام منزل ابنتهما بعد منتصف الليل مباشرة. فتحت تريسى الباب الأمامى لترحب بأمها، بينما نقل كريس إحدى الحقائب وكذلك الكيس القماشى من مؤخرة السيارة. لم تر تريسى والديها قبل ذلك قط فى هذه الحالة من الإنهاك التام، وشعرت كأنهما تقدما فى العمر كثيرًا منذ أن رأتهما لآخر مرة فى الصيف الماضى. لعلها الرحلة الطويلة وحسب. اصطحبتهما إلى المطبخ، وأجلستهما وأعدت لكل منهما قدح شاى. تحدثا بالكاد، وعندما قادتهما تريسى فى نهاية الأمر إلى الفراش، لم يدعها أبوها تحمل الكيس القماشى لتضعه فى غرفة نوم الضيوف.

ظلت سو تصحو من نومها كلما سمعت صوت سيارة تتوقف هناك بالشارع، وتتساءل عما إذا كانت هذه السيارة عليها الكلمة المضيئة بالنور وبحروف غليظة؛ "شرطة". وكان كريس ينتظر أن يقرع جرس الباب الأمامى قبل أن يسرع أحدهم فوق الدرج صعودًا للدور العلوى ويجر الكيس القماشى من تحت الفراش، ويقبض عليهما ويقودهما إلى أقرب قسم شرطة.

وبعد ليلة من السهاد انضما إلى تريسى بالمطبخ لتناول الإفطار.

قالت تريسى: "عام سعيد" وقبّلت كلاً منهما على خده. لم يرد عليها أى منهما. كيف نسيا أنه صباح العام الجديد؟ بدا كلاهما محرجًا بينما يحدقان فى العلبتين المغلفتين بورق الهدايا وقد وضعتهما ابنتهما أمامهما على المائدة. لم يتذكرا أن يشتريا هدية من أجل تريسى، وبدلاً من ذلك منحاها

نقودًا، وهو الشيء الذى لم يفعلاه منذ أن كانت مراهقة. تمنت تريسى أن يكون الأمر لا يتجاوز ازدحام موسم الأعياد، وانشغالهما، وتحمسهما من أجل سفرهما إلى الولايات المتحدة؛ مما تسبب فى هذا السلوك غير المعهود منهما.

فى نهار اليوم التالى تحسن الحال قليلاً. بدا كريس وسو أكثر استرخاء، بالرغم من أنهما كثيرًا ما خلدا إلى نوبات طويلة من الصمت. اقترحت عليهما تريسى بعد تناول الغداء أن يأخذا ستامبس ليجرى عبر الكثبان وليحصلا على بعض الهواء النقى، وخلال التمشية الطويلة كان أحدهما يبدأ فى النطق بجملة ثم يعود للصمت من جديد. بعدها بدقائق كان الآخر يكمل جملة الأول.

شعرت تريسى فى صباح الأحد أن كلاهما قد تحسنت حالته كثيرًا، بل وراحا يثرثران حول رحلتهما إلى أمريكا. لكن هناك شيئان أصاباها بالحيرة. حين رأت والديها ينزلان الدرج وهما يحملان الكيس القماشى يتبعهما ستامبس بعد أن استيقظا، فإنها تكاد تقسم أنها سمعتهما يتحدثان باللغة البرتغالية. وما الذى يدعوهما لاصطحاب ستامبس إلى أمريكا، بينما قد عرضت عليهما هى بالفعل أن تعتنى بالكلب أثناء رحلتهما؟

أتتها المفاجأة التالية عندما قررا أن ينطلقا بالسيارة إلى مطار هيثرو بعد تناول الإفطار. حين وضع والدها الكيس القماشى والحقيبة الأخرى فى حقيبة السيارة، أدهشها أن ترى ثلاث حقائب كبيرة الحجم موضوعة هناك بالفعل. لماذا يزعجان نفسيهما بكل تلك الأمتعة بينما لن يتغيبا عن الديار لأكثر من أسبوعين؟

وقفت تريسى على الرصيف ولوحت لهما مودعة، بينما انحرفت سيارة أبويها نحو الطريق. حين وصلت السيارة الروفر القديمة إلى نهاية الشارع انعطفت نحو اليمين، بدلاً من جهة اليسار، وهو ما يأخذهما إلى الاتجاه المعاكس لهيثرو. هناك

خطأ ما. تناست تريسى الغلطة، مدركة أنهما سيصححانها قبل أن يصلا إلى الطريق السريع بوقت طويل.

ما إن وصل كل من كريس وسو إلى الطريق السريع، اتبعا العلامات المرشدة إلى دوفر. زاد توتر كل منهما أكثر فأكثر دقيقة بعد أخرى، مدركين أنهما الآن لم يعد لديهما خط رجعة. ستامبس وحده هو الذى بدا أنه يستمتع بالمغامرة وقد راح يحدق من الزجاج الخلفى ويهز ذيله.

ومرة أخرى، راجع السيد آبليارد والسيدة بروير خطتهما. عندما يصلان إلى المرفأ، ستنزل سو من السيارة وتنضم إلى طابور المسافرين بدون سيارات فى انتظار أن يصعدوا على متن العبَّارة، فى حين سيقود كريس السيارة إلى المنحدر المخصص للمسافرين بسياراتهم ويصعد بها على متن العبارة. اتفقا على أن يلتقيا من جديد بعد أن يرسو القارب فى كالى، وكان على كريس عندها أن يقود السيارة إلى شاطئ المرفأ.

توقفت سو فى نهاية الممر الواصل بين البر والعبارة وانتظرت فى قلق بآخر الطابور بينما تراقب حافة سيارتهما الروفر تتوجه نحو مدخل المخزن الخاص بالسفينة. تسارعت دقات قلبها حين رأت ضابط الجمارك يعيد تفحص جواز سفر كريس، ويدعوه للخروج من السيارة وأن يقف إلى الجانب. كان عليها أن تمنع نفسها من الركض إليهما لتسمع حديثهما لم يكن بوسعها المخاطرة بذلك الآن وقد صارا اثنين غريبين عن بعضهما البعض.

قال ضابط الجمارك: "صباح الخير يا سيد آبليارد"، ثم أضاف بعد أن نظر إلى المقعد الخلفى للسيارة : " أتريد أن تأخذ معك الكلب للخارج؟".

فأجابه كريس: "بلى؛ فنحن لا نسافر إلى أى مكان بدون ستامبس".

تفحص ضابط الجمارك مرة أخرى جواز سفر السيد آبليارد بمزيد من العناية: "ولكنك لا تملك الوثائق اللازمة لتصطحب الكلب معك للخارج".

أحس كريس بقطرات من العرق تجرى على جبينه؛ فقد كانت أوراق ستامبس مازالت ملحقة بجواز سفر السيد هاسكنز، التى تركها وراءه فى كليثوربس.

قال كريس: "رباه! لابد أننى تركتها بالبيت".

"يا له من حظ سيئ يا سيدى. أرجو ألا تكون قادمًا من بعيد لأنه ليس هناك عبارة أخرى قبل هذا الوقت نفسه من نهار الغد".

نظر كريس فى خذلان وعجز هناك نحو زوجته، قبل أن يصعد إلى سيارته من جديد. ثم ألقى بنظرة نحو ستامبس الذى كان نائمًا بكل وداعة فى المقعد الخلفى، غافلاً كل الغفلة عن المشكلة التى تسبب بها. عاد كريس بالسيارة ولحق بسو التى بلغ بها التوتر مداه، والتى كانت تنتظر بلهفة شديدة لتعرف لماذا لم يسمحوا له بالركوب. وما إن شرح لها كريس المشكلة، فكان كل ما قالته: "لا يمكننا المجازفة بالرجوع إلى كليثوربس".

قال كريس: "أتفق معك، علينا جميعًا أن نعود إلى آشفورد، ولنأمل أن نجد طبيبًا بيطريًا مازال يعمل فى أيام الإجازة".

قالت سو : "لم يكن هذا جزءًا من خطتنا".

قال كريس: "أعلم، لكننى غير مستعد لترك ستامبس وراءنا"، أومأت سو بالموافقة.

دفع كريس السيارة على الطريق الرئيسى، وبدأ رحلة العودة إلى آشفورد. وصل السيد هاسكنز وزوجته فى الموعد المناسب لمرافقة ابنتهما فى الغداء. كانت تريسى سعيدة بأن والديها كانا قادرين على أن يمضيا معها يومين آخرين، لكنها كانت لا تزال غير قادرة على أن تفهم لماذا لا يمكنهما أن يتركا

ستامبس معها؛ فعلى كل حال لن يغادرا البلاد لما تبقى من حياتهما.

أمضى كريس وسو نهارًا آخر دون كلام، وليلة إضافية بلا نوم فى آشفورد؛ وعاد الكيس القماشى الذى يحتوى على ربع مليون جنيه ليُدَسَّ أسفل الفراش.

يوم الاثنين وافق طبيب بيطرى فى المنطقة عن طيب خاطر أن يقدم لـ ستامبس كل الحقن الضرورية، ثم ألحق شهادة بذلك لجواز سفر السيد آبليارد، ولكن لم يجر هذا فى الوقت المناسب لكى يلحقا بالعبارة الأخيرة.

ليلة الاثنين لم يغمض للزوجين هاسكنز جفن، وبمجرد انطفاء الأضواء فى الشوارع فى الصباح التالى، كان كل منهما يعلم أنهما لم يعد بوسعهما المضى قدمًا فى ذلك. رقدا مستيقظين، يعدان خطة جديدة باللغة الإنجليزية هذه المرة.

ترك كريس وسو ابنتهما أخيرًا بعد تناول الإفطار فى الصباح التالى. قادا سيارتهما حتى نهاية الطريق وفى هذه المرة انعطفا جهة اليسار وليس اليمين كالمرة السابقة، مما أراح تريسى، وتوجها مباشرة نحو كليثوربس. وحين مرا مسرعين بمخرج هيثرو كانت خطتهما البديلة قد تمت.

قالت سو: "فى اللحظة التى نصل فيها البيت، سنعيد المال كله إلى الخزينة من جديد".

تساءل كريس: "ولكن كيف لنا أن نفسر وجود هذا المبلغ كله من النقود السائلة عندما يجرى محاسب مكتب البريد تفقده السنوى خلال الشهر القادم؟".

"بحلول الوقت الذى سيحضرون فيه للفحص وتفقد ما بقى فى الخزينة، مادمنا لن نطلب أى أموال أخرى، فلابد أنه سيكون بمقدورنا التخلص من أغلب هذه النقود بمجرد إجراء تعاملاتنا المالية المعتادة".

"وماذا عن السندات البريدية التى حولناها إلى نقود سائلة؟".

ذكرت سو زوجها قائلة: "مازال هناك من النقود السائلة فى الخزينة ما يكفى لتغطيتها".

"ولكن ماذا عن بطاقات الخدش وأوراق اليانصيب؟".

"سيكون علينا أن نعوض الفرق من مالنا الخاص - وبهذه الطريقة لن يساورهم أى شك".

قال كريس: "أوافقك"، وقد بدا مستريحًا ومطمئنًا للمرة الأولى منذ أيام، وهنا تذكر جوازات السفر.

قالت سو : "سوف نتخلص منها بمجرد الوصول للبيت".

فى اللحظة التى عبر فيها الزوجان هاسكنز حدود لنكولن شاير، كان عليهما أن يتخذا قرارًا بما إذا كانا سوف يستمران فى إدارة مكتب البريد، بالرغم من الوضع المنهار. كانت سو قد توصلت بالفعل إلى عدة أفكار لأغراض إضافية يمكن لهما بيعها من خلال المكتب، بينما يحاولان الاستفادة القصوى من الترخيص الذى تبقى لديهما.

استقرت ابتسامة على شفتى سو عندما انعطف كريس أخيرًا نحو فيكتوريا كريسنت، وتلاشت تلك الابتسامة على الفور عندما رأت الأضواء الزرقاء الوامضة. حين توقفت السيارة الروفر القديمة أحاط بها ثلة من رجال الشرطة.

قالت سو : "اللعنة!" وهى كلمة نابية بالنسبة لرئيسة اتحاد الأمهات، هذا ما دار بخلد كريس، ولكن إحقاقاً للحق كان يوافقها على ما تلفظت به.

ألقى القبض على السيد هاسكنز وزوجته مساء يوم التاسع والعشرين من ديسمبر، وتم اقتيادهما إلى قسم شرطة كليثوربس، ووضع كل منهما فى غرفة تحقيق منفصلة. لم يكن على أفراد الشرطة المحلية أن يستخدموا معهما لعبة الشرطى الطيب ثم الشرطى القاسى؛ لأن كلاً منهما اعترف

فـى الحال. أمضيا الليلة فى زنزانتين منفصلتين، وفى الصباح التالى وُجهت إليهما تهمة الاستيلاء على مائتين وخمسين ألف جنيه، وأنهما استغلا ملكيتهما لمكتب البريد ليحصلا بالتزوير على أربعة جوازات سفر.

وتم إعلانهما مذنبين فى كلتا التهمتين.

أطلق سراح سو هاسكنز من سجن موريتون هول بعد قضائها أربعة أشهر من فترة العقوبة، ولحق كريس بها بعد ذلك بعام.

وبينما كانا فى السجن عمل كريس على وضع خطة أخرى. وبالرغم من ذلك فحين تم إطلاق سراحه لم تشعر شركة بريطانيا فاينينس بالميل لإعادة التعامل معه، وللإنصاف، فقد كان السيد ترماين قد تقاعد.

باع الزوجان هاسكنز عقارهما فى فيكتوريا كريسنت بمبلغ مائة ألف جنيه. بعد ذلك بأسبوع صعدا إلى سيارتهما الروفر القديمة وقاداها حتى دوفر؛ حيث استقلا العبارة من هناك بعد تقديم جوازات السفر الصحيحة. وما إن عثرا على الموقع المناسب على الشاطئ فى آلبوفييرا، قاما بافتتاح متجر للسمك والبطاطس. لم يحقق مطعم الزوجين هاسكنز رواجًا عظيمًا بين السكان المحليين حتى الآن، ولكن مع النظر إلى المائة ألف بريطانى الذين يزورون ألجراف كل سنة، فمن المؤكد أنه لن يعوزهما الزبائن.

كنت واحدًا ممن جازفوا بالمساهمة بمبلغ استثمارى صغير فى مشروعهما الجديد، ويسرنى أن أقول إننى استرددت كل بنس بجانب الفائدة. يا له من عالم غريب! ولكن كما لاحظ القاضى جراى، فإن السيد هاسكنز وزوجته لم يكونا مجرمين.

ملاحظة واحدة أخيرة. لقد مات ستامبس بينما كان كريس وسو فى السجن.

المايسترو



الإيطاليـون هم الشعب الوحيد من الشعوب التى أعرفها الذى لديـه القـدرة علـى أن يخـدم مائدتـك دون خضوع ظاهـر. أما الفرنسيـون فسـوف يسكبـون بكل سـرور الصلصة علـى رابطة عنقك المفضلة، دون أدنى إشارة اعتذار، وهم يلعنونك فى الوقت نفسـه بلغتهـم الأم. لن يتحدث الصينيـون إليك على الإطلاق، أمـا اليونانيـون فلا يجدون أى بأس فـى أن يتركوك لمدة ساعة قبـل أن يقدمـوا لـك قائمـة الطعـام. ولـن يألـوا الأمريكيـون جهـدًا فى أن يخبروك أنهم ليسوا نادلين على الإطلاق، لكنهم ممثلـون عاطلـون عـن العمـل مؤقتاً، ثـم سيشرعون فـى قراءة الأطبـاق الخاصـة على القائمـة وكأنهم يـؤدون دورًا أمام لجنة اختبـار. يميـل الإنجليـز إلى أن يقحمـوك فى محادثـة طويلة، تاركـين لديـك الانطباع بأن عليك أن تتناول عشاءك معهم هم، وليـس مع ضيفك، أما عـن الألمان... حسنًا ، متى كانت آخر مرة أكلت فيها فى مطعم ألمانى؟

وهكـذا فـإن الإيطاليـين لا يتركون شيئًا للشعـوب الأخرى ويجمعـون الفتـات. فهـم يجمعـون بـين سحـر الأيرلنديـين، والخبرة المطبخية للفرنسيين ودقة السويسريين، وبالرغم من قدرتهـم علـى تقديم فاتورة لا تبدو منطقية أبـدًا، فإننا نسمح لهم بالاستمرار فى سرقتنا.

يصدُق هذا بلا خلاف على ماريو جامبوتى.

ينتمـى ماريـو إلى فصيـل كبير مـن أبنـاء فلورنسا ممن لا يحسنـون الغنـاء، أو الرسـم، أو لعب كرة القـدم، وعلى هذا فقد انضـم بـكل سعـادة إلى أبناء بلـده المقيمين بلنـدن؛ حيث افتتح

مطعماً مميزاً.

وكلما ذهبت إلى مطعمه الصغير حديث الطراز فى فولهام من أجل تناول الغداء، يخفى انزعاجه بشكل ما حين أطلب حساء الخضراوات والشعيرية، والسباجيتى بالطريقة البولونية.

يعلن : "يا له من اختيار ممتاز يا مايسترو" دون أن يتجشم عناء تسجيل طلبى على دفتره الصغير. لاحظوا لقب "مايسترو"، فهو لم يقل لى فخامتك، والذى سيعتبر تملقًا. وليس سيدى، والذى سيكون سخيفًا بعد عشرين عامًا من الصداقة، ولكن "مايسترو"، اسم تدليل ودود بشكل خاص، كما أننى استحققته بناء على سلطة موثوق بها (زوجته) لأنه هو نفسه لم يقرأ أى كتاب من كتبى.

عندما كنت سجينًا بالسجن المفتوح فى نورث سى كامب، كتب ماريو رسالة إلى مدير السجن يقترح عليه فيها أن يسمح له بالحضور كل يوم جمعة ليعد لى وجبة غداء. وجد مدير السجن فى طلبه مصدرًا للتسلية، وكتب له ردًا رسميًا، شارحًا أنه كان سيرحب بهذا الفضل من جانبه، لولا القوانين العقابية العديدة التى سيتم خرقها بذلك، ناهيك عن إثارة لا شك فيها للصحف الصفراء التى ستنطلق فى نوبة هياج من العناوين. عندما أرانى مدير السجن نسخة من رده، كان مدهشًا لى أنه قد وقع الرسالة بـ المخلص لك، مايكل.

تساءلت: "هل أنت أيضًا زبون لدى ماريو؟".

أجاب مدير السجن: "كلا، بل هو من كان واحدًا من زبائنى هنا".

يقع مطعم ماريو على طريق فولهام فى تشيلسى، ولعل شعبية المطعم تعود، بقدر كبير منها، إلى زوجته؛ تريزا، التى تدير المطبخ، فى حين يبقى ماريو على الدوام بواجهة المطعم.

اعتدت تناول الغداء هناك يوم الجمعة، فى الغالب بصحبة ابنىَ الاثنين.

وعلى مدار السنوات أدركت أن الكثير من الزبائن لا يتغيرون؛ مما يترك الانطباع بأننا جميعًا أعضاء فى نادى ممنوع على من خارجه؛ حيث من المستحيل تقريبًا على أى شخص أن يحجز مائدة ما لم يكن عضوًا. وبالرغم من ذلك فقد كان البرهان الحقيقى على شعبية ورواج مطعم ماريو أنه لا يقبل الدفع بالبطاقات الائتمانية فهو يرحب بالزبائن من أصحاب الشيكات والنقود السائلة والحساب الجارى، ولكن عبارة لا للبطاقات الائتمانية قد طبعت بالحروف الغليظة فى طرف كل قائمة طعام.



خلال شهر أغسطس يغلق المطعم أبوابه؛ بحيث يتسنى لآل جامبوتى العودة إلى مدينتهم الأم فلورنسا والاتحاد من جديد مع جميع الفروع الأخرى لعائلة جامبوتى.

إن ماريو إيطالى حتى النخاع؛ حيث يمكن رؤية سيارته الفيرارى الحمراء متوقفة أمام المطعم، ولديه يخت - كما يؤكد لى ابنى جيمس - يرسو فى مونت كارلو، وأطفاله تونى، وماريا، وروبرتو، يتعلمون فى مدارس سان باول، وتشلتنهام وسامر فيلدز على الترتيب. فعلى كل حال، من المهم أن يختلطوا بنمط الأشخاص الذين من المتوقع أن يسلبوهم مالهم فى وقت ما من المستقبل، وحين أرى أسرة جامبوتى فى دار الأوبرا من أجل الاستماع إلى أحد مؤلفات الإيطاليين فيردى وبوتشينى، وليس فاجنر أو فيبر فإنهم يكونون على الدوام جالسون فى مقصورتهم الخاصة.

وهكذا، فلعلك تتساءل، كيف إذن ينتهى الحال بهذا الرجل الماكر الذكى أن يخدم فى سجون جلالة الملكة؟ هل تورط فى بعض المناوشات التى أثيرت بعد مباراة كرة قدم بين فريقى آرسنال وفيورينيتنا؟ هل تجاوز السرعة المسموحة ذات مرة وهو يقود سيارته الفيرارى تلك؟ ربما نسى أن يدفع ما عليه من ضرائب؟ لا شىء مما سبق. لقد خرق قانونًا إنجليزيًّا بفعل شىء لا يعد فى أرض أسلافه أكثر من كونه جزءًا مقبولاً من الحياة اليومية.

دخل إلى مجرى الأحداث السيد دينيس كارترايت، الذى يعمل فى مكان آخر من مؤسسات جلالة الملكة.

كان السيد كارترايت مفتشًا فى مصلحة جمع الضرائب البريطانية، وهذا الرجل نادرًا ما كان يتناول طعامه بأحد المطاعم، وبكل تأكيد لم يكن واحدًا من زبائن ماريو المحظوظين. ومتى مال هو وزوجته دوريس لتناول طعام إيطالى فقد كان معنى هذا عادة أن يتناولا البيتزا، ومع ذلك فقد اهتم اهتمامًا كبيرًا بالسيد جامبوتى، وبالطريقة التى يعيش بها هذا العيش الرخى بالنظر لمقدار ما كان يعلنه لمكتب الضرائب المحلى التابع له. فعلى كل حال، كان يظهر أرباحًا قدرها ١٧٢ ألفًا من

الجنيهات، على أساس رأسمال لا يزيد على المليونين. وهكذا، وبعد خصم الضرائب، فإن السيد جامبوتى كان لا يربح هو شخصيًا وقد تأكد دينيس من الأرقام بكل حرص أكثر من مائة ألف جنيه. ومع الأخذ بالاعتبار امتلاك منزل فى تشيلسى، وثلاثة أبناء يذهبون إلى مدارس خاصة وسيارة فيرارى، دون ذكر اليخت الذى يرسو فى مونت كارلو، ومن يعلم ماذا هناك أيضًا فى فلورنسا، فكيف له أن يحوز ذلك كله؟ إن السيد كارترايت، وهو رجل ذو عزم وتصميم، قد عقد عزمه على أن يكتشف السر.

راح مفتش الضرائب يفحص جميع الأرقام المسجلة فى دفاتر مطعم ماريو، وكان عليه أن يعترف أنها مضبوطة، والأنكى من ذلك أن السيد ماريو كان يدفع ما عليه من ضرائب دائمًا فى الوقت المحدد، ومع ذلك لم يكن لدى السيد كارترايت أدنى شك فى أن السيد جامبوتى لابد أنه يسرب مبالغ ضخمة من المال، ولكن كيف؟ لابد أن هناك شيئًا فاته. قفز كارترايت من فراشه فى منتصف الليل وصاح بصوت عال: "لا بطاقات ائتمانية"، وأيقظ زوجته.

فى الصباح التالى، راجع كارترايت الدفاتر مرة أخرى، كان على حق. لم يكن هناك أية بنود تخص البطاقات الائتمانية. وبالرغم من ذلك فقد كانت كل الشيكات مسددة، وكل حسابات الزبائن مستوفاة، والمبلغ الصغير من المال الذى ظهر لا يتناسب تمامًا مع المكتسبات الإجمالية.

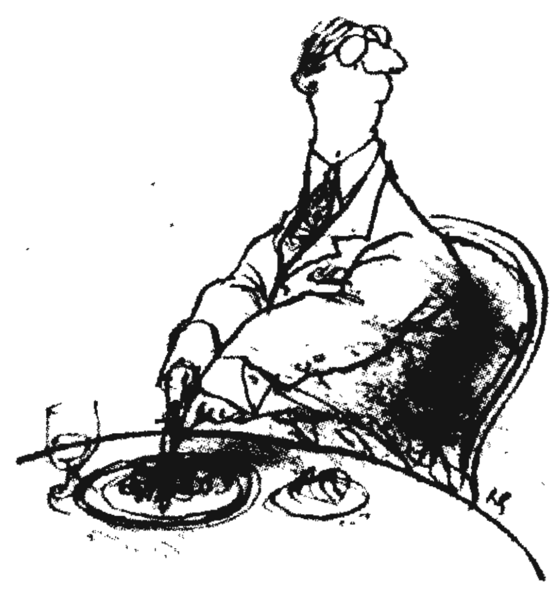
لم يكن السيد كارترايت غافلاً عن أن رؤساءه لن يسمحوا له بإهدار المزيد من الوقت فى تناول الطعام فى مطعم ماريو من أجل أن يحل لغز الطريقة التى يخفى بها السيد ماريو مثل تلك المبالغ المالية الكبيرة من حساباته. وافق السيد بوكانا على مضض على أن يمنح دينيس مبلغًا مقدمًا قيمته مائتا جنيه لكى يحاول أن يكتشف ما الذى كان يحدث بالداخل لابد من

تبرير إنفاق كل بنس بل إن رئيسه لم يوافق على ذلك إلا بعد أن أوضح دينيس له أنه لو استطاع أن يجمع أدلة كافية ليسجن جامبوتى، فلنتخيل كيف سيشعر كثيرون آخرون من مالكى المطاعم بأنهم ملزمون بالإعلان عن مكاسبهم الحقيقية.

فوجئ السيد كارترايت أنه يلزمه شهر ليحجز مائدة فى مطعم ماريو، ولم يتم ذلك إلا بعد عدة اتصالات، أجراها على الدوام من المنزل، حتى استطاع أخيرًا أن يضمن حجزًا. طلب من زوجته دوريس أن تصحبه، آملاً أن يبدو الأمر أقل إثارة للريبة عما لو أنه جلس بمفرده، وراح يدون الملاحظات. وافق مشرفه على هذه الذريعة، لكنه أخبر دينيس بأن عليه أن يتكفل بنصف قيمة الفاتورة، من جيبه الخاص.

أكد دينيس لمشرفه قائلاً: "لم يخطر بعقلى أبدًا أن أفعل غير هذا".

خلال تناول وجبة من حساء البقول التوسكانى وطبق الجنوشى كان دينيس يتمنى أن يقوم بأكثر من زيارة لمطعم



ماريـو ظل يتابع مالك المطعـم بعين يقظة فيما كان يدور حول الموائد؛ ليثرثر فى محادثات صغيرة ويستجيب لأهون مطالب زبائنـه. لم تستطع زوجته أن تمنع نفسها من الانتباه لشروده، لكنهـا قـررت ألا تعلـق على ذلك، بمـا أنه من النـادر أن يدعوها زوجها لتناول الطعام بالخارج، باستثناء يوم عيد ميلادها.

بـدأ السيـد كارترايـت يسجـل فـى ذاكرتـه أنه يوجـد ثمان وثلاثون مائدة تتناثر فى المطعم (وقد تأكد من ذلك المرة بعدً الأخرى) ومائة وعشرون غطاء مائدة تقريبًا. كما لاحظ أيضًا بينمـا كان يحتسى قهوته فى تأن بالغ أن ماريو أفلح فى تنظيم جلسـتين لضيـوف مختلفـين علـى موائد عديـدة. كمـا أعجب بالسـرعـة التـى يتمكـن بهـا ثلاثـة نادلين مـن تنظيـف إحدى الموائـد، واستبدال مفارشهـا ومناديلها؛ بحيث تبدو فى غضون دقائق كما لو أن أحدًا لم يجلس إليها بالمرة.

عندمـا قـدم السيـد ماريـو الفاتـورة دفعهـا دينيس بنقـود سائلة وأصر على أن يأخذ إيصالاً بالدفع. عندما غادرا المطعم، قـادت دوريـس السيارة إلى البيـت؛ مما أتاح لـ دينيـس أن يدون كل الأرقـام المهمة فى دفتره الصغـير بينما لا تزال حاضرة فى ذاكرته.

قالت زوجته معلقة بينما هما فى رحلة العودة إلى رامفورد: "كم كانت وجبة شهية، كم أتمنى أن يكون بمقدورنا الذهاب إلى هناك مرة أخرى".

وعدهـا قائلاً: "سـوف نذهـب الأسبـوع القـادم"، ثـم سكـت لبرهة، قبل أن يضيف: "إذا استطعنا الحصول على مائدة".

قام السيد كارترايت وزوجته بزيارة المطعم مرة أخرى بعد ذلك بثلاثة أسابيع، وهذه المرة لتناول وجبة العشاء. وكم تأثر دينيس عندما تذكر ماريو اسمه، ليس هذا وحسب ولكنه أجلسهما إلى المائـدة نفسها. وبهـذه المناسبة، فقد لاحـظ كارترايت أن ماريو

كان بمقدوره أن يجلس زبائنه فى أماكنهم المعتادة فى أول المساء بنجاح تام؛ وفى منتصف المساء بينما يملأ الزبائن المكان؛ وفى وقت متأخر من المساء والمكان نصف ممتلئ؛ بينما تستمر الطلبات ولا تتوقف قبل الحادية عشرة مساء.

قدر السيد كارترايت بأن حوالى ثلاثمائة وخمسين زبونًا يدخلون ويخرجون من المطعم فى كل مساء، وإذا أضفت إلى هذا زبائن وجبة الغداء، فإن الإجمالى يقترب من الخمسمائة زبون كل يوم. كما أنه قدَّر أن نصفهم تقريبًا يدفعون نقدًا، لكنه مازال لا يملك أى وسيلة لإثبات هذا.

بلغت فاتورة عشاء دينيس ٧٥ جنيهًا (نظير تناول الطعام فى أحد المطاعم مساءًا أكثر من الغداء، ولو أنها تقدم الطعام نفسه فى الحالين). قدر السيد كارترايت أن كل زبون يدفع ما بين ٢٥ و٤٠ جنيهًا، وهذا على أقل تقدير. وعلى هذا فإنه فى أى أسبوع، لابد أن ماريو قد خدم على الأقل ثلاثة آلاف زبون، مما يعود عليه بدخل ٩٠ ألف جنيه تقريبًا كل أسبوع، مما كان يزيد عن أربعة ملايين كل عام، حتى مع خصم حساب شهر أغسطس.

عندما عاد السيد كارترايت إلى مكتبه فى الصباح التالى، راح يراجع من جديد دفاتر حسابات المطعم. كان السيد جامبوتى يعلن إجمالى رأس مال يستثمر فى مشروع قيمته مليونان و١٢٠ ألفًا، ويكشف عن ربح قدره، بعد خصم النفقات، ١٧٢ ألفًا. وعلى هذا فما الذى كان يحدث للمليونين الآخرين؟

بقى السيد كارترايت متحيرًا. أخذ دفاتر الحسابات معه إلى البيت فى المساء، وواصل فحص ومراجعة الأرقام لفترة طويلة من الليل.

"وجدتها"؛ هكذا صاح قبيل ارتداء منامته. إن أحد بنود النفقات لم يكن مضبوطًا. طلب فى الصباح التالى موعدًا لمقابلة مشرفه. أشار دينيس بسبابته نحو أحد بنود قائمة

النفقات، وقال للسيد بوكانان: "سأحتاج إلى أن أضع يدىّ على تفاصيل هذه الأرقام الأسبوعية بالذات" ثم أضاف قائلاً: "والأهم ألا يدرك السيد جامبوتى ما أقوم به". صرح له السيد بوكانان بأن يتغيب عن الحضور إلى المكتب طالما أن الأمر لا يستدعى أية زيارات أخرى لمطعم ماريو.

أمضى السيد كارترايت أغلب وقته خلال إجازة نهاية الأسبوع يطور من خطته ويجودها، مدركاً أن أهون إشارة توحى للسيد جامبوتى بما يجهز له سوف تتيح له ما يكفى من الوقت لمحو أى أثر يمكن تعقبه من خلاله.

استيقظ السيد كارترايت مبكرًا صباح يوم الاثنين وقاد سيارته حتى فولهام، غير حريص على الذهاب للمكتب لتسجيل حضوره. أوقف سيارته السكودا على جانب من أحد الشوارع، فى موقع يمنحه رؤية واضحة لمدخل مطعم ماريو. أخرج دفتر ملاحظاته من جيب داخلى وبدأ يدون أسماء كل مورد مؤن وتاجر زار المحل فى ذلك الصباح.

أولى الشاحنات الصغيرة التى وصلت وتوقفت عند الخط الأصفر المزدوج قبالة الباب الأمامى للمطعم كانت تخص شركة معروفة لتوريد الخضراوات، تبعتها بعد دقائق قليلة سيارة الجزار. كان بائع الزهور الأنيق هو صاحب الدور التالى لتسليم بضاعته، وتبعه تاجر المشروبات، ثم تاجر السمك وأخيرًا وصلت الشاحنة التى كان السيد كارترايت بانتظارها شاحنة غسل المفروشات. أخرج السائق منها ثلاثة صناديق كبيرة، أوصلها إلى داخل المطعم وخرج عائدًا، حاملاً ثلاثة صناديق أخرى إلى الشاحنة وقاد شاحنته منصرفاً بعد ذلك مباشرة. لم يكن السيد كارترايت فى حاجة إلى أن يتبع الشاحنة؛ لأن اسم الشركة وعنوانها ورقم هاتفها كانت كلها مطبوعة على كلا جانبى السيارة.

عاد السيد كارترايت إلى المكتب، واستقر خلف مكتبه قبيل منتصف النهار، وعلى الفور أبلغ مشرفه بما تم وطلب منه إذنًا رسميًا بعمل تفتيش مفاجئ على الشركة المعنية. ومرة أخرى صرح له السيد بوكانان بذلك، ولكن مع نصحه هذه المرة بتوخى الحذر، كما نصح السيد كارترايت بأن يجرى تفتيشًا روتينيًا معتادًا؛ بحيث لا تكتشف الشركة المعنية ما كان يبحث عنه حقًا. أضاف بوكانان: "قد يقتضى هذا وقتًا أطول ولكنه سوف يمنحنا فرصة أفضل للنجاح على المدى البعيد. سوف أرسل إليهم رسالة قصيرة اليوم، وبعدها تستطيع أن ترتب لقاء معهم، واترك لهم حرية تحديد الموعد".



حرص دينيس على تنفيذ اقتراح مشرفه، وهكذا لم يظهر فى مقر شركة ماركو بولو للتنظيف الجاف والغسيل لمدة ثلاثة أسابيع أخرى، وعند ذهابه إلى هناك، وفقًا لموعد محدد، أوضح للمدير أن زيارته ليست سوى فحص روتينى، وأنه لا يتوقع العثور على أى مخالفات.

أمضى دينيس بقية نهاره يراجع ويدقق فى كل حساب من حسابات زبائنهم، ولا يتوقف لتدوين ملاحظات تفصيلية إلا عندما يقابل صفحة تخص مطعم ماريو. وبحلول منتصف

النهار كان قد جمع كل الأدلة التى يحتاج إليها، لكنه لم يغادر شركة ماركو بولو حتى الساعة الخامسة؛ بحيث لا يرتاب أحد فى شىء. قبل أن يغادر دينيس فى نهاية اليوم أسر للمدير أنه راض كل الرضا عن دفاتر حساباتهم وأنه لن توجه إليهم مساءلة أخرى، وما لم يخبرهم به هو أن من ستتم مساءلته هو واحد من أهم الزبائن لديهم.

فى الثامنة من صباح اليوم التالى اتخذ السيد كارترايت مجلسه إلى مكتبه، حريصًا على الانتهاء من تقريره قبل وصول رئيسه.

عند وصول السيد بوكانان فى التاسعة إلا خمس دقائق، وثب دينيس ناهضًا عن مكتبه وعلى محياه أمارات الانتصار. كان على وشك أن يعلن ما لديه من أنباء، حين وضع المشرف إصبعًا على شفتيه وأشار له أن عليه أن يلحق به فى مكتبه. ما إن أغلق الباب حتى وضع دينيس التقرير على المنضدة وأخذ يعرض على رئيسه تفاصيل تحرياته. انتظر بصبر جميل بينما يفحص السيد بوكانان الوثائق ويتأمل تداعياتها المحتملة. رفع نظره أخيرًا عن الأوراق؛ ليشير إلى دينيس أن بوسعه أن يتحدث.

وشرع دينيس فى الحديث: "يظهر لنا هذا أنه فى كل يوم خلال الاثنى عشر شهرًا الماضية كان السيد جامبوتى يرسل مائتى مفرش مائدة وأكثر من خمسمائة منديل مائدة إلى شركة ماركو بولو، وإذا نظرت فقط سيادتك إلى هذه الصفحة" ـ وأضاف مشيرًا إلى دفتر حسابات مفتوح على الجانب الآخر من المكتب ـ "فسوف تلاحظ أن جامبوتى لم يكن يعلن إلا عن مائة وعشرين حجزًا فى اليوم الواحد، من أجل حوالى ثلاثمائة زبون". وتوقف دينيس قليلاً قبل أن يعلن ضربته القاضية كمحاسب: "لماذا يحتاج إلى أن يرسل إلى الغسيل كل عام أكثر من ثلاثمائة مفرش مائدة

وخمسة وأربعين ألف منديل مائدة إلا إذا كان يستقبل خمسة وأربعين ألف زبون آخر؟" ثم توقف من جديد. "إنه يمارس غسيل الأموال"، قالها دينيس دون أن يخفى رضاه عن التورية المضمنة فى عبارته.

قال رئيس القسم : "أحسنت صنعًا يا دينيس، أعد تقريرًا كاملاً وسوف أتأكد من تحويله لقسم جرائم الغش والاحتيال".

حاول ماريو محاولات شتى دون أن ينجح فى أن يفسر لمحاميه المحبط السيد جيرالد هندرسن سبب إرساله ثلاثة آلاف من مفارش المائدة و٤٥ ألفًا من المناديل للغسيل. لم يكن لدى المحامى إلا نصيحة واحدة يقدمها له: "فلتعترف بجرمك، وسوف أرى إن كان بوسعى الوصول لتسوية من أجل تخفيف الحكم".

نجحت مصلحة الضرائب البريطانية فى المطالبة باسترداد مليونى جنيه كضرائب على مطعم ماريو، وحكم القاضى على ماريو جامبوتى بالسجن لمدة ستة شهور، وانتهى الأمر بالسجن المشدد لمدة أربعة أسابيع لا أكثر فقد أعفى من باقى المدة لحسن



سيره وسلوكه بالسجن؛ ولأنها كانت سابقته الأولى فقد وضع تحت المراقبة لمدة شهرين.

بل إن محاميه المحنك السيد هندرسن نجح فى إدراج القضية بحيث تنظر أمام المحكمة خلال الأسبوع الأخير من شهر يوليو. وفسر الأمر للقاضى بأن ذلك هو الوقت الوحيد الذى سيتمكن فيه النائب العام القادم بالمثول أمام سيادته. وافق جميع الأطراف على موعد ٣٠ يوليو.

وبعد أسبوع أمضاه ماريو فى سجن بلمارش المشدد الحراسة بجنوب لندن، تم نقله إلى سجن معسكر مفتوح ببحر الشمال فى لنكولنشاير؛ حيث أكمل تنفيذ حكمه. اختار محامى ماريو هذا السجن لأنه لم يكن يميل لأن يلتقى مصادفة بأحد زبائنه القدامى هناك فى مستنقعات لنكولنشاير.

وفى هذه الأثناء، استقل أفراد أسرة جامبوتى طائرة إلى فلورنسا لقضاء شهر أغسطس؛ حيث عجزوا أن يقدموا للجدات مبررًا وجيهًا لعدم قدوم ماريو هذه المرة معهم.

أُطلق سراح ماريو من معسكر بحر الشمال فى التاسعة من صباح أول أيام شهر سبتمبر.

وبعد أن اجتاز البوابة الأمامية وجد ابنه تونى يجلس أمام مقود سيارته الفيرارى، بانتظار أن يصطحب والده للمنزل. وبعد ثلاث ساعات كان ماريو يقف بالباب الأمامى لمطعمه ليقدم التحية لأول الزبائن، وقد علق كثير من الزبائن حول فقدانه لبعض الأرطال من وزنه أثناء سفره فى الإجازة، بينما أشار آخرون إلى أن بشرته قد اكتسبت سمرة، وجسده صار أكثر رشاقة وأكثر لياقة.

بعد إطلاق سراح ماريو بستة أشهر، قرر مشرف مصلحة الضرائب الذى تمت ترقيته مؤخرًا لهذا المنصب أن يجرى

تفتيشًا مفاجئًا آخر على شركة ماركو بولو للتنظيف الجاف. فى هذه المرة ظهر دينيس، المشرف الجديد، دون إشعار مسبق. وأجرى عينه الخبيرة على الدفاتر؛ ليتبين أن ماريو صار يرسل حاليًا ١٢٠ مفرش مائدة للتنظيف كل يوم، بالإضافة إلى ٣٠٠ منديل مائدة، بالرغم من حقيقة أن المطعم كان يتمتع فيما يبدو بنفس الشعبية. فكيف أفلح فى الإفلات هذه المرة؟

فى الصباح التالى أوقف دينيس سيارته السكودا بطريق فولهام من جديد، بما يتيح له رؤية غير مشوشة للباب الأمامى لمطعم ماريو. كان على ثقة بأن ماريو لابد أن يستخدم الآن أكثر من شركة واحدة للتنظيف الجاف، ولكن ما خيب ظنه أن الشاحنة الوحيدة التى جاءت لتتسلم المفارش ثم غادرت فى ذلك اليوم كانت هى شاحنة شركة ماركو بولو.

قاد السيد كارترايت سيارته عائدا إلى رامفورد فى الثامنة مساء، وهو فى حيرة تامة، ولو أنه ظل يراقب المطعم إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، لكان قد رأى الكثير من النادلين يغادرون المطعم حاملين حقائب رياضية منتفخة تبرز من فتحاتها مضارب الاسكواش. هل سبق لك أن رأيت أى نادل إيطالى يلعب الاسكواش؟

كان العاملون بمطعم ماريو سعداء بأن زوجاتهم يستطعن كسب بعض النقود الإضافية بالقيام بغسل قليل من المفارش والمناديل كل يوم، وخصوصًا أن السيد جامبوتى قد زود كلاً منهن بغسالة فاخرة.

حجزت مائدة بمطعم ماريو لتناول الغداء هناك يوم الجمعة التالية على إطلاق سراحى من السجن. كان يقف بعتبة الباب، بانتظارى لتحيتى، وفى الحال قادونى إلى مائدتى المعتادة فى ركن بجوار النافذة، كما لو أننى لم أتغيب قط.

لم يتجشم ماريو عناء تقديم قائمة الطعام لى؛ ذلك أن زوجته قد ظهرت من المطبخ وهى تحمل طبقًا كبيرًا من الإسباجيتى، وضعته على المائدة قبالتى. وتبعها تونى ابن ماريو مباشرة وبين يديه إناء صلصة البولونيز التى يتصاعد منها الدخان، ثم ابنته ماريا ومعها قطعة كبيرة من جبن البارميزان ومبشرة لبشر الجبن.

اقترح ماريو وهو يفتح سدادة إحدى الزجاجات : "زجاجة من عصير المانجو الممتاز"، ثم أصر : "تحية من المطعم".

قلت : "شكرًا لك يا ماريو، بالمناسبة، إن مدير سجن معسكر بحر الشمال حملنى أطيب أمنياته لك".

تنهد ماريو قائلاً : "يا لمايكل البائس، أى حياة مؤسفة يعيشها! هل يمكنك أن تتخيل، مجرد أن تتخيل شخصًا يعيش عمره كله دون أن يتناول شيئًا غير طعام السجن البائس، المكون من فئران فى الطبق الرئيسى وبكتيريا السلمونيلا للتحلية؟"، وابتسم وهو يصب لى العصير قائلاً : "مهما كان يا مايسترو، أرجوك أن تعتبر نفسك فى بيتك".

لا تشرب الماء



قال لى كارل: "إذا أردت أن تقتل شخصًا ما فلا تفعل ذلك فى إنجلترا".

سألته ببراءة: "ولم لا؟".

فقال كارل زميلى بالسجن محذرًا: "لأنه لا توجد فرصة لأن تفلت بفعلتك دون عقاب"، وواصل بينما نسير على محيط باحة التمرينات البدنية : "سوف تحظى بفرصة أفضل كثيرًا فى روسيا".

قلت مؤكدًا: "سأحاول ألا أنسى هذا".

أضاف كارل: "ولعلمك لقد عرفت رجلاً من بلادكم أفلح فى أن يفلت دون عقاب على جريمة قتل، ولكن هذا كلفه الكثير".

كانت تلك هى ساعة الاختلاط؛ الخمس والأربعون دقيقة المنتظرة التى يُطلَق سراح السجناء من الزنازين، ويكون لكل منهم أن يختار بين أن يقضى وقته فى الطابق الأرضى وهو فى مساحة ملعب كرة السلة تقريبًا فيجلس هناك ليثرثر أو يمارس تنس الطاولة أو يشاهد التلفاز، وبين أن يخرج ليتنسم الهواء النقى ويتمشى حول محيط الباحة التى تقارب فى مساحتها مساحة رقعة ملعب كرة القدم تقريبًا. وعلى الرغم من أننى أكون محاطًا بسور إسمنتى يعلوه سلك شائك يبلغ ارتفاعه عشرين قدمًا دون القدرة على التطلع إلى أى شىء إلا السماء من فوقى فقد كان هذا الوقت هو أسعد أوقات اليوم بالنسبة لى.

بينما كنت سجينًا فى سجن بلمارش وهو سجن الفئة الأولى من حيث تشديد الحراسة ويقع جنوب شرق لندن كنت أبقى فى زنزانتى المغلقة لمدة ثلاث وعشرين ساعة فى اليوم (تخيل هذا). ولا يسمح للسجين إلا بأن يخرج للمقصف لكى يحصل على طعام غدائه (لمدة خمس دقائق)، الذى يتناوله بعد ذلك فى زنزانته. بعد خمس ساعات يخرج لتسلم عشائه (خمس دقائق أخرى)، وحين ذلك يقدمون له كذلك إفطار الغد فى كيس بلاستيكى بحيث لا يضطرون لإخراجه من جديد إلا فى موعد غداء اليوم التالى. كان وقت الاختلاط هو الوقت الوحيد الذى نخرج فيه من الزنازين إلى جانب أوقات خروجنا لتسلم الوجبات، وحتى ذلك قد يلغى إذا ما قل عدد حراس السجن عن المعتاد (وهو ما كان يحدث مرتين كل أسبوع).

كنت دائمًا ما أستغل ذلك المتنفس الذى مدته خمس وأربعون دقيقة فى ممارسة المشى السريع والنشط، لسببين: أولهما أنه كان علىّ أن أتمرن لأننى كنت معتادًا قبل دخول السجن على الذهاب لصالة الألعاب الرياضية القريبة من المنزل خمسة أيام أسبوعيًا، وثانيًا لكى لا يتجشم الكثير من السجناء عناء مصاحبتى فى المشى السريع، لكن كارل كان هو الاستثناء الوحيد.

ولد كارل فى روسيا ونشأ فى مدينة بطرسبرج الجميلة. كان قاتلاً مأجوراً، وقد بدأ منذ قريب تنفيذ حكم بالسجن لمدة ٢٢ عامًا لقتله أحد الرفاق من بنى بلده كان قد سبب متاعب لإحدى عائلات المافيا هناك بالوطن. كان يقوم بتقطيع جثث ضحاياه إلى أشلاء صغيرة، ويضع ما تبقى منهم فى محرقة تحيلهم إلى رماد. وبالمناسبة، فى حالة ما إذا احتجت للتخلص من أحدهم، فإن أجرته خمسة آلاف جنيه.

كان كارل رجلاً ضخمًا مثل الدب، طوله ست أقدام وعرضه قدمان وله بنية جسدية لرافع أثقال. كان جسمه مغطى

بالأوشام ولا يتوقف أبداً عن الحديث. وبناء على ما قدمته من وصف له، رأيت أنه من الحكمة ألا أقاطع تدفق حديثه قط. ومثل الكثيرين من المساجين، لم يتحدث كارل عن جريمته هو، والقاعدة الذهبية في السجن إن حدث وانتهى بك الأمر خلف قضبانه هي ألا تسأل أبدًا أي سجين عما أدى به إلى هناك، إلا إذا أثار هو الموضوع. ومع ذلك ، فقد روى لي كارل حكاية رجل إنجليزي مر بمدينة بطرسبرج؛ حيث كان كارل، حسب زعمه، شاهد عيان على الأحداث أثناء عمله سائقًا لدى أحد الوزراء.

وبالرغم من أننا كنا، أنا وكارل، نزيلين في عنبرين مختلفين؛ فقد كنا نلتقي بانتظام خلال الاستراحة. ولكن الأمر اقتضى جولات عديدة حول الباحة قبل أن أعرف منه قصة ريتشارد بارنزلي.

***

لا تشرب الماء. حدق ريتشارد بارنزلي (ديك) في البطاقة البلاستيكية الصغيرة التي وُضعت فوق حوض الاغتسال في حمامه. لا يتوقع المرء وجود مثل هذا النوع من التحذيرات إذا كان نزيلاً بفندق خمس نجوم، إلا إذا كان بالطبع في مدينة بطرسبرج. بجانب الملاحظة وضعت زجاجتا مياه من نوع إيفيان. حين سار ديك عائدًا إلى غرفة نومه الفسيحة وجد زجاجتين أخريين موضوعتين على كلا جانبي الفراش المزدوج، وزجاجتين أخريين على المنضدة المجاورة للنافذة. لقد اتخذت الإدارة كل الاحتياطات اللازمة.

سافر ديك حتى بطرسبرج من أجل إتمام تعاقد مع الروسيين. فقد اختيرت شركته لإنشاء خط أنابيب سوف يمتد من جبال الأورال حتى البحر الأحمر، قدمت شركات عديدة أخرى، أكثر رسوخًا من شركته، عروضها للفوز بالمشروع، وعلى خلاف الاحتمالات الوجيهة، فقد فازت شركة ديك بالمقاولة،

غير أن هذه الاحتمالات صارت لصالحه ما إن ضمن ديك لـ أناتول شينكوف ، وزير الطاقة، الصديق الشخصى للرئيس، أن يتلقى مبلغ مليونى دولار كل عام حتى نهاية حياته والعملتان الوحيدتان التى يتاجر بهما الروس هما الدولار والموت خصوصًا أن المال سوف يودع بحساب مرقم.

قبل أن يفتتح ديك شركته الخاصة، بارنزلى للإنشاءات، تعلم أسرار مهنته بالعمل فى كل من نيجيريا لحساب شركة بشتل، وفى البرازيل لحساب شركة ماكابلاين، وفى السعودية لحساب شركة هانوفر، وخلال تلك الفترة كان قد تعلم حيلة أو اثنتين حول الرشاوى. أغلب الشركات العالمية تعتبر الرشوة ببساطة كأنها نوع من الضرائب، وتعد ما يلزمها من مال كلما قدموا عطاء للفوز بأحد المشروعات. والسر دائمًا هو أن تعرف مقدار المال الذى يجب تقديمه للوزير، والمقدار القليل اللازم للتعامل مع معاونيه.

كان أناتول تشينكوف وهو أحد الوزراء المعينين من قبل الرئيس بوتين مفاوضًا صعب المراس، ولكنه كان برتبة ميجور فى المخابرات الروسية تحت نظام حكم سابق. ومع ذلك فحين تعلق الأمر بفتح حساب فى سويسرا، كان من الواضح أن الوزير مبتدئ وبلا خبرة. وقد أحسن ديك استغلال هذا؛ فعلى كل حال لم يسبق لتشينكوف أن سافر خارج الحدود الروسية قبل أن يدخل إلى اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى. اصطحبه ديك فى رحلة جوية إلى جنيف خلال إجازة نهاية الأسبوع، بينما كان هو فى زيارة رسمية إلى لندن من أجل محادثات تجارية. فتح له حسابًا مرقمًا ببنك بيكيت وشركاه، وأودع فيه مائة ألف ـ كمبلغ مبدئى ـ ولكنه أكثر مما جناه تشينكوف طوال حياته. كان الهدف من هذا الطعم حلو المذاق التأكد من أن الحبل السرى سيبقى بينهما حتى توقيع العقد؛ العقد الذى سيتيح لـ ديك أن يتقاعد بدخل يتجاوز

كثيرًا المليونين سنويًا.

عاد ديك إلى الفندق ذلك الصباح بعد اجتماعه الأخير بالوزير، وقد صار يراه يوميًا خلال الأسبوع الماضى، أحيانًا فى أماكن عامة، والأغلب على انفراد فى أماكن خاصة. لم يكن الأمر يختلف عندما زار تشينكوف لندن. لا أحد منهما وثق فى الآخر، ولكن ديك لم يشعر بالارتياح لأى شخص على استعداد لتقاضى رشوة؛ لأن هناك دائمًا شخصًا آخر يسره أن يدفع له نسبة مئوية أفضل، وعلى الرغم من ذلك، شعر ديك بمزيد من الثقة هذه المرة، ذلك أن كلاً منهما بدا راغبًا فى توقيع العقد من أجل حلم التقاعد نفسه.

كما نجح ديك فى تقوية العلاقة بينهما عن طريق بعض الخدمات الإضافية التى سرعان ما اعتادها تشينكوف. سيارة رولزرويس تقله من مطار هيثرو إلى فندق سافوى. وعند وصوله كان يتم استقباله فى الجناح المطل على النهر من الفندق، وكانت تطهر النساء كل ليلة فى جناحه بكل الأشكال والأحجام.

عندما غادر ديك فندق سانت بطرسبرج بعد ذلك بساعة ونصف، كانت سيارة الوزير البى إم دابليو متوقفة أمام الباب الأمامى لتصحبه إلى المطار، وعندما جلس بالمقعد الخلفى، اندهش حين وجد تشينكوف بانتظاره؛ فلم تمض سوى ساعة واحدة على تفرقهما بعد اجتماع الصباح.

سأله فى قلق: "أثمة مشكلة يا تشينكوف؟".

قال تشينكوف: "على العكس، لقد تلقيت مكالمة من الكرملين للتو، وقد أحسست أنه لا ينبغى علينا مناقشتها هاتفيًا، أو حتى فى مكتبى. سوف يقوم الرئيس بزيارة سانت بطرسبرج فى السادس عشر من مايو وقد أعلن رغبته فى ترأس مراسم توقيع العقود".

قال ديك : "لكن هذا لا يتيح لنا إلا ثلاثة أسابيع أو أقل من

أجل إتمام التعاقد".

ذكره تشينكوف قائلاً: "لقد أكدت لى أثناء اجتماعنا هذا الصباح أنه لم يتبق إلا القليل الذى يجب القيام به والمرور فوقه وهو تعبير غريب لم يسبق لى أن سمعت به قبل أن تكون قادرًا على إنهاء إجراءات التعاقد. توقف الوزير لبرهة وأشعل سيجاره الأول لهذا اليوم قبل أن يضيف قائلاً: "مع وضع هذا فى الاعتبار يا صديقى العزيز، فإننى أتطلع لرؤيتك تعود إلى سانت بطرسبرج خلال ثلاثة أسابيع". بدت عبارة تشينكوف عادية وبسيطة، ولكن فى حقيقة الأمر، لقد لزمهما ثلاثة أعوام ليصل هذان الرجلان إلى هذه المرحلة، والآن لم يتبق إلا أسابيع ثلاثة قبل إبرام الصفقة أخيراً.

لم يجبه ديك؛ فقد كان مازال يفكر فى كل ما يجب إنجازه ما إن تلمس طائرته أرض مطار هيثرو.

سأله تشينكوف مقاطعًا تتابع أفكاره: "ما أول شىء سوف تقوم به بعد إبرام الصفقة؟".

"سأقدم عرضًا للحصول على تعاقد إنجاز المرافق الصحية فى هذه المدينة. فأيًا كان الشخص الذى سيفوز بها فلا شك أنه سيفوز بثروة أضخم بكثير.

نظر الوزير حوله بحدة، وقال بجدية : "إياك وإثارة هذا الموضوع فى أماكن عامة على مسامع الناس؛ فهى مسألة بالغة الحساسية".

تحلى ديك بالصمت.

"واعمل بنصيحتى، لا تشرب الماء. فى العام الماضى فقدنا عددًا لا يحصى من مواطنينا الذين تعاقدوا على...". .

تردد الوزير، وأحجم عن إضافة مزيد من المصداقية على قصة زينت بعناوينها الصفحات الأولى لكل صحيفة فى الغرب.

تساءل ديك: "كم يبلغ ذلك العدد الذى لا يحصى؟".

"صفر" هكذا أجابه الوزير، ثم أضاف بينما توقفت السيارة أمام خط أحمر مزدوج خارج مدخل مطار بولكوفو الثانى: "أى ولا واحد، أو ذلك على الأقل ما صرحت به الإحصاءات الرسمية التى أصدرها وزير السياحة"، ثم انحنى للأمام وقال: "كارل، خذ أمتعة السيد بارنزلى لكى تسجلها على الطائرة بينما أنتظرك هنا".

مال ديك للأمام وصافح الوزير للمرة الثانية هذا الصباح. قال : "شكرًا لك يا أناتول على كل شىء، أراك بعد ثلاثة أسابيع".

قال تشينكوف بينما خرج ديك من السيارة: "عمرًا مديدًا وسعيدًا يا صديقى".

سجل ديك بياناته فى مكتب المغادرة قبل ساعة من موعد رحلته إلى لندن.

انبعث صوت ذو رنين من مكبر الصوت: "هذا هو النداء الأخير للرحلة ٩٠٢ المغادرة إلى لندن، مطار هيثرو".

سأل ديك الموظف: " هل هناك أية رحلة أخرى مغادرة إلى لندن الآن؟".

أجاب الرجل من وراء مكتب التسجيل: "نعم، الرحلة ٩٠٢ قد تأخر موعدها وستنطلق الآن، لكنهم على وشك إغلاق البوابة".

سأل ديك، بينما مرر ورقة نقدية فئة ألف روبية فوق المنضدة قائلاً: "أيمكنك أن تضعنى عليها؟".

حطت الطائرة التى استقلها ديك على أرض مطار هيثرو بعد ذلك بثلاث ساعات ونصف؛ وما إن تسلم أمتعته من الناقل الدوار، دفع أمامه عربة نقل الأمتعة عبر القناة الخالية ودخل قاعة الوصول.

كان سائقه الخاص، ستان، منتظرًا بالفعل بين مجموعة من السائقين، أغلبهم يمسكون بطاقات كتبت عليها أسماء. ما

إن لحظ ستان سيده حتى اتجه نحوه فى الحال وأراحه من الحقيبة الكبيرة وحقيبة الكتف.

"إلى المنزل أم إلى المكتب؟"، هكذا سأله ستان بينما سارا نحو موقف السيارات المحدد الوقت.

تفقد ديك ساعته: تجاوزت الرابعة بقليل. قال : "المنزل، سأعمل هنا بالسيارة".

ما إن انطلقت سيارة ديك الجاجوار من الموقف لتبدأ رحلتها إلى فرجينيا واتر حتى اتصل بمكتبه.

انبعث صوت يقول: "مكتب ريتشارد بارنزلى".

قال ديك: "مرحبًا يا جيل، إنه أنا. لقد تمكنت من اللحاق برحلة مبكرة، وأنا فى طريقى للمنزل. هل هناك أى شىء علىّ أن أقلق بشأنه؟"

أجابت جيل: "كلا، كل شىء يجرى على ما يرام، جميعنا ننتظر حتى نعرف كيف سارت الأمور فى سانت بطرسبرج".

"لا يمكنها أن تكون أفضل من هذا. يريدنى الوزير أن أعود إليهم فى السادس عشر من مايو لتوقيع العقد".

"ولكن هذا بعد أقل من ثلاثة أسابيع".

"مما يعنى أنه سيكون علينا جميعًا أن نتحرك بسرعة. رتبى إذن لاجتماع مجلس إدارة فى وقت مبكر من الأسبوع القادم، ثم حددى لى موعدًا للقاء سام كوين غدًا صباحًا قبل أى شىء آخر. لا يمكننى تحمل نتائج أية هفوات فى هذه المرحلة".

"هل يمكننى أن أسافر معك إلى سانت بطرسبرج؟".

ليس هذه المرة يا جيل، ولكن ما إن يتم توقيع العقد أى بعد عشرة أيام بالتمام، عندئذ سآخذك إلى مكان أفضل من سانت بطرسبرج".

جلس ديك هادئًا فى المقعد الخلفى للسيارة، وراح يراجع كل شىء يجب تنفيذه قبل أن يعود إلى سانت بطرسبرج، وعندما

عبر السائق ستان البوابات الحديدية وتوقف أمام القصر بطرازه المعمارى الذى يعود للعصر الجورجى الحديث كان ديك قد عرف على التحديد ما ينبغى عمله. قفز خارجًا من السيارة وركض إلى داخل المنزل. ترك الأمتعة لكى يخرجها ستان من السيارة ثم لتفرغها مديرة منزله بعد ذلك. اندهش ديك لعدم رؤيته زوجته تقف أعلى السلم الخارجى للمنزل، بانتظار أن تقدم له التحية، لكنه تذكر عندها أنه لحق برحلة طيران مبكرة، وأن زوجته مورين لم تكن تتوقع عودته قبل ساعتين أخريين على الأقل.

صعد ديك للدور العلوى ركضًا إلى غرفة نومه، وتخلص من ملابسه بسرعة، وأسقطها فى كومة على الأرض. دخل الحمام واتجه صوب الدش، تاركًا زخات المياه الدافئة أن تخلصه ببطء من وعثاء سانت بطرسبرج وأيروفلوت.

بعد أن ارتدى بعض الملابس المريحة، تفقد ديك مظهره فى المرآة. إنه فى الثالثة والخمسين من العمر، وقد شب المشيب فى شعره بثبات، وعلى الرغم من محاولته شد معدته إلى الداخل، كان يعلم أن عليه أن ينقص وزنه بضعة أرطال، بما يسمح له أن يشد حزام سرواله أضيق بثقبين ـ ما إن يتم توقيع هذا التعاقد ويصير لديه بعض الوقت الفائض ـ هكذا وعد نفسه.

غادر غرفة النوم، وهبط نحو المطبخ. طلب من الطاهية أن تعد له طبق سلطة، ثم تمشى إلى غرفة المكتب، والتقط صحيفة التايمز، وألقى نظرة على العناوين الرئيسية. رئيس جديد لحزب المحافظين، ورئيس جديد لحزب الديمقراطيين الليبراليين، وقد انتخب الآن جوردون براون لرئاسة حزب العمل. ما من حزب واحد من الأحزاب الكبرى سيخوض الانتخابات التالية تحت رئاسة الزعيم نفسه.

رفع ديك بصره عن الصحيفة حين دق جرس الهاتف. سار حتى المكتب الذى تستخدمه زوجته والتقط السماعة، فسمع

صوت جيل على الطرف الآخر من الخط.

قالت له: "تم تحديد اجتماع مجلس الإدارة يوم الخميس التالى فى العاشرة صباحًا، وقد رتبت لك كذلك موعدًا مع سام كوين بمكتبه فى الثامنة من صباح الغد". أخرج ديك قلمًا من جيب داخلى لسترته، ثم أضافت جيل: " وقد أرسلت رسالة إلكترونية لكل أعضاء مجلس الإدارة للتذكير بأهمية الاجتماع".

" فى أى موعد قُلت سألتقى بسام غدًا؟".

" الثامنة صباحًا بمكتبه. عليه أن يكون بالمحكمة الساعة العاشرة من أجل عميل آخر".

قال ديك: " رائع"، ثم فتح جارور مكتب زوجته والتقط أول ورقة كانت بمتناول يده. كتب: سام، مكتبه، ٨، الخميس اجتماع الإدارة، ١٠. وأضاف قائلاً: " أحسنت عملاً يا جيل، من الأفضل أن تحجزى لى بفندق جراند بالاس، وترسلى للوزير رسالة إلكترونية لتنبهيه إلى الموعد الذى سأصل فيه".

أجابت جيل: " لقد قمت بذلك بالفعل. وقد حجزت لك أيضا على رحلة متجهة إلى سانت بطرسبرج بعد ظهر يوم الجمعة".

"أحسنت عملاً. أراك بالعمل فى العاشرة صباحا". وضع ديك سماعة الهاتف، وسار إلى غرفة مكتبه، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. كان كل شىء يمضى على ما يرام.

عندما وصل إلى غرفة مكتبه، نقل ديك تفاصيل موعديه إلى دفتر يومياته. كان على وشك أن يلقى بالورقة إلى سلة المهملات عندما قرر فقط أن يتفقدها ليرى إن كانت تتضمن أى شىء له أهمية. فض الورقة، وبدأ يقرأ ما فيها. تحولت ابتسامته إلى تقطيبة عبوس، قبل أن يصل إلى الفقرة الأخيرة بوقت طويل، وبدأ يقرأ الرسالة من جديد، التى كتب عليها

أنها رسالة خاصة وشخصية.

عزيزتى السيدة بارنزلى،

هذا توكيد لموعدنا بمكتبنا يوم الجمعة، ٣٠ أبريل؛ حيث سوف نستكمل التوصل لقراراتنا بشأن الموضوع الذى أثرته معى الثلاثاء الماضى، وبعد أن راجعت التداعيات الكاملة لقرارك طلبت من شريكى الأساسى أن يشرفنا فى هذه الجلسة.

كلانا نتطلع لرؤيتك يوم الثلاثين من الشهر الحالى.

المخلص

آندرو سيموندز

وعلى الفور التقط ديك سماعة الهاتف على مكتبه، وأدار رقم سام كوين، على أمل ألا يكون قد غادر مكتبه مسبقًا وقد أنهى يوم عمله. عندما أجاب سام كوين على خطه الخاص، كان كل ما قاله ديك هو: "هل سمعت بمحام يدعى آندرو سيموندز؟".

قال سام: "أعرفه بالاسم فقط، ولكن ذلك لأننى لست مختصًا بقضايا الطلاق".

قال ديك: "الطلاق؟"، ثم سمع صوت سيارة تقترب على الممشى المفروش بالحصباء. ألقى نظره خارج النافذة ليرى السيارة الفولكسفاجن تدور فى حلقة وتتوقف قبالة الباب الأمامى. راقب ديك زوجته وهى تخرج من السيارة، ثم أردف قائلاً: " سأراك غدًا فى الثامنة صباحًا يا سام، ولن يكون التعاقد الروسى هو الأمر الوحيد على جدول عملنا".

فى الصباح التالى أوصل السائق ديك حتى مكتب سام كوين فى لينكولنز إن فيلد قبل الثامنة تمامًا ببضع دقائق. نهض المحامى الخاص ليقدم التحية لعميله ما إن دخل الغرفة. أومأ

له ليستريح ويتخذ مقعدًا على الجانب الآخر من المكتب.

و قبل أن يستريح فى جلسته فتح ديك حقيبة أوراقه. أخرج الرسالة ومدها نحو سام. قرأها المحامى ببطء، قبل أن يضعها أمامه على المكتب.

قال سام: "لقد فكرت بالمشكلة ليلة أمس، وقد تبادلت الرأى فى عجالة مع آنا رنتول، شريكتنا المختصة بقضايا الطلاق. وقد أكدت لى أن سيموندز هذا لا يتولى إلا قضايا النزاعات الزوجية، فمع النظر لهذه المعلومة، يؤسفنى أن أقول لك إننى مضطر إلى أن أطرح عليك بعض الأسئلة الشخصية للغاية".

أومأ ديك برأسه دون تعليق.

"هل سبق لك أن ناقشت مسألة الطلاق مع مورين؟".

قال ديك بصرامة: "كلا، ولكن تحدث بيننا مشاجرات بين الحين والآخر، ولكن هل يوجد زوجان عاشا معًا أكثر من عشرين عامًا دون أن يتشاجرا بين الحين والآخر؟".

"هذا كل ما هنالك؟".

"وقد هددت مرة بأن تتركنى، ولكننى اعتقدت أن الأمر قد مضى وانقضى". توقف ديك لبرهة ثم أردف: "إننى مندهش، وحسب، من أنها لم تفتح الموضوع معى قبل أن تذهب لاستشارة محام".

قال سام: "هذا كله شديد الشيوع، أكثر من نصف الأزواج الذين ترفع ضدهم دعاوى للطلاق يقولون إنهم لم يروا نُذُره تقترب من حياتهم".

اعترف ديك: "لابد أننى من هذه الفئة، والآن ماذا عساى أن أفعل بعد ذلك؟".

" ليس بوسعك أن تفعل الكثير قبل أن تتحرك هى بصورة رسمية، ولا أظن أننا سوف نستفيد أى شىء إذا ما أثرت الموضوع معها. فعلى كل حال، قد لا يسفر أى شىء عن هذا. ومع ذلك فهذا لا يعنى أننا لا يجب أن نستعد. والآن، على أى أساس قد

له ليستريح ويتخذ مقعدًا على الجانب الآخر من المكتب.

و قبل أن يستريح فى جلسته فتح ديك حقيبة أوراقه. أخرج الرسالة ومدها نحو سام. قرأها المحامى ببطء، قبل أن يضعها أمامه على المكتب.

قال سام: "لقد فكرت بالمشكلة ليلة أمس، وقد تبادلت الرأى فى عجالة مع آنا رنتول، شريكتنا المختصة بقضايا الطلاق. وقد أكدت لى أن سيموندز هذا لا يتولى إلا قضايا النزاعات الزوجية، فمع النظر لهذه المعلومة، يؤسفنى أن أقول لك إننى مضطر إلى أن أطرح عليك بعض الأسئلة الشخصية للغاية".

أومأ ديك برأسه دون تعليق.

"هل سبق لك أن ناقشت مسألة الطلاق مع مورين؟".

قال ديك بصرامة: "كلا، ولكن تحدث بيننا مشاجرات بين الحين والآخر، ولكن هل يوجد زوجان عاشا معًا أكثر من عشرين عامًا دون أن يتشاجرا بين الحين والآخر؟".

"هذا كل ما هنالك؟".

"وقد هددت مرة بأن تتركنى، ولكننى اعتقدت أن الأمر قد مضى وانقضى". توقف ديك لبرهة ثم أردف: "إننى مندهش، وحسب، من أنها لم تفتح الموضوع معى قبل أن تذهب لاستشارة محام".

قال سام: "هذا كله شديد الشيوع، أكثر من نصف الأزواج الذين ترفع ضدهم دعاوى للطلاق يقولون إنهم لم يروا نُذُره تقترب من حياتهم".

اعترف ديك: "لابد أننى من هذه الفئة، والآن ماذا عساى أن أفعل بعد ذلك؟".

" ليس بوسعك أن تفعل الكثير قبل أن تتحرك هى بصورة رسمية، ولا أظن أننا سوف نستفيد أى شىء إذا ما أثرت الموضوع معها. فعلى كل حال، قد لا يسفر أى شىء عن هذا. ومع ذلك فهذا لا يعنى أننا لا يجب أن نستعد. والآن، على أى أساس قد

"ماذا عساى أن أفعل إذن؟".

"لا تفعل شيئًا قد يثير الشبهات؛ استمر فى متابعة أعمالك كالمعتاد، كما لو أنك لا تعلم شيئًا عما تدبره لك. وفى هذه الأثناء، سوف أرتب استشارة مختصة؛ فعلى الأقل سنكون أفضل استعدادًا مما قد يتوقع سيموندز. وشىء واحد أخير". قالها سام، وهو ينظر من جديد إلى عينى عميله: "لا مزيد من النزوات العاطفية حتى نجد حلاً لهذه المشكلة. اعتبر ذلك أمرًا نافذًا".

راح ديك يراقب زوجته بعين يقظة خلال الأيام القليلة التالية، ولكنها لم تظهر أية إشارة على وجود أى شىء ينذر بالشر، وكل ما هنالك أنها أظهرت اهتمامًا غير معتاد بسير الأمور فى رحلة سانت بطرسبرج، بل إنها على العشاء فى مساء الخميس سألت زوجها إن كان مجلس الإدارة قد اتخذ قراره بشأن الصفقة.

أجابها ديك مؤكدًا: "لقد فعلوا ولا شك، فما إن أوضح لهم سام كل بند، وراجع معهم كل تفصيلة صغيرة، وأجاب عن جميع تساؤلاتهم، حتى وافقوا دون أية اعتراضات وصدقوا على العقد". ثم صب ديك لنفسه قدحًا ثانيًا من القهوة، وقد استولت عليه الدهشة أمام سؤال زوجته التالى.

"لم لا أصحبك فى رحلتك إلى سانت بطرسبرج؟ يمكننا أن نستقل الطائرة معًا يوم الجمعة"، ثم أضافت قائلة: "ونقضى نهاية الأسبوع فى زيارة متحف الهيرميتاج ونزور القصر الصيفى. بل وقد نجد وقتًا كافيًا لرؤية مجموعة كاثرين من الكهرمانات ـ وهو شىء لطالما أردت القيام به".

لم يجبها ديك فى الحال، مدركًا أنه لم يكن اقتراحًا معتادًا؛ فقد مضت سنوات منذ أن صحبته مورين فى رحلة عمل. كان أول رد فعل له هو تساؤله فى نفسه عما تدبره زوجته. أجابها أخيرًا: "دعينى أفكر فى هذا الأمر". وسها عن قهوته حتى بردت.

بعد دقائق من وصول ديك إلى مكتبه اتصل بسام كوين وحكى له المحادثة مع زوجته.

قال كوين مقترحًا: "لابد أن محاميها سيموندز نصحها بأن تشهد مراسم توقيع العقد".

"ولكن لماذا؟".

"لكي يتسنى لورين أن تدعي أمام المحكمة أنها خلال السنوات الماضية لعبت دورًا خطيرًا في نجاحك المهني، وكانت دائمًا إلى جوارك تدعمك في تلك اللحظات المصيرية بحياتك المهنية...".

قال ديك: "سحقًا، لم يكن لديها أدنى اهتمام بكيفية جمع هذه الأموال، كل ما اهتمت به هو كيف يمكنها أن تنفقها".

"...وبالتالي فلابد أن تطالب بخمسين بالمائة من ممتلكاتك".

اعترض ديك قائلاً: "ولكن هذا قد يبلغ ثلاثين مليون جنيه".

"لابد أن محاميها سيموندز قد أنجز عمله التحضيري".

"إذن فسوف أقول لها ببساطة إنها لا يمكنها أن تصحبني في الرحلة، وأن هذا أمر غير مناسب".

"مما يسمح للسيد سيموندز أن يغير خططه. فسوف يرسم لك عندئذ صورة رجل بلا قلب، رجل ما أن أصاب نجاحًا حتى استغنى عن زوجته وطرحها خارج حياته، وغالبا ما يسافر إلى الخارج، مصطحبًا سكرتيرته التي ـــــ".

"حسنًا، حسنًا، فهمت المقصود. وهكذا فالسماح لها بالمجيء معي إلى سانت بطرسبرج سيكون هو أهون الضررين".

قال سام ناصحًا: "هذا من ناحية..".

قاطعه ديك قبل أن يكمل جملته قائلاً: "يا للمحامين الملاعين!".

عقب سام على كلامه قائلا: "من الغريب أن لا تحتاج إلينا إلا حين تقع في ورطة، إذن دعنا نكن متأكدين هذه المرة أننا نتوقع تحركها التالي".

"وماذا عساه أن يكون؟".

"ما أن تصبح معك في سانت بطرسبرج فسوف تبدأ في التقرب إليك".

"لم يجمعنا لقاء زوجي على مدى سنوات".

"ولكنها ستقول: لم أكن أنا السبب في هذا يا سيدي القاضي".

قال ديك: "سحقًا، لا يمكنني الفوز في هذه المعركة".

"بل يمكنك الفوز مادمت لا تتبع نصيحة الليدي لونجفورد ـ فعندما سئلت إن كانت قد فكرت أبدًا في طلب الطلاق من اللورد لونجفورد أجابت قائلة: "الطلاق، أبدًا، ولكن القتل هو ما فكرت فيه كثيرًا"".

بعد أسبوعين وصل السيد ريتشارد وحرمه إلى فندق جراند بالاس في سانت بطرسبرج. وضع حمال أمتعتهما على نقال، ثم صحبهما إلى جناح مخصوص باسم تولستوي في الطابق التاسع.

"عليّ أن أدخل الحمام"، هكذا قال ديك مندفعا إلى داخل الغرفة سابقًا زوجته، بينما غاب زوجها داخل الحمام، نظرت مورين من النافذة، في إعجاب، إلى القباب الذهبية لمبنى دار العبادة بـ "سانت نيكولاس".

عندما أغلق الباب من خلفه، أزال ديك اللافتة المكتوب عليها *لا تشرب الماء* المعلقة فوق حوض الاغتسال ودسها في جيب سرواله الخلفي، ثم فتح غطاء زجاجتي مياة إفيان وسكب ما فيهما بالحوض. ثم أعاد ملء الزجاجتين بمياه الصنبور، قبل أن يحكم غلقهما من جديد ويعيدهما إلى موضعهما في

ركن الحوض. فتح الباب وخرج من الحمام.

شرع ديك فى إفراغ محتويات حقيبته، ولكنه توقف عن ذلك ما أن غابت مورين فى الحمام. أولاً، نقل لافتة : *لا تشرب المياه* من جيبه الخلفى إلى طية جانبية فى حقيبته، ثم شد سَحَّاب هذه الطية، قبل أن ينظر حوله فى جنبات الغرفة. كانت هناك زجاجة صغيرة من مياه إفيان على كل جانب من جانبى الفراش ، وزجاجتان كبيرتان على المنضدة القريبة من النافذة. أمسك بالزجاجة المجاورة لجانب زوجته من الفراش واتجه صوب ركن المطبخ الصغير بالطرف الأقصى من الغرفة. صب ديك محتوى الزجاجة فى الحوض، وملأها بمياه الصنبور، ثم أعادها لجانب مورين من الفراش. وبعد ذلك، تناول الزجاجتين الكبيرتين من المنضدة القريبة من النافذة وأعاد الكرة نفسها.

عندما خرجت زوجته من الحمام، كان ديك قد أنهى تقريباً إفراغ محتويات حقيبته، بينما تابعت مورين إفراغ محتويات



حقيبتها اتجه ديك صوب جانبه من الفراش وأدار رقمًا فى الهاتف استدعاه من ذاكرته، وبينما كان ينتظر رد الهاتف فتح زجاجة مياه إفيان الموضوعة على جانبه من الفراش، وشرب جرعة منها.

"مرحبًا يا أناتول، أنا ديك بارنزلى. فكرت أن أعلمك أننا وصلنا توًا إلى فندق جراند بالاس".

أجاب صوت مألوف: "مرحبًا بعودتك إلى سانت بطرسبرج، وهل زوجتك بصحبتك هذه المرة؟".

أجاب ديك: "بكل تأكيد، وهى تتلهف للقائك".

قال الوزير: "وأنا أيضًا، احرصا إذن على قضاء نهاية أسبوع طيبة لأن كل شىء جاهز للتنفيذ صباح الاثنين. من المقرر أن يسافر الرئيس بطائرته مساء الغد، وهكذا سوف يحضر مراسم توقيع العقد".

"العاشرة صباحًا فى القصر الشتوى، أليس كذلك؟".

كرر تشينكوف: "العاشرة صباحًا، سوف آتى لأصحبكما من الفندق فى الثامنة. المسافة كلها تستغرق نصف ساعة، ولكننا لا نستطيع تحمل نتيجة التأخر على الرئيس".

قال: "سأكون بانتظارك فى بهو الاستقبال بالفندق. أراك حينها". وضع سماعة الهاتف والتفت نحو زوجته قائلاً: "ما رأيك أن ننزل لتناول عشائنا يا عزيزتى؟ أمامنا يوم طويل غدا". ثم ضبط ساعة يده بفارق ثلاث ساعات ثم أضاف: "فمن الحكمة أن ننام مبكرًا".

وضعت مورين ثوبًا حريريًا طويلاً إلى جوارها على الفراش وابتسمت موافقة. حين استدارت لتضع حقيبتها الفارغة فى خزانة الملابس تناول ديك زجاجة المياه من المائدة المجاورة للفراش ووضعها فى جيب سترته، ثم صحب زوجته إلى غرفة تناول الطعام.

قادهما كبير النادلين إلى مائدة هادئة فى الركن، وما أن اتخذا مجلسهما حتى عرض عليهما قائمتى طعام. اختفى وجه مورين خلف الغلاف الجلدى الكبير للقائمة بينما كانت تفكر فى قائمة طعام الفندق؛ مما أتاح لـ ديك وقتًا كافيًا لإخراج زجاجة المياه من جيبه، ورفع غطاءها وملأ كأس زوجته منها.

ما أن اختار كل منهما وجبته، حتى راحت مورين تعرض جدول الرحلة المقترح لليومين التاليين. قالت مقترحة: "أعتقد أن علينا أن نبدأ بمتحف الهيرميتاج، أول شىء نفعله فى الصباح، ثم نأخذ راحة لتناول الغداء، ثم نقضى ما تبقى من الأصيل فى القصر الصيفى".

سألها ديك، وهو يرفع غطاء زجاجة المياه الخاصة به: "ماذا عن مجموعة الكهرمان؟ ظننت أنها شىء لا يجب أن يفوتنا".

"لقد رتبت لرؤية مجموعة الكهرمان بالفعل والمتحف الروسى فى يوم الأحد".

قال ديك: "يبدو أنك رتبت كل شىء خير ترتيب"، فى حين كان النادل يضع وعاء من حساء البورشت أمام زوجته.

أمضت مورين ما تبقى من وقت العشاء فى إخبار زوجها عن الكنوز التى سوف يريانها عند زيارة متحف الهيرميتاج. عندما وقع ديك على فاتورة العشاء كانت مورين قد أتت على شرب زجاجة المياه كاملة.

دس ديك الزجاجة الفارغة فى جيبه، وبمجرد عودتهما إلى غرفتهما ملأها من ماء الصنبور وتركها فى الحمام.

حين خلع ديك ملابسه وصعد للفراش كانت مورين لا تزال تراجع دليلها السياحى.

قال ديك: " أشعر أننى خائر القوى، لابد أن هذا بفعل فارق التوقيت"، أدار ظهره لها، على أمل ألا تدرك أن الوقت قد تجاوز الثامنة مساءً بقليل بتوقيت إنجلترا.

نهض ديك فى الصباح التالى شاعرًا بعطش شديد. نظر نحو زجاجة إفيان الفارغة على جانبه من الفراش وتذكر الأمر فى الوقت المناسب. نزل عن الفراش، وسار نحو الثلاجة واختار زجاجة من عصير البرتقال.

سأل مورين التى لم تستيقظ تمامًا: " هل ستذهبين إلى صالة الألعاب هذا الصباح؟".

" هل هناك وقت لذلك؟".

" بالطبع؛ فمتحف الهيرميتاج لا يفتح قبل العاشرة صباحًا، وأحد الأسباب التى تجعلنى أنزل بهذا الفندق هو وجود صالة ألعاب رياضية به".

" وماذا عنك، ألن تذهب؟".

" مازال علىَّ إجراء بعض الاتصالات الهاتفية لأتأكد أن كل شىء على ما يرام ليوم الاثنين".

نزلت مورين عن الفراش وغابت فى الحمام، مما أتاح لـ ديك وقتًا كافيًا لملء كأسها واستبدال زجاجة المياه المجاورة لجانبها من الفراش.

عندما خرجت مورين بعد بضع دقائق، نظرت لساعة يدها قبل أن تخرج أدواتها ولوازمها الرياضية. قالت بعد أن ربطت حذاءها الرياضى: "سوف أعود بعد أربعين دقيقة".

قال ديك: " لا تنسى أن تأخذى معك بعض المياه"، وناولها إحدى الزجاجتين الموضوعتين على المائدة القريبة من النافذة، أضاف قائلاً: "فقد لا يكون متوفرًا لديهم مياه فى صالة الألعاب".

قالت: " شكراً لك".

كان تعبير وجهها يجعله يتساءل إن كان فى تصرفه هذا إلحاح أو توسل زائدان عن الحد الطبيعى.

بينما كانت مورين فى صالة الألعاب الرياضية، أخذ ديك حماماً، وعندما عاد إلى غرفة النوم، سره أن يرى الشمس

ساطعة. ارتدى سترة وسروالاً، ولكنه فعل ذلك فقط بعد أن تأكد أن العاملين بالفندق لم يستبدلوا أية زجاجة مياه بينما كان يستحم.

طلب ديك إفطارًا لشخصين، وقد وصل الغرفة بعد عودة مورين من صالة الألعاب بدقائق، وهى ممسكة بزجاجة مياه إفيان نصف ممتلئة.

سأل ديك: " كيف كان تمرينك؟".

أجابت مورين: " ليس رائعًا، أشعر بشىء من الوهن".

قال ديك مقترحًا: "لعلها متاعب السفر بالطائرة لا أكثر"، واتخذ مكانه على الطرف الآخر من المنضدة. صب لزوجته كأس ماء، وصب لنفسه كأسًا آخر من عصير البرتقال. فتح ديك نسخة من الهيرالد تربيون كان قد بدأ يقرؤها بينما ينتظر زوجته وهى ترتدى ملابسها. لن ترشح هيلارى كلينتون نفسها للانتخابات الرئاسية؛ مما أكد لـ ديك أنها ستفعل ذلك، خصوصًا وأنها أعلنت ذلك وهى تقف بجوار زوجها.

خرجت مورين من الحمام ترتدى مئزر الفندق. جلست قبالة زوجها واحتست ماء.

قالت مورين: " من الأفضل أن نأخذ معنا زجاجة مياه إفيان فى زيارتنا إلى المتحف". رفع ديك عينيه عن الصحيفة، بينما أضافت زوجته: "الفتاة التى فى صالة الألعاب حذرتنى من شرب مياه الصنبور تحت أية ظروف".

تناولت مورين زجاجة من المنضدة القريبة من النافذة، بينما قال: "نعم، صحيح، كان ينبغى علىّ أن أنبهك إلى ذلك. الحرص واجب".

قبل العاشرة ببضع دقائق مر ديك ومورين من بوابات متحف الهيرميتاج، ووجدا أنهما يقفان فى نهاية طابور طويل.

كان طابـور الـزوار يتقـدم ببطء فـى بقعة مشمسـة ومرصوفة بالحجـارة. احتسـت مورين عـدة رشفات أخرى مـن المياه بينما تقلب صفحات دليلها السياحى. كانت الساعة قد بلغت العاشرة وأربعـين دقيقـة حـين بلغـا شبـاك التذاكـر، ومـا إن دخلا حتى واصلت مورين مراجعة دليلها السياحى.

قالـت: "علـى كل الأحـوال، يتوجـب علينـا أن نشاهد لوحة *الصبـى الرابض* لـ مايكل آنجلو، و*عذراء رفييال*، ومادونا بينوا لـ ليوناردو دافنشى".

ابتسم ديك موافقًا، رغم عدم اهتمامه بالتحف الفنية لكبار الفنانين.

بينمـا كانـا يصعـدان السـلالم الرخاميـة العريضـة، مـرا بتماثيـل عديدة رائعة وقـد وضعت داخل طاقات محفورة داخل الجـدران وكانـت أشبـه بالكهـوف، وعلـى الرغم من زيـارة ديك لـ سانت بطرسبرج مرات عديدة خلال الأعوام الثلاثة الماضية فإنه لم ير المبنى إلا من الخارج.

أخبرته مورين وهى تقرأ من دليلها السياحى: "إن المجموعة الخاصـة لمقتنيـات القيصـر بطرس تشغل ثلاثـة طوابق، وهى كنوز موزعة على أكثر من مائتى غرفة، إذن فلنبدأ بها".

عند الحادية عشرة لم يكونا قد شاهدا إلا مدرستين فنيتين فقـط، هما الألمانية والإيطالية بالطابق الأول، وعند ذلك كانت مورين قد أتت على زجاجة كبيرة من مياه إفيان!".

عرض ديـك أن يتطوع بالذهاب لشراء زجاجة أخرى. ترك زوجتـه مشدوهـة أمـام تمثال عـازف العود لـكارا فافيـو، بينما تسلـل هـو إلى أقـرب دورة ميـاه. أعـاد مـلء الزجاجـة الفارغة بميـاه الصنبور قبل أن يعود لزوجتـه. لو أن مورين قد انتبهت ولـو للحظـات إلى أنـواع المشروبـات العديـدة المعروضـة علـى طـاولات البيع فى كل طابـق لاكتشفت أن متحف الهيرميتاج لا يقـدم ميـاه إفيان أصـلاً من بينها؛ لأن لديه عقدًا حصريًا مع

شركة مياه فولفيك.

عند الساعة الثانية عشرة والنصف كانا قد رأيا كل شيء عدا ست عشرة غرفة مخصصة لفنانى عصر النهضة، واتفقا على أن الوقت قد حان لتناول الغداء. غادرا المبنى وسارا من جديد تحت شمس منتصف النهار. سارا معًا قليلاً بمحاذاة ضفة نهر مويكا، دون أن يتوقفا إلا لالتقاط صورة فوتوغرافية لعريس وعروس يأخذان أوضاعًا للتصوير على الجسر الأزرق قبالة قصر المارينيسكى.

قالت مورين وهى تقلب صفحات دليلها السياحى: "إنه تقليد وطنى".

بعد أن سارا مسافة مبنى آخر، توقفا عند مطعم صغير للمعجنات. أغراهما بالدخول إليه موائده المربعة الأنيقة ومفارشه الكاروهات الأحمر فى الأبيض ونادلوه حسنو الهندام.

قالت مورين: "لابد أن أدخل الحمام، أشعر بشىء من الغثيان. لابد أنه بسبب حرارة الجو"، ثم أضافت: "اطلب لى سلطة فقط وكأس ماء".

ابتسم ديك لها، وأخرج زجاجة مياه إفيان من حقيبتها وملأ الكأس الموضوع إلى جانبها من المائدة. عندما ظهر النادل طلب ديك طبق سلطة من أجل زوجته، ولنفسه طلب الرافيولى وشراب الكوكا الخالى من السكر. كان يتلهف شوقًا إلى أن يشرب أى شىء.

نشطت مورين قليلاً بعد أن تناولت طبق السلطة، بل إنها بدأت تخبر ديك بما يتوجب عليهما البحث عنه عند زيارتهما للقصر الصيفى.

خلال رحلة التاكسى الطويلة عبر شمال المدينة، واصلت قراءة مقتطفات أخرى من دليلها السياحى. " أنشأ بطرس العظيم القصر الصيفى بعد زيارته لقصر الفرساى، وعندما



مساحة مائة فدان، وفيها أكثر من مائتى نافورة، كما أن هناك إحدى عشرة نافورة أخرى بداخل القصر". وعلى الرغم من أن الشمس لم تعد ملتهبة الآن، فإن السماء مازالت صافية، وواصلت مورين شرب جرعات كبيرة منتظمة من المياه، ولكنها كلما عرضت الزجاجة على ديك، كان يجيبها على الدوام: "كلا، أشكرك".

عندما كانا يصعدان أخيرًا سلالم القصر، وجدا بانتظارهما طابورًا آخر طويلاً، واعترفت مورين أنها تشعر بشىء من الإرهاق.

قال ديك: "سيكون مؤسفًا أن نقطع كل هذه المسافة إلى هنا دون أن نلقى نظرة على ما بالداخل".

وافقت زوجته على مضض.

عندما بلغا أول الطابور، اشترى ديك تذكرتى دخول، وبمبلغ إضافى صغير، اختار مرشدًا يتحدث بالإنجليزية ليصحبهما فى جولتهما بالمكان.

عاد إلى روسيا وظف أفضل مهندسى المعمار والحدائق وأفضل البستانيين وأمهر الصناع والحرفيين فى البلاد من أجل إعادة بناء التحفة الفرنسية. كان ينوى أن يكون القصر صرحًا لمحبة الفرنسيين، الذين يكن لهم إعجابًا لا مزيد عليه من أجل ريادتهم فى الذوق والجمال فى قارة أوربا كلها".

قاطع سائق التاكسى تدفق حديث مورين ليدلى بمعلومة صغيرة من جانبه. قال: "إننا نمر حالاً بالقصر الشتوى الذى أعيد بناؤه مؤخرًا؛ حيثُ ينزل به الرئيس بوتين كلما زار سانت بطرسبرج". توقف السائق للحظات ثم واصل: "ولأن العلم القومى مرفوع عليه فلابد أن الرئيس بالمدينة".

قال ديك: "لقد أتى من موسكو خصوصًا لرؤيتى".

ضحك سائق التاكسى بشدة.

•

بعد ذلك بنصف ساعة مر التاكسى خلال بوابات القصر الصيفى، وأنزل السائق زبونيه فى قلب حشد من السيارات المتوقفة؛ حيث اكتظ المكان بالسياح والزائرين، والبائعين الواقفين خلف أكشاكهم المؤقتة المرتجلة وهم يتلاعبون بالتذكارات الرخيصة.

اقترحت مورين: "لندخل لنرى التحف الحقيقية".

قال سائق التاكسى: "سوف أنتظركما هنا. دون أن يكلفكما هذا مالاً إضافيًا. كم ستمكثان بالداخل؟".

قال ديك: "على ما أظن، ساعتين أو نحوهما، لا أكثر من ذلك".

كرر السائق: "سوف أنتظركما هنا".

سار كل منهما فى أرجاء البساتين العظيمة، وأدرك ديك سبب وصفها فى الدليل السياحى بأنها "لا يجب تفويت زيارتها" مع علامة نجوم خمس بجوارها. هكذا راحت مورين تلخص وتشرح له بينما تشرب الماء. "تغطى الأراضى المحيطة بالقصر

قالت مورين وهما يدخلان غرفة الامبراطورة كاثرين: "أشعر أنني لست على ما يرام"، ثم تشبثت بفراش الامبراطورة ذى الأعمدة الأربعة.

اقترح المرشد السياحى مساعدًا: "عليك أن تشربى الكثير من الماء فى مثل هذا اليوم الحار". عندما وصلا إلى غرفة مكتب القيصر نيكولاس السادس، حذرت مورين زوجها قائلة إنها على وشك أن تصاب بإغماء. اعتذر ديك للمرشد السياحى ووضع ذراعه حول كتف زوجته وساعدها على الخروج من القصر فى رحلة مترنحة للعودة إلى موقف السيارات. وجدا سائق التاكسى يقف بجوار سيارته بانتظارهما.

قال ديك: "لابد أن نعود إلى فندق جراند بالاس فى الحال". بينما ارتمت زوجته على المقعد الخلفى للسيارة كأنها مغشى عليها.

خلال رحلة العودة الطويلة إلى سانت بطرسبرج، كانت مورين فى حالة يرثى لها؛ حيث أخذت تتقيأ بالمقعد الخلفى للتاكسى، ولكن السائق لم يعلق على حالتها، كان حريصًا فقط على سرعته الثابتة بينما يواصل رحلته على الطريق السريع. بعد ذلك بأربعين دقيقة، توقف أمام فندق جراند بالاس. ناوله ديك حفنة أوراق مالية واعتذر له.

قال السائق : "أتمنى أن تتعافى السيدة قريبًا".

أجاب ديك: "نعم، نسأل الله أن تستريح".

ساعد ديك زوجته على الخروج من السيارة، وقادها على الدرج المؤدى لمدخل الفندق وبسرعة أخذها نحو المصعد، آملاً ألا يلفت انتباه أحد إليه. فى غضون دقائق كانا قد عادا سالمين إلى جناحهما الخاص. غابت مورين على الفور فى الحمام، وعلى الرغم من الباب المغلق استطاع ديك سماع صوت تقيُّئها. بحث بعينيه فى جنبات الغرفة. بينما هما بالخارج، تم استبدال جميع زجاجات المياه. لم يتجشم عناء تغيير إلا الزجاجة

المجاورة لجانبها من الفراش، والتى أعاد ملأها بمياه الصنبور من ركن المطبخ الصغير.

ظهرت مورين خارجة من الحمام أخيرًا، وانهارت على الفراش، قالت: "أشعر بحالة فظيعة".

"ربما عليك أن تتناولى قرصى أسبرين وتحاولى النوم لبعض الوقت".

أومأت مورين فى وهن قائلة: "هل يمكنك إحضار الأقراص لى؟ إنها فى الحقيبة الطبية الخاصة بى".

"بالطبع يا عزيزتى". ما إن وجد الأقراص حتى ملأ الكأس بمياه الصنبور، ثم عاد إلى جوار زوجته. خلعت عنها ثوب الخروج، ولكن دون أن تخلع صندلها. ساعدها ديك على النهوض وأدرك للمرة الأولى أنها كانت منقوعة بالعرق. ابتلعت قرصى الأسبرين بكأس الماء الذى قدمه لها ديك. أراحها برقة على الوسادة قبل أن ينزل الستائر، ثم اتجه نحو باب الغرفة وعلق بمقبض الباب إشارة *الرجاء عدم الإزعاج*. فقد كان آخر شىء يرغب فيه هو رؤية إحدى خادمات الغرف اللحوحات التى تأتى للتطفل وترى زوجته فى حالتها تلك. بعد أن تأكد ديك من أنها كانت نائمة، نزل لتناول وجبة العشاء.

تساءل كبير النادلين عندما اتخذ ديك مجلسه: "ألن تنضم السيدة إلى مائدتك هذه الليلة؟".

أجابه ديك: "كلا، بكل أسف، لديها نوبة صداع نصفى خفيف. أظن أنها تعرضت للشمس أكثر من المعتاد، لكننى متأكد من أنها ستكون على ما يرام فى الصباح".

"نسأل الله لها السلامة يا سيدى. ماذا يمكننى أن أقدم لك الليلة؟".

أخذ ديك وقته فى تفحص القائمة، قبل أن يقول فى النهاية: "أعتقد أننى سأبدأ بكبد الأوز الفرنسى، ثم أُتْبِعُه بقطعة لحم سميكة - توقف ثم واصل: "متوسطة النضج".

"اختيار ممتاز يا سيدى".

صب ديك لنفسه كأس ماء من الزجاجة الموضوعة على المائدة وتجرعه بسرعة، قبل أن يملأ كأسه مرة ثانية. لم يتعجل فى تناول وجبته، وحين عاد إلى جناحه الخاص بعد العاشرة مباشرة، أسعده أن يجد زوجته نائمة نومًا عميقًا. تناول كأسها وأخذه إلى الحمام ليعيد ملأه بماء الصنبور، ثم وضعه من جديد على المائدة التى تقع إلى جانبها من الفراش. خلع ديك ملابسه فى تمهل قبل أن يندس أخيرًا تحت الأغطية ليرقد إلى جوار زوجته. أطفأ المصباح القريب من الفراش ونام سالمًا هانئًا.

عندما استيقظ ديك فى الصباح التالى، وجد أنه هو أيضًا غارق فى العرق. الملاءات كذلك كانت مبتلة بشدة، وعندما التفت لينظر نحو زوجته رأى أن لون الدماء قد غاض من وجنتيها.

خرج ديك من الفراش، وتسلل إلى الحمام وأخذ حمامًا طويلاً. وبعد أن جفف نفسه مباشرة وضع على جسده مئزرًا قطنيًا من مآزر الفندق وعاد إلى غرفة النوم. تسلل إلى جانب زوجته من الفراش وأعاد ملء كأسها الفارغ بماء الصنبور. كان جليا أنها استيقظت فى الليل دون أن توقظه.

سحب الستائر ثم تأكد من أن إشارة *الرجاء عدم الإزعاج* مازالت معلقة بالباب. عاد إلى جانب زوجته من الفراش وسحب كرسيًا وجلس عليه وبدأ يقرأ الهيرالد تريبيون. عندما استيقظت زوجته كان قد وصل إلى الصفحات الرياضية. كانت كلماتها متلعثمة. تجحت فى أن تقول : "حالتى فظيعة". وتوقفت طويلاً قبل أن تضيف : "ألا تعتقد أن علينا استدعاء طبيب؟".

قال ديك : "ولكنه جاء بالفعل وفحصك يا عزيزتى. لقد استدعيته ليلة أمس. ألا تتذكرين؟ وقال لى إنك أصبت بحمى، وما عليك إلا أن تتعرقى لتتخلصى منها".

سألته مورين فى تشكك: "ألم يترك أية أقراص؟".

"كلا يا عزيزتى. لقد قال فقط إنك لا يجب أن تتناولى أى طعام، ولكن لابد أن تحاولى أن تشربى أكبر قدر ممكن من الماء". ناولها الكأس وقربها من شفتيها وحاولت هى أن تبتلع المزيد. حتى إنها استطاعت أن تقول له: " شكرًا لك"، ثم ارتمت للوراء على الوسادة.

قال ديك : " لا تقلقى يا عزيزتى. سوف تكونين على ما يرام، أعدك بألا أبتعد عنك ولو للحظة واحدة". انحنى وطبع قبلة على جبينها، وراحت فى النوم من جديد.

ولم يبتعد ديك عن مورين ذلك اليوم إلا ليؤكد للخادمة أن زوجته لا ترغب فى تغيير البياضات هذا اليوم؛ ولكى يعيد ملء كأس الماء بجوار فراشها ، وفى وقت متأخر من الأصيل تلقى اتصالاً من الوزير.

كان أول ما قاله تشينكوف : "لقد وصل الرئيس بالأمس، إنه يقيم فى القصر الشتوى ، وقد تركته هناك منذ قليل، ولقد أمرنى أن أبلغك بلهفته على لقائك أنت وزوجتك".

قال ديك : "هذا لطف كبير منه ، ولكن عندى مشكلة".

"مشكلة؟" قالها الرجل الذى لا يميل للمشكلات ، خاصة عندما يكون الرئيس فى المدينة.

"يبدو أن مورين قد أصابتها حمى. كنا بالخارج فى الشمس طوال نهار الأمس ، ولست متأكدًا مما إذا كانت سوف تتعافى تمامًا فى الوقت المحدد لكى تحضر مراسم توقيع العقد ، وهكذا فقد أحضر بمفردى".

قال تشينكوف : "يؤسفنى سماع هذا، وكيف حالك أنت؟".

قال ديك : "أنا بخير حال".

قال تشينكوف بنبرة ارتياح: "ذلك أمر طيب. إذن سوف أمر بك فى الثامنة صباحًا كما اتفقنا. لا أريد أن أجعل الرئيس ينتظر".

أكد ديك قائلاً : "ولا أنا يا أناتول، ستجدنى واقفًا ببهو الفندق قبل الثامنة بأمد طويل".

طُرق الباب. وضع ديك الهاتف جانبًا بسرعة واندفع يفتح الباب قبل أن يتسنى لأى شخص أن يدخل ويتطفل. كانت بالردهة إحدى خادمات الغرف ومعها نقال كدست عليه الملاءات والبياضات والمناشف وقطع الصابون وزجاجات الشامبو وأكياس من زجاجات مياه إفيان.

سألته بابتسامة: "ألا تود أن تغير بياضات الفراش يا سيدى؟".

قال ديك : "كلا ، أشكرك. زوجتى ليست على ما يرام". وأشار نحو لافتة *الرجاء عدم الإزعاج*.

فاقترحت قائلة: "ربما المزيد من المياه؟"، وهى ترفع زجاجة كبيرة من مياه إفيان.

"كلا". كرر بصرامة وأغلق الباب.

الاتصال الهاتفى الوحيد الآخر جاء من مدير الفندق ذلك المساء. سأل فى أدب عما إذا كانت السيدة تحتاج إلى طبيب.

قال ديك: "كلا ، أشكرك. لقد تعرضت لضربة شمس خفيفة لكنها سوف تتعافى منها، وأنا متأكد من أنها ستكون فى خير حال فى صباح الغد".

قال المدير : "اتصل بى فقط إذا ما غيرت رأيها. يمكن للطبيب أن يحضر إليك فى غضون دقائق".

قال ديك : "هذا اهتمام رائع من جانبك ، ولكن لا داعى لهذا"، ثم وضع سماعة الهاتف. استدار نحو زوجته. كان جلدها شاحب اللون ومبقعًا. مال نحوها حتى كاد يمس شفتيها ـ كانت مازالت تتنفس. سار نحو الثلاجة ، فتحها وأخرج كل زجاجات

قال تشينكوف بنبرة ارتياح: "ذلك أمر طيب. إذن سوف أمر بك في الثامنة صباحًا كما اتفقنا. لا أريد أن أجعل الرئيس ينتظر".

أكد ديك قائلاً: "ولا أنا يا أناتول، ستجدني واقفًا ببهو الفندق قبل الثامنة بأمد طويل".

طُرق الباب. وضع ديك الهاتف جانبًا بسرعة واندفع يفتح الباب قبل أن يتسنى لأى شخص أن يدخل ويتطفل. كانت بالردهة إحدى خادمات الغرف ومعها نقال كدست عليه الملاءات والبياضات والمناشف وقطع الصابون وزجاجات الشامبو وأكياس من زجاجات مياه إفيان.

سألته بابتسامة: "ألا تود أن تغير بياضات الفراش يا سيدى؟".

قال ديك: "كلا، أشكرك. زوجتى ليست على ما يرام". وأشار نحو لافتة *الرجاء عدم الإزعاج*.

فاقترحت قائلة: "ربما المزيد من المياه؟"، وهى ترفع زجاجة كبيرة من مياه إفيان.

"كلا". كرر بصرامة وأغلق الباب.

الاتصال الهاتفى الوحيد الآخر جاء من مدير الفندق ذلك المساء. سأل فى أدب عما إذا كانت السيدة تحتاج إلى طبيب.

قال ديك: "كلا، أشكرك. لقد تعرضت لضربة شمس خفيفة لكنها سوف تتعافى منها، وأنا متأكد من أنها ستكون فى خير حال فى صباح الغد".

قال المدير: "اتصل بى فقط إذا ما غيرت رأيها. يمكن للطبيب أن يحضر إليك فى غضون دقائق".

قال ديك: "هذا اهتمام رائع من جانبك، ولكن لا داعى لهذا"، ثم وضع سماعة الهاتف. استدار نحو زوجته. كان جلدها شاحب اللون ومبقعًا. مال نحوها حتى كاد يمس شفتيها ـ كانت مازالت تتنفس. سار نحو الثلاجة، فتحها وأخرج كل زجاجات

الهاتف ومن جديد طلب رقمًا مفردًا. بعد دقائق كان يقف بجانب تشينكوف رجل طويل أنيق الملبس فى حلة سوداء.

سأله: "كيف لى أن أساعدك سيادة الوزير؟".

"لابد أن أصعد إلى غرفة السيد بارنزلى".

"بكل تأكيد سيدى الوزير، اتبعنى من فضلك".

عندما وصل الرجال الثلاثة إلى الطابق التاسع ، اتجها على وجه السرعة نحو جناح تولستوى؛ حيث وجدوا لافتة *الرجاء عدم الإزعاج* معلقة على مقبض الباب. طرق الوزير على الباب طرقًا مدويًا ، دون أن يتلقى أى رد.

أمر قائلاً: "افتح الباب"، وأطاع موظف الاستقبال الأمر بلا تردد.

دخل الوزير الغرفة بخطوات سريعة، يتبعه المدير وموظف الاستقبال. وتوقفت خطوات شينكوف توقفًا مفاجئًا عندما وقع بصره على الجسدين الهامدين الراقدين فى الفراش. لم يحتج موظف الاستقبال إلى أن يتلقى أمرًا لكى يتصل مستدعيًا الطبيب.

من المحزن أن الطبيب كان قد شهد ثلاث حالات مماثلة خلال الشهر الماضى ، ولكن مع اختلاف واحد أن الضحايا جميعًا كانوا من أبناء البلد. تفحص مريضيه لبعض الوقت قبل أن يعلن تشخيصه.

أكد الطبيب قائلاً هامسًا تقريبًا : "إنه داء سيبريا". صمت قليلاً ، متطلعًا نحو الوزير ، ثم أضاف : " توفيت السيدة خلال الليل دون أدنى شك ، فى حين أسلم السيد الروح فى الساعة الماضية".

لم يبد الوزير أى تعليق!

واصل الطبيب قائلاً : "تشخيصى المبدئى أنها على الأرجح قد التقطت المرض بسبب شرب قدر كبير من مياه الصنبور".

سكت لبرهة ناظرًا نحو جثة ديك الهامدة ، ثم أضاف: "بينما زوجها لابد أنه التقط الفيروس من زوجته، خلال الليل فى الغالب، وهو أمر شائع بين الأزواج والزوجات، مثل كثيرين من مواطنينا الريفيين، من الواضح أنه لم يكن مدركًا أن...". تردد قليلاً قبل أن ينطق بالكلمة أمام سيادة الوزير "داء سيبريا واحد من الأمراض المعدية، ليس هذا وحسب بل إنه من أسرع الأمراض انتقالاً بالعدوى".

اعترض المدير قائلاً: "ولكننى اتصلت به ليلة أمس وسألته عما إذا كان يود استدعاء طبيب ، وقال إنه لا داعى لذلك؛ لأن زوجته تتعافى، وكان متأكدًا من أنها سوف تكون على ما يرام عند الصباح".

قال الطبيب: "يا للأسف"، ثم أضاف: "لو أنه فقط وافق على ذلك، ما كان بوسعنا عندئذ إنقاذ زوجته ، ولكن كان بوسعنا إنقاذه هو على الأقل!".

لا يمكن أن يكون أكتوبر
قد عاد بهذه السرعة!



وقف باتريك أوفلين أمام متجر مصوغات إتش صامويل، ممسكًا بقرميدة بيده اليمنى. كان يحدق بشدة فى الواجهة. ابتسم، ورفع ذراعه وقذف بالقرميدة على اللوح الزجاجى. تشققت الواجهة كأنها شبكة عنكبوت، ولكنها ظلت صلبة فى مكانها، وانطلق الإنذار فى الحال، وسرى صوته فى هذا المساء الهادئ البارد لشهر أكتوبر بحيث صار يمكن سماعه من مسافة نصف ميل. كان الأهم بالنسبة لباتريك، أو بات، أن يكون جهاز الإنذار متصلاً مباشرة بنقطة الشرطة المحلية.

لم يتحرك بات، بل ظل واقفًا يحدق فى ما اقترفته يداه. لم ينتظر أكثر من تسعين ثانية قبل أن يسمع صوت سارينة يقترب من بعيد. انحنى على الأرض والتقط القرميدة من الرصيف، بينما الصوت المزعج للسارينة يعلو ويعلو. عندما توقفت عربة الشرطة بصوت حاد بحذاء الرصيف، رفع بات القرميدة فوق رأسه وانحنى للوراء مثل رامى الجلة فى الألعاب الأوليمبية الذى لن يرضى بأقل من الميدالية الذهبية. نزل الشرطيان بسرعة من السيارة. تجاهل أكبرهما سنًا بات الذى ظل موازنًا نفسه ورافعًا ذراعه فوق رأسه ممسكًا بالقرميدة فى يده، وسار الشرطى الأكبر سنًا ليتفقد الواجهة وما لحق بها من ضرر. على الرغم من أن اللوح الزجاجى قد تشقق، فقد كان مازال صلبًا فى موضعه. وعلى أى حال، كانت هناك ستارة من قضبان حديدية متقاطعة مسدلة أسفل النافذة، وهو الشىء الذى لم يكن خافيًا على بات. ولكن عندما يعود الرقيب إلى نقطة الشرطة مازال عليه أن يتصل بمدير المتجر، وينتزعه من دفء فراشه ويطلب منه أن يذهب إلى المتجر ليفصل جهاز الإنذار.

استدار الرقيب فوجد بات مازال واقفًا، رافعًا يده بالقرميدة فوق رأسه.



قال الرقيب، وهو يفتح الباب الخلفى لسيارة الشرطة : "حسنًا يا بات، اترك ما بيدك وادخل إلى السيارة".

ابتسم بات، وناول القرميدة للضابط حديث العهد وقال : "سوف تكون بحاجة إليها باعتبارها دليل إدانة".

لم يقل الضابط الشاب شيئًا.

"أشكرك أيها الرقيب"، هكذا قال بات وهو يصعد إلى السيارة، وابتسم للضابط الشاب، الذى اتخذ موقعه وراء عجلة القيادة، ثم سأل بات الرقيب قائلاً : "هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول؟".

قاطعه الرقيب معترضًا : "مائة مرة"، واتخذ مجلسه بجانب بات وأغلق الباب الخلفى.

تساءل بات: "ألن تستخدم أغلال اليدين؟". "

قال الرقيب: "لا أريد أن أقيد معك بأغلال اليدين، بل

أريد أن أتخلص منك. لم لا تعود إلى أيرلندا وتريحنا؟".

شرح بات قائلاً: "إن سجونهم في حالة متدنية للغاية بالنسبة لى، وعلى أية حال فإنهم لا يعاملوننى بالدرجة نفسها من الاحترام الذى ألقاه منكم أيها الرقيب"، وتحركت السيارة مبتعدة عن خط الرصيف وتراجعت صوب نقطة الشرطة.

مال بات للأمام نحو الضابط الشاب وخاطبه متسائلاً: "أيمكنك أن تخبرنى باسمك؟".

"الضابط كوبر".

"هل تمت بأى صلة إلى المفتش الأول كوبر؟".

"إنه أبى".

قال بات: "إنه سيد نبيل، لقد تناولنا معًا الكثير من أقداح الشاى والبسكويت. أرجو أن يكون فى أحسن صحة".

قال الضابط كوبر: "لقد تقاعد".

قال بات: "يؤسفنى سماع هذا. هلا أبلغته أن بات أوفلاين سأل عنه وعن أحواله؟ وأرجوك أن تبلغه، هو والسيدة العزيزة والدتك، أطيب تمنياتى".

قال الرقيب: "كف عن هرائك يا بات؛ فالصبى لم يتخرج من مدرسة الشرطة إلا منذ شهر واحد". وهنا توقفت السيارة أمام نقطة الشرطة. نزل الرقيب من المقعد الخلفى وأمسك بالباب مفتوحًا من أجل بات.

"شكرًا لك أيها الرقيب" هكذا قال بات كأنه يخاطب بواب أحد الفنادق السبع نجوم. ابتسم الضابط بينما صحب الرقيب بات صاعدين الدرج إلى داخل نقطة الشرطة.

وحين رأى بات الشخص الذى يجلس وراء المكتب قال: "آه، مساء الخير يا سيد باكر".

قال الرقيب المناوب: "أوه، يا إلهى، لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة".

قال بات: "أخشى أنه عاد سيدى الرقيب، وكنت أتساءل عما إذا كانت زنزانتى المعتادة شاغرة. لن أقضى بها إلا ليلة واحدة، أنت تفهم الوضع".

قال الرقيب المناوب: "إنها غير شاغرة بكل أسف، هناك مجرم حقيقى يشغلها. سوف تكون راضيًا بزنزانة رقم اثنين".

تذمر بات قائلاً: "ولكننى فيما مضى كنت دائمًا ما أنزل بالزنزانة رقم واحد".

تطلع الرقيب المناوب إليه ورفع حاجبه.

أقر بات: "كلا، أنا الملوم، كان علىّ أن أطلب من سكرتيرتى الاتصال بكم والحجز مقدمًا. هل تريد أن تأخذ بيانات بطاقتى الائتمانية؟".

طمأنه الرقيب المناوب قائلاً: "لا، لدىّ كل بياناتك مسجلة فى ملف".

"ما رأيك فى بصمات الأصابع إذن؟".

"لا أظن أننا بحاجة إلى مجموعة جديدة، إلا إن كنت نجحت فى بتر أطراف أناملك القديمة، ولكنك على الأقل بحاجة للتوقيع على مذكرة الاتهام".

تناول بات قلم الحبر الثمين المقدم له ووقع فى طرف الصفحة عن طيب خاطر.

"خذه إلى الأسفل، إلى الزنزانة رقم اثنين أيها الضابط".

قال بات وهو يساق بعيدًا: "شكرًا لك يا سيدى الرقيب". ولكنه توقف، واستدار وقال: "إننى أتساءل يا سيدى الرقيب عما إذا كان بوسعك أن تجرى لى اتصالاً لإيقاظى فى حدود السابعة صباحًا، وتطلب لى قدح شاى، يفضل أن يكون من نوع الإيرل جراى، ونسخة من صحيفة التايمز الأيرلندية؟".

"سحقًا لك يا بات" هكذا قال الرقيب، بينما حاول الضابط أن يكتم ضحكته.

قال بات: "لقد تذكرت شيئاً، هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول، ورئيس العمال ـــــ".

"خذه بعيدًا عن عينىّ أيها الضابط، إن كنت لا تريد أن تقضى بقية الشهر تعمل فى إشارات المرور".

قبض الضابط على مرفق بات وأسرع به نازلاً إلى الدور السفلى.

قال بات: "لا حاجة بك لأن تصحبنى، إننى أعرف الطريق جيدًا". فى هذه المرة ترك الضابط الزمام لضحكاته وهو يضع المفتاح فى قفل الزنزانة رقم اثنين. فتح الشرطى الشاب الزنزانة ودفع الباب الثقيل، وسمح لـ بات بالدخول.

قال بات: "شكرًا لك أيها الضابط كوبر، كم أتطلع إلى رؤيتك فى الصباح".

قال الضابط كوبر: "ستكون مناوبة عملى قد انتهت".

فقال بات بدون أى تفسير: "إذن سأراك فى نفس هذا الموعد من العام المقبل، ولا تنس أن توصل أطيب تمنياتى لوالدك"، ثم أغلق الباب الحديدى الذى يبلغ سمكه أربع بوصات بصوت غليظ.

تفقد بات الزنزانة لبضع دقائق: حوض اغتسال من الصلب، مرحاض وفراش، وملاءة وبطانية ووسادة. اطمأن بات إلى أن شيئًا لم يتغير منذ العام الماضى. ارتمى على المرتبة المصنوعة من شعر الخيل، ووضع رأسه على الوسادة الصلبة كالصخر ونام طوال الليل للمرة الأولى منذ أسابيع.

استيقظ بات من نوم عميق فى السابعة من صباح اليوم التالى، عندما انفتح باب الزنزانة على مصراعيه وأطلت عينان سوداوان من خلفه.

قال صوت ودود: "صباح الخير يا بات".

قال بات، قبل أن يفتح عينيه: "صباح الخير يا ويسلى، كيف حالك؟".

أجاب ويسلى: "أنا بخير، ولكننى آسف لرؤيتك تعود من جديد. أعتقد أن أكتوبر قد حل إذن".

قال بات وهو ينزل عن الفراش: "لقد حل أكتوبر بكل تأكيد، ومن المهم أن أبدو فى أفضل حالة عند العرض أمام هيئة المحكمة هذا الصباح".

"هل هناك شىء تريده على وجه الخصوص؟".

"سيكون أفضل شىء تجلبه لى هو قدح شاى، ولكن ما أطلبه حقًا هو شفرة حلاقة، وقطعة صابون، وفرشاة أسنان وبعض معجون الأسنان. ولا داعى لأن أذكرك، يا ويسلى، بأن المتهم يحق له هذا المطلب البسيط قبل المثول أمام المحكمة".

قال ويسلى: "سأعمل على أن تحصل عليها، وهل تود أن تقرأ نسختى من جريدة الصن؟".

"ذلك لطف من جانبك يا ويلسى، وإن كان المشرف الأول قد أنهى نسخة الأمس من صحيفة التايمز فإننى أفضل قراءتها".

كتم الرجل الذى أتى من جزر الهند الغربية ضحكته وتبع ذلك إغلاق باب الزنزانة.

لم يطل انتظار بات قبل أن يسمع صوت مفتاح فى قفل الباب. انفتح الباب الثقيل ليكشف عن وجه ويسلى بيكيت الضاحك، وفى إحدى يديه صينية وضعها على حافة الفراش.

قال بات: "أشكرك يا ويسلى"، وحدق فى وعاء رقائق الحبوب، والعلبة الورقية الصغيرة للبن منزوع الدسم، وشريحتى الخبز المحمص وبيضة مسلوقة. أضاف بات قائلاً: "كم أتمنى أن تكون مولى قد تذكرت أننى أحب البيض نصف مسلوق، أى يترك لدقيقتين ونصف فقط".

قال ويسلي: "لقد غادرتنا مولي العام الماضي، أعتقد أنك ستجد البيضة مسلوقة من ليلة أمس بيد الرقيب المناوب".

قال بات: "لا يمكن للمرء أن يحصل على مبتغاه هذه الأيام، أنا شخصيًا لا ألوم إلا الأيرلنديين. ما عادوا ملتزمين بالخدمة المنزلية السليمة"، ثم دق أعلى البيضة بملعقة بلاستيكية. "بالمناسبة يا ويسلي، هل سبق أن حكيت لك حكايتي عندما حاولت الحصول على عمل يدوي في موقع بناء في ليفربول، ورئيس العمال، وهو رجل إنجليزي لعين ـــ". تطلع بات لأعلى وتنهد حين سمع الباب يصفق والمفتاح يدور في القفل. فغمغم لنفسه قائلاً: "أعتقد أنني حكيت لك تلك الحكاية من قبل".

بعد أن أنهى بات إفطاره، نظف أسنانه بالفرشاة ومعجون الأسنان الذي كان في أنبوب أصغر من الذي قدموه له في تجربته الوحيدة للسفر على خطوط طيران إير لينجوس إلى مدينة دبلن. وبعد ذلك فتح الماء الساخن في الحوض المعدني الصغير. مر بعض الوقت قبل أن يتحول خيط الماء المتباطئ من الماء البارد إلى الماء الفاتر. فرك قطعة الصابون الهزيلة بين أصابعه حتى صنع ما فيه الكفاية من الرغوة، نشرها بعد ذلك على وجهه غير الحليق، ثم التقط ماكينة الحلاقة البلاستيكية، وبدأ عملية بطيئة لإزالة شعر وجهه النابت من أربعة أيام. مسح وجهه أخيرًا بمنشفة يد خضراء خشنة، لا يزيد حجمها على منديل اليد.

جلس بات على طرف الفراش، وأثناء انتظاره، قرأ صحيفة الصن الخاصة بويسلي، قرأها من الغلاف للغلاف في أربع دقائق، ولم يسترع انتباهه إلا موضوع بقلم المحرر السياسي تريفور كافاناي، فكّر بات أنه لا شك أيرلندي. قوطعت أفكار بات عندما فتح الباب المعدني الثقيل مرة أخرى.

قال الرقيب وبستر: "فلننته منك يا بات؛ إنك الأول هذا الصباح".

صحب بات الضابط صاعدين الدرج، وعندما رأى الرقيب المناوب على المكتب، سأله : "هل يمكننى أن أستعيد أشيائى الثمينة يا سيد بيكر؟ سوف تجدها فى الخزانة الخاصة بالنزلاء".

تطلع الرقيب وقال: "أشياؤك ؟ مثل ماذا؟".

"قطعة فراء مرصعة باللؤلؤ لتدفئة اليدين، ساعة يد ماركة كارتييه وعلبة فضية محفور عليها رمز أسرتى".

قال الرقيب المناوب: "لقد تخلصت منها كلها ليلة أمس".

عقب بات: "لعل هذا أفضل كثيرًا، فلن أحتاج إليها فى المكان الذى سأذهب إليه"، ثم تبع الرقيب وبستر إلى الخارج نحو الباب الأمامى ثم إلى الرصيف.

قال الرقيب، بعد أن توجه للجلوس أمام عجلة قيادة السيارة الباندا: "اجلس فى الأمام".

أصر بات قائلاً: "ولكن من المفترض أن يصحبنى إلى المحكمة ضابطان. إنها قوانين وزارة الداخلية".

أجابه الرقيب: "قد تكون هذه هى حقا قوانين وزارة الداخلية، ولكننا لدينا نقص فى الموظفين هذا الصباح؛ اثنان فى إجازة مرضية، وواحد يتلقى دورة تدريبية".

"ولكن ماذا لو حاولت أن أهرب".

"تسدى لنا معروفًا كبيرًا"، هكذا عقب الرقيب، وهو يندفع بالسيارة بعيدًا عن أماكن الوقوف"، ثم أضاف: "لأن هذا سيوفر علينا الكثير والكثير من وجع الرأس".

"وماذا تفعل إن قررت أن ألكمك؟".

قال الرقيب المغتاظ: "سأرد لك اللكمة".

قال بات مقترحًا: "ولكن هذا ليس تصرفًا وديًا للغاية".

قال السيرجانت: "آسف يا بات، كل ما هنالك أننى وعدت زوجتى أننى سوف أنهى عملى اليوم فى العاشرة صباحًا، لكى يتسنى لنا التسوق معا". توقف قليلاً ثم أكمل : "وهكذا فلن

تكون راضية بالمرة عنى، أو عنك إذا تطور الأمر".

قال بات: "إننى أعتذر يا أيها الرقيب وبستر، وفى شهر أكتوبر المقبل سأحاول أن أعرف المناوبة التى تخدم فيها بحيث أتجنبها، وربما تنقل اعتذارى للسيدة زوجتك".

كان يمكن للرقيب أن يضحك لو أن ما قيل كان على لسان أى شخص آخر، ولكنه كان يعرف أن بات يعنى ما يقوله حقًا.

"ألا تعرف من هو القاضى الذى سأمثل أمامه هذا الصباح؟"، هكذا سأل بات بينما تتوقف السيارة عند إشارة مرور.

"اليوم الخميس" هكذا تحدث الرقيب بينما تغير ضوء الإشارة إلى الأخضر ودفع بمعدل السرعة من جديد. "فلابد أن يكون القاضى هو بركنز".

قال بات: "المستشار أرنولد بركنز، قاضى المحكمة العليا، يا إلهى، إنه سريع الغضب ضيق الصدر. وهكذا، فإن لم يعطنى حكمًا طويلاً بما يكفى، فما على إلا إثارة غضبه". وانحرفت السيارة نحو موقف سيارات خاص وراء المحكمة العليا لماربليون رود. ما إن خطا بات خارج السيارة حتى توجه نحوه أحد ضباط المحكمة.

قال بات: "صباح الخير سيد آدامز".

قال السيد آدامز: "عندما ألقيت نظرة على قائمة المتهمين هذا الصباح ورأيت اسمك يا بات قلت لنفسى لابد أن الموعد السنوى لظهوره قد حان. اتبعنى يا بات، ودعنا ننته من هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة".

رافق بات السيد آدامز عبر الباب الخلفى للمحكمة، ثم مرا بردهة طويلة إلى زنزانة الاحتجاز. قال بات: "شكرًا لك يا سيد آدامز"، وهو يتخذ مجلسه على مصطبة خشبية رفيعة مثبتة بالأسمنت إلى أحد الجدران على أحد جوانب القاعة الكبيرة

المستطيلة. أضاف بات: "أطمع فى لطفك، ولكن هلا تركتنى بمفردى لبضع دقائق؛ بحيث أتمكن من استجماع نفسى والتهيؤ قبل رفع الستار".

ابتسم السيد آدامز واستدار مغادرًا.

"بالمناسبة يا سيد آدامز"؛ هكذا قال بات بينما أمسك السيد آدامز مقبض الباب، ثم أضاف: "هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل يدوى فى موقع بناء فى ليفربول، لكن رئيس العمال وهو رجل إنجليزى لعين تجرأ على أن يسألنى ـــــ".

"آسف يا بات ولكن بعضنا لديه عمل يقوم به، وعلى أى حال فقد حكيت لى هذه الحكاية فى شهر أكتوبر الماضى". توقف ثم قال: "وعلى ما أذكر فقد سمعتها منك فى أكتوبر السابق عليه أيضًا".

جلس بات مبتسمًا على المصطبة، وبما أنه لم يجد شيئًا فى متناول يده لقراءته، راح يتأمل الكتابات المحفورة على الجدار. *القاضى بركنز وغد أصيل*. شعر بميل للموافقة على تلك الجملة. فريق *مان يو بطل الأبطال*. ولكن شخصًا آخر شطب على مان يو واستبدل به فريق تشيلسى. وتساءل بات عما إذا كان عليه أن يشطب على تشيلسى ويكتب كورك، الفريق الذى لم يهزمه فريق آخر أبدًا؛ ولأنه لم تكن هناك ساعة حائط، فإن بات لم يدرك كم من الوقت مر قبل أن يعود السيد آدامز أخيرًا ليصطحبه إلى قاعة المحكمة. كان آدامز الآن يرتدى عباءة سوداء طويلة، ويبدو مثل المعلم الذى درس بات على يديه قديمًا.

قال السيد آدامز بجدية: "اتبعنى".

تحلى بات بالصمت على غير العادة بينما واصلا نزول الطريق المعبد بالحجارة الصفراء، وما هى إلا بضع درجات وتجد نفسك تدخل من الباب الخلفى لقاعة المحكمة. انتهى

بات إلى الوقوف فى القفص، وإلى جانبه عريف.



تطلع بات نحو المنصة ونظر نحو القضاة الثلاثة الذين يشكلون مجلس القضاء لهذا الصباح. كان هناك شىء غير مضبوط. كان يتوقع رؤية السيد بركنز، الذى كان أصلع فى مثل هذا الوقت من العام الماضى، تقريبًا يشبه شخصية بيكويك فى رواية تشارلز ديكنز. والآن، وفجأة، بدا أن رأسه مغطى بشعر جميل. وعن يمينه كان المستشار ستيدمان، وهو ليبرالى أبدى تسامحًا كبيرًا لصالح بات. وعن يسار القاضى الرئيسى جلست سيدة فى منتصف العمر لم يرها بات من قبل؛ قد أوحت شفتاها الرفيعتان وعيناها اللتان تشبهان الآنسة بيجى إلى بات بأن موقفه ضعيف، وبوضع المستشار الليبرالى فى الحسبان يكون ناتج التصويت اثنين إلى واحد، وخاصة إن أحسن اللعب بأوراقه. بدا كأن تلك السيدة سوف يسرها أن تحكم بالإعدام على سارقى البضائع الصغيرة من المتاجر.

تقدم السيد ويستر إلى صندوق الشهود وحلف اليمين.

"ما الذى يمكنك أن تخبرنا به عن تلك القضية يا سيرجانت؟"؛ هكذا سأله السيد بركنز، ما إن أتم القسم.

تساءل الرقيب وبستر وهو يدير وجهه نحو رئيس المحكمة: "هل لى أن أستعين بملاحظاتى يا سيادة القاضى؟" أومأ السيد بركنز برأسه، ففتح الرقيب غلاف دفتره.

"لقد ألقيت القبض على المتهم فى الساعة الثانية صباحًا، بعد أن قذف حجر قرميد على واجهة متجر إتش صامويل للمجوهرات، بشارع ماسون ستريت".

" هل رأيته يقذف بالحجر أيها الرقيب؟".

أقر وبستر: "كلا، لم أره، ولكنه كان يقف على الرصيف ممسكًا بالحجر بيده عندما ألقيت القبض عليه".

سأل القاضى: "وهل نجح فى الدخول إلى المتجر؟".

قال الرقيب: "كلا يا سيدى، ولكنه كان على وشك أن يقذف حجرًا آخر عندما قبضت عليه".

"الحجر ذاته؟".

"أعتقد هذا".

"وهل تسبب فى أية أضرار؟".

"لقد شقق الزجاج، ولكن الشبكة المعدنية منعته من تناول أى شىء".

سأل القاضى بركنز: "وما قيمة البضائع المعروضة فى الواجهة؟".

أجاب الرقيب: "لم تكن هناك أية بضائع فى الواجهة؛ ذلك لأن المدير دائمًا ما يغلق عليها فى الخزانة، قبل أن يعود إلى منزله مساء".

ظهرت الحيرة على السيد بركنز، وألقى بنظرة على مذكرة الاتهام، وقال: "أرى أنك حملت السيد أوفلاين مسئولية محاولته القيام باقتحام ودخول المتجر".

قال الرقيب وبستر: "ذلك صحيح يا سيدى"، وأعاد دفتره إلى الجيب الخلفى لسرواله.

حول السيد بركنز انتباهه إلى بات وقال: "ألاحظ أنك قد وقعت على اعتراف بمسؤليتك فى مذكرة الاتهام يا أوفلاين".

"صحيح سيدى اللورد".

"إذن فعلى أن أحكم عليك بثلاثة أشهر، إلا إن كان بوسعك تقديم تفسير ما". توقف قليلاً ناظرًا نحو بات من فوق نظارته ذات العدسات النصف دائرية. سأله: "هل تحب أن تقول شيئًا؟".

"ثلاثة أشهر ليست مدة كافية سيدى اللورد".

قال السيد بركنز فى صرامة: "أنا لست لوردًا".

قال بات: "حقًا، لست كذلك؟ لقد اعتقدت أنه بما أنك تضع شعرًا مستعارًا، وهو ما لم يكن موجودًا فى مثل هذا الوقت من العام الماضى، فلابد أنك قد حصلت على لقب اللورد".

قال السيد بركنز: "احفظ لسانك، وإلا رفعت عقوبتك إلى ستة أشهر".

قال بات: "لا أجد بأسًا فى ذلك بالمرة سيدى اللورد".

قال السيد بركنز وهو لا يكاد يتحكم بأعصابه: "مادمت لا تجد بأسًا فى ذلك، فإننى إذن أحكم عليك بستة أشهر. خذوا السجين".

قال بات: "شكرًا لك سيدى اللورد" وأضاف لاهثًا: "أراك فى مثل هذا الوقت من العام المقبل".

أخرج العريف بات من القفص ونزل به الدرج مسرعًا حيث أعاده إلى زنزانة الاحتجاز.

بقى بات فى زنزانة الاحتجاز بينما كان ينتظر الانتهاء من ملء جميع الوثائق الضرورية. ومرت ساعات عديدة قبل أن يفتح باب الزنزانة ويقتاد إلى خارج المحكمة إلى وسيلة الانتقال المنتظرة؛ والتى لم تكن فى هذه المرة سيارة باندا يقودها الرقيب وبستر، ولكن كانت شاحنة بلونين أزرق وأبيض وبداخلها عشرات من أكشاك الاحتجاز الصغيرة، تعرف

بصناديق التعرق.

"إلى أين تأخذونني هذه المرة؟"؛ هكذا سأل بات ضابطًا غير ميال للحديث لم يسبق له أن رآه. وكان كل ما حصل عليه من جواب قوله: "سوف تكتشف بنفسك عندما تصل إلى هناك يا صاح".

"هل سبق أن حكيت لك حكايتي عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول؟".

أجابه الضابط: " كلا، ولا أريد أن أسمعها".

"ـــــ ولكن رئيس العمال، وهو رجل إنجليزى لعين، تجرأ على أن يسألني عما إذا كنت أعرف الفارق بين ـــــ". دفع الضابط بات ليصعد سلم الشاحنة ودفع به إلى داخل أحد الأكشاك التى تشبه مرحاض الطائرات. ارتمى على مقعد بلاستيكى بينما صفق الباب وراءه.

راح بات يحدق من النافذة المربعة صغيرة الحجم، وعندما اتجهت الشاحنة جنوبًا نحو شارع بيكر، أدرك أنه لابد سيكون فى سجن بيلمارش. تنهد بات. على الأقل، لديهم هناك مكتبة لا بأس بها، هكذا فكر، بل ربما كان قادرًا على استعادة عمله القديم بالمطبخ.



عندما توقفت الشاحنة من نوع بلاك ماريا خارج بوابات السجن تأكد ظنه. فوق بوابة السجن علقت لوحة خضراء كبيرة كتب عليها *بيلمارش*، وقد كتب أمامها أحد الظرفاء كلمة جحيم، فصارت جحيم بيلمارش. مرت الشاحنة خلال مجموعة من الأبواب المسيجة، ثم بوابة

أخرى، قبل أن تتوقف أخيرًا فى باحة أرضها قاحلة.

تكدس اثنا عشر سجينًا خارج الشاحنة وصعدوا على الدرجات إلى منطقة الاستقبال؛ حيث انتظروا فى صف. حين بلغ بات صدارة الصف ابتسم ورأى من يجلس وراء المكتب، يسجل بيانات الجميع.

سأل بات: "كيف الأحوال فى هذا المساء البديع السعيد يا سيد جينكينز؟".

تطلع الضابط الأول من وراء مكتبه وقال: "لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة".

"لقد عاد دون أدنى شك يا سيد جينكينز". هكذا أكد له بات، وأكمل: "واسمح لى بتقديم خالص التعازى لخسارتكم الأخيرة".

كرر السيد جينكينز: "خسارتنا الأخيرة؟ عم تتحدث يا بات؟".

"أقصد أولئك الخمسة عشر فتى من ويلز الذين ظهروا فى دبلن مطلع هذا العام، مدعين أنهم فريق لعبة الرجبى".

"لا تستفزنى يا بات".

"وهل يمكننى القيام بهذا يا سيد جينكينز، فى حين أطمع أن تسكننى فى زنزانتى القديمة؟".

مر الضابط الأول بإصبعه على قائمة الزنازين المتاحة، ثم قال بتنهيدة مبالغ فيها: "أظن أن هذا غير ممكن يا بات؛ إنها مشغولة بنزيلين بالفعل، ولكننى لدىّ الشخص المناسب تمامًا لتقضى معه ليلتك الأولى". ثم التفت نحو الضابط الليلى قائلاً: "لم لا تصحب أوفلاين إلى الزنزانة ١١٩".

بدا التردد على الضابط الليلى، ولكنه أذعن بعد نظرة أخرى من السيد جينكينز ولم يقل سوى: "اتبعنى يا بات".

تساءل بات، بينما قاده الضابط الليلى خلال ممر طويل رمادى الأحجار: "إذن من الذى اختاره السيد جينكينز ليكون رفيق غرفتى الليلة؟ لابد أن يكون جاك السفاح أو مايكل جاكسون".

أجابه الضابط الليلى بينما فتح الباب الآخر ذا القضبان: "سوف تكتشف سريعًا جدًا".

سأله بات، وهما يدخلان إلى أرضية العنبر "ب": "هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول، وتجرأ رئيس العمال، وهو رجل إنجليزى لعين، على أن يسألنى عما إذا كنت أعرف الفارق بين عارضة السقف والعمود؟".

انتظر بات أن يجيب الضابط، فيما توقفا أمام زنزانة رقم ١١٩. وضع فى القفل مفتاحًا كبيرًا.

قال الضابط الليلى وهو يدفع الباب الثقيل: "كلا يا بات، لم تحكها لى، ما الفارق، إذن، بين العارضة والعمود؟" هكذا سأله.

كان بات على وشك أن يجيب، ولكنه حين نظر إلى داخل الزنزانة سكت فى الحال.

قال بات: "عمت مساء سيدى اللورد"، للمرة الثانية فى ذلك اليوم لم ينتظر الضابط الليلى ليسمع الجواب. صفق الباب بشدة، وأدار المفتاح فى القفل.

قضى بات ما تبقى من المساء يحكى لى، بأدق التفاصيل، كل ما جرى منذ الساعة الثانية من الصباح السابق. وعندما بلغ نهاية حكايته أخيرًا، سألته ببساطة : "ولكن لماذا شهر أكتوبر؟".

فقال بات: "عندما يبدأ التوقيت الشتوى، فإننى أفضل أن أكون بالداخل؛ حيث أضمن ثلاث وجبات فى اليوم وزنزانة مزودة بتدفئة مركزية، فالنوم فى العراء خلال الصيف لا غضاضة فيه بالمرة، ولكنه ليس من الحكمة فى شىء خلال الشتاء الإنجليزى".

سألته: "ولكن ماذا كنت ستفعل إن حكم عليك السيد بركنز بعام؟".

قال بات: "سأحرص على أن يكون سلوكى مثاليًا من اليوم الأول، وهكذا يطلقون سراحى، بعد ستة أشهر، لحسن السير والسلوك. إنهم يواجهون مشكلة حقيقية فى الازدحام بالنزلاء حاليًا".

"ولكن ماذا لو أن السيد بركنز قد تشبث بحكمه الأصلى لثلاثة أشهر فقط، لكانوا أطلقوا سراحك فى يناير، منتصف الشتاء".

قال بات: "أمر بسيط، قبيل موعد إطلاق سراحى بوقت قليل، كانوا سيعثرون معى على زجاجة شراب مسكر فى زنزانتى، وهى جنحة تضيف ثلاثة أشهر أخرى إلى مدة عقوبتى، وهذا ما سيجعلنى مرتاحًا حتى حلول أبريل".

ضحكت، ثم سألته: "أهكذا تنوى قضاء بقية حياتك؟".

أقر بات: "لا أعتقد أن الأمر بهذه الصعوبة"، ثم أضاف وهو يصعد إلى الفراش العلوى ويطفئ المصباح: "ستة أشهر فترة كافية للاستمرار بها".

قلت وأنا أريح رأسى على الوسادة: "تصبح على خير يا بات".

و بينما كنت أستسلم للنوم سألنى بات: "هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول؟".

أجبته: "كلا، لم تحكها لى".

"حسنًا، لقد تجرأ رئيس العمال وهو رجل إنجليزى لعين، لا أقصد أى إساءة، على أن يسألنى عما إذا كنت أعرف الفارق بين عارضة السقف والعمود؟".

سألته: "وهل تعرف الفارق؟".

"كان مـن الأسهـل لو سألنـى عن الفارق بـين جويس الذى كتب يوليسيس، وجوتة الذى كتب فاوست".

توفـى بـات أوفلاين إثـر انخفاض شديد فى درجـة حرارة جسمـه يـوم ٢٣ نوفمـبر ٢٠٠٥، بينمـا كان نائمًـا تحـت أقواس فيكتوريا إيمبانكمنت بوسط لندن.

اكتشـف جثته ضابط شاب، على بعد ياردات قليلة من فندق السافوى، ذى النجوم السبعة.

الملك الأحمر



بينما كان ماكس يلف سيجارة أخرى وهو راقد على الجزء السفلى من السرير ذى المستويين قال لى: "لقد اتهمونى خطأ وحكموا علىّ بالسجن عقابًا على الجريمة التى لم أرتكبها".

بينما كنت فى السجن، سمعت ذلك الادعاء من أفواه زملائى المساجين فى مناسبات عديدة، ولكن فى حالة ماكس جلوفر اتضح أن ادعاءه كان صادقًا.

كان ماكس ينفذ عقوبة السجن لمدة ثلاثة أعوام لحصوله على أموال عن طريق الاحتيال، وهى ليست لعبته. كان تخصص ماكس هو سرقة أغراض صغيرة من البيوت الكبرى. وقد قال لى ذات مرة، بتباه مهنى ملحوظ، إنه قد تمر سنوات قبل أن يكتشف مالك المنزلٍ اختفاء تحفة توارثتها الأجيال فى أسرته، وخصوصًا، كما أضاف ماكس، إذا ما أخذ المرء شيئًا ما صغر حجمه وغلا ثمنه، من وسط غرفة مكتظة بالأغراض والتحف.

واصل ماكس قائلاً: "ولكن أتعرف؟ إننى لا أتذمر لذلك الخطأ؛ لأنهم إذا حملونى عقوبة الجرم الذى ارتكبته بالفعل، لانتهى بى الأمر إلى قضاء فترة عقوبة أطول كثيرًا..".. توقف قبل أن يتابع قائلاً: "ولن يكون هناك أى شىء يمكن أن أتطلع إليه بعد إطلاق سراحى".

أدرك ماكس أنه نجح فى إثارة فضولى، وبما أننى لا أستطيع الذهاب إلى أى مكان آخر قبل أن يفتح باب الزنزانة من أجل فسحة الاختلاط ـ تلك الخمس وأربعون دقيقة المجيدة التى يسمح فيها للسجناء بالخروج من العنابر والزنازين للتمشى

فى الفناء ــ لذلك التقطت قلمى، وقلت له: "حسنًا يا ماكس، لقد ابتلعت الطعم. احك لى إذن كيف عوقبت على الجريمة التى لم ترتكبها".

حك ماكس عود ثقاب، وأشعل سيجارته الملفوفة يدويًا وأخذ منها نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ. فى السجن، كل فعل يقوم به المرء يتسم بالمبالغة والتأنى؛ حيث إنه لا داعى للعجلة فى أى شىء. رقدت على المستوى العلوى من الفراش وانتظرت متحليًا بالصبر الجميل.

بدأ ماكس بسؤال: "هل تُذكِّرك مجموعة كننجتون بأى شىء؟".

أجبته: "كلا" مفترضًا أنه لابد أنه يشير إلى مجموعة من النبلاء ذوى المعاطف الحمراء على ظهور الجياد، فى يد كل منهم كأس نبيذ وفى يده الأخرى سوط، يحيط بهم قطيع من كلاب الصيد، يقضون صباح الأحد فى مطاردة حيوان ذى فراء له ذيل كثيف. خاب ظنى. فكما مضى ماكس يشرح لى اتضح أن مجموعة كننجتون هى مجموعة كاملة من قطع الشطرنج.

أكد لى قائلاً: "ولكنها ليست مجموعة قطع عادية". زاد شغفى بالموضوع. لقد نحتت القطع، على الأرجح، بيد الفنان الصينى لو بينج (١٤٦٩ ـ ١٥٤٠)، وهو أحد المعلمين الكبار فى حرفته خلال فترة حكم أسرة مينج الصينية (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤). نحتت جميع القطع البالغ عددها اثنتان وثلاثون بمنتهى الدقة ثم طليت برقة باللونين الأحمر والأبيض. تم تسجيل تفاصيل المجموعة تسجيلاً دقيقًا فى وثائق تاريخية عديدة. وبالرغم من ذلك لم يحدد أى مصدر كم عدد المجموعات التى أنتجها لوبينج خلال حياته على وجه التحديد.

واصل ماكس حديثه بينما تصاعد الدخان ملتويًا فى دوامات من المستوى السفلى للفراش: "لم يظهر إلى الوجود إلا ثلاث مجموعات كاملة، الأولى منها تعرض فى غرفة العرش

بقصر الشعب فى بكين؛ والثانية تنتمى للمجموعة الخاصة بـ ميلون فى واشنطن، والثالثة بالمتحف البريطانى. كثيرون من جامعى التحف راحوا يفتشون فى كل ركن من بلاد الصين العظيمة على أمل العثور على المجموعة الرابعة الخرافية. وبالرغم من أن مثل تلك المحاولات انتهت على الدوام بالخيبة، فإن العديد من القطع المنفردة بدأت فى الظهور فى سوق التحف بين الحين والآخر".

أطفأ ماكس برجله أصغر عقب سيجارة رأيته فى حياتى، ثم أكمل: "فى ذلك الوقت كنت أتتبع بعض المعلومات حول الأغراض الصغيرة الموجودة فى قاعة كننجتون فى يوركشاير".

سألته: "كيف نجحت فى جمع معلوماتك؟".

قال ماكس: "طلبت دار نشر *كانترى لايف* من اللورد كننجتون أن يتفضل بكتابة كتاب تذكارى كبير ومزين بالصور الملونة بمناسبة الأعياد، وفى هذا الكتاب وصف بالتفصيل كنوز قاعة كننجتون". راح يلف سيجارة أخرى، ثم أضاف: "كرم أخلاق شديد من جانبه".

"من بين أسلاف هذا السيد النبيل كان جيمس كننجتون الأول (١٥٥٢ ــ ١٦١٨)، وهو مغامر حقيقى، وقبطان نهاب، وخادم مخلص للملكة إليزابيث الأولى. أنقذ جيمس المجموعة الأولى فى عام ١٥٨٨، قبل غرق السفينة *إيزابيلا* بلحظات معدودة. وبعد الانتصار رقم ١٧٤ فى مباراة الإنجليز الحربية مع الإسبان، عاد القبطان كننجتون إلى بلايماوث؛ حيث جاد بالنفائس المنهوبة من السفينة الغارقة على مولاته الملكة. وقد كانت جلالتها شديدة الشغف بأى شىء صلب، خصوصًا إن كان من الممكن التزين به ذهب، فضة، لؤلؤ أو جواهر نادرة فكافأت القبطان كننجتون بوسام الفروسية. لم تكن بإليزابيث حاجة بمجموعة قطع الشطرنج، لذا فقد وقعت من نصيب سير جيمس نفسه. على خلاف كل من السير فرانسيس أو السير

والـتر، واصـل السير جيمس رحلات السلب فـى البحار العليا. كان فـى أوج نجاحـه آنـذاك، بعدهـا بعشر سنـوات رقته مولاته إلى مجلس اللوردات، واكتسب لقب لورد كننجتون الأول مقابل الخدمات التى قدمها للتاج الملكى". توقف ماكس قليلاً قبل أن يضيـف: "إن الفارق الوحيد بين السيـد النبيل وبين القرصان الحقيقى هو مع من يتقاسم كل منهما غنائمه".

اللـورد كننجتـون الثانـى، مثـل مولاتـه، لم يبـد اهتمامًـا بالشطـرنج، وهكـذا بقيت المجموعـة ليتراكم عليهـا الغبار فى إحـدى الغرف الاثنتين والتسعـين بقصـر كننجتون، وبما أنه لا توجد الكثير من الأحداث التاريخية التى تستحق الذكر خلال الحيـاة الراكـدة لكل مـن اللـوردات الثالـث والرابـع والخامس والسادس مـن آل كننجتـون، سلفًـا بعد خلف، فـلا يسعنا إلا أن نفترض أن مجموعة قطع الشطرنج المتميزة بقيت فى مكانها دون مساس؛ فإن جيوش الشطرنج لا تثور غاضبة. خدم اللورد كننجتـون السابـع فى سـلاح الفرسان الثانى عشـر خلال زمن معركـة واترلـو . كان الكولونيل يلعـب دور شطـرنج بين الحين والآخـر، وهكذا فقد أزيل الغبار عـن المجموعة وعادت إلى قاعة العرض الطولية.

لقـى لـورد كننجتـون الثامن مصرعـه أثناء أدائـه للخدمة فـى سلاح الضبـاط، وقتل التاسع فى حرب البوير، والعاشر فى حـرب الإيبرس. أما الحادى عشر فقـد كان فتى عربيدًا شغوفًا بالنسـاء، عاش حيـاة أكـثر سلامًا وسكينـة، ولكنه فـى النهاية اضطـر إلى فتـح قصـر العائلـة أمـام الجمهـور؛ وذلـك لـدواع مالية؛ فقد كان قصر كننجتون بحاجة إلى سقف جديد. توافد العامـة كل نهايـة أسبـوع بأعداد لا تحصـى، وبدفع مبلغ صغير كان بوسعهـم التجول فى جنبات القصر؛ وعندما كانوا يمرون باللونج جاليرى كانوا يشاهدون التحفة الصينية على حاملها، محاطة بحبل أحمر.

مع تراكم الديون - التى لم تنجح فى سدادها رسوم الدخول التى يدفعها الزوار من العامة - اضطر لورد كننجتون الحادى عشر إلى أن يبيع، بالمزاد، الكثير من مقتنيات عائلته الموروثة، بما فيها مجموعة كننجتون لقطع الشطرنج.

وضعت قاعة كريستى للمزادات مبلغ مائة ألف ثمناً مبدئيًا سعراً لتلك التحفة الأصلية، لكنها انتهت لتباع بسعر ٢٣٠ ألفا عند الدقة الثالثة لمطرقة مشرف المزاد.

"عند زيارتك التالية لواشنطون"، هكذا أضاف ماكس بين سحابتى دخان، "تستطيع أن تشاهد مجموعة قطع الشطرنج الأصلية لعائلة كننجتون، بما أنها الآن جزء من مجموعة ميلون الخاصة. كان من الجائز أن تنتهى حكايتى هاهنا"، واصل ماكس: "لو أن لورد كننجتون الحادى عشر لم يتزوج من فنانة رقص إيقاعى أمريكية أنجبت له صبياً، ولقد ظهر أن الطفل يملك موهبة خاصة لم توجد فى أسلافه من آل كننجتون لأجيال عديدة؛ كان لديه عقل.

"دون مباركة أو موافقة من والده، صار السيد المحترم هنرى كننجتون مديرًا لشركة مضاربة مالية، وبالتالى أصبح الوريث الطبيعى للورد كننجتون الأول. لقد كان رجلاً يمخر فى عباب سوق المال بالسهولة نفسها التى كان سلفه القرصان يشقون بها أمواج البحار العليا، وعندما بلغ السابعة والعشرين من عمره كان هنرى قد جمع مليونه الأول أرباحًا صافية، وهو ما أسعد فؤاد أمه، والتى أشادت بسرعة إيقاعه فى مراكمة الأرباح وأنه لابد ورث عنها هى سرعة الإيقاع تلك، نظراً لتاريخها فى الرقص الإيقاعى. فى الوقت الذى انتقل فيه اللقب إلى هنرى من أبيه المتوفى كان قد تقلد منصب رئيس بنك كننجتون. كان أول شىء يشرع فى القيام به مستفيداً من الثروة المكتسبة حديثاً هو أن يعيد لقصر آل كننجتون مجده السابق، وبالطبع لم يعد يسمح لأفراد من عامة الشعب أن يدفعوا خمسة جنيهات

مقابل ركن سياراتهم فى فنائه الأمامى.

وعلى منوال أبيه، تزوج لورد كننجتون الثانى عشر من امرأة مرموقة. كانت إلزى ترامبشو ابنة مالك لمصنع أقطان فى يوركشاير، وخريجة لمعهد شلتنهام لتعليم السيدات النبيلات، وشأن أى فتاة معتزة بنفسها من يوركشاير، كانت إلزى حريصة جدًا فى إنفاق الأموال.

وفى حين كان زوجها غائباً؛ ليجتهد فى جنى الأموال، كانت إلزى هى سيدة قصر كننجتون بلا منازع. وبما أن إلزى قد قضت سنوات نشأتها وتكونها ترتدى ما تستغنى عنه أختها الكبرى من ثياب، وتحمل كتاب أختها المتهرئ إلى المدرسة، وفيما بعد كانت تستعير طلاء شفائها، بصرف النظر عن اللون، فقد كانت مؤهلة خير تأهيل لتكون الحارس الأمين للمبنى الهائل الذى توارثته الأجيال. فقد تعهدت ــ بمهارة محكمة واجتهاد شديد وتدبير منزلى من الدرجة الأولى ــ القصر المرمم حديثاً بالعناية والرعاية، ومع أنها لم تكن تهتم ألبتة بلعبة الشطرنج، فكم أغاظتها رؤية كابينة العرض الخالية فى قاعة العرض الطولية، وأخيراً حلت هذه المشكلة بينما كانت تتجول فى أحد أسواق الأسعار المخفضة التى تقام بعرض المقتنيات الخاصة على هياكل السيارات". هكذا قال ماكس ثم واصل قائلاً: "حلت المشكلة وفى الوقت نفسه غيرت من طالع أشخاص عديدين، كنت أنا واحدًا منهم". دهس ماكس عقب سيجارته الثانية واسترحت لأنه لم يلف سيجارة أخرى فى الحال، فقد بدأت زنزانتنا الصغيرة تشبه محطة قطارات بادنجتون فى أزمنة المحركات البخارية.

***

كانت إلزى تتمشى فى أرجاء سوق البضائع المستعملة فى بودزى صبيحة يوم أحد ممطر، وكان حرصها على حضور مثل هذه

المناسبات فى الأيام الممطرة؛ لأن ذلك يعنى زبائن أقل عدداً وبالتالى يصير من الأسهل عليها الفوز بصفقة رابحة. كانت تنبش وتفتش فى بعض الملابس عندما وقعت عيناها على لوح رقعة الشطرنج. أعادت المربعات البيضاء والحمراء إلى ذهنها ذكريات صورة فوتوغرافية قد رأتها فى كتالوج قديم لقاعة مزادات كريستى، يعود تاريخ اللوح إلى وقت عرض المجموعة الأصلية للبيع فى المزاد العلنى. راحت إلزى تساوم لبعض الوقت حول السعر مع الرجل الواقف عند مؤخرة سيارة جاجوار قديمة، وتوصلت لدفع مبلغ ثلاثة وعشرين جنيهاً مقابل رقعة الشطرنج المصنوعة من العاج.

عندما عادت إلزى إلى القصر وضعت الرقعة التى امتلكتها للتوّ فى كابينة العرض الخاوية، وأسعدها أن تكتشف أنها ملائمة للقياس تماماً. لم تعر هذه المصادفة مزيداً من تفكيرها، حتى نصحها عمها بيرتى بأن تثمن الرقعة لأغراض تأمينية، كما فسر لها.

لم تقتنع إلزى برأيه، لكنها أيضاً لم تفكر بالمرة فى الاستهانة بعمها، وهكذا أخذت الرقعة معها إلى لندن فى إحدى رحلاتها الشهرية إليها، من أجل زيارة خالتها جيرترود. ومرت الليدى كننجتون بمتجر سوزبى كانت إلزى دائمًا ما تصير الليدى كننجتون ما إن تصل إلى لندن وهى فى طريقها إلى منزل خالتها فى فورتنام آند مازون. سألتها مساعدة شابة فى المتجر إن كان يمكن للسيدة الجليلة أن تتكرم وتعود خلال فترة بعد الظهر، فعندئذ سيكون الخبير المثمن موجوداً لتقدير قيمة الرقعة.

بعد أن تناولت غداء متأنيًا بصحبة خالتها جيرترود، عادت إلزى إلى متجر سوزبى. رحب بها هناك السيد سينسل، مسئول قسم التحف الصينية، والذى أدلى برأيه بأن القطعة تنتمى بلا أدنى شك لحقبة أسرة مينج الحاكمة.

سألت إلزى: "وهل بمقدورك أن تحدد لها ثمناً ــــــ"توقفت ثم أكملت: "لأغراض تأمينية؟".

قال السيد سينسل: "من ألفين إلى ألفين وخمسمائة جنيه يا سيدتى.. فرُقع الشطرنج التى تنتمى لعائلة مينج يتوفر منها الكثير". واصل شرحه قائلاً: "أما الشىء النادر حقاً فهى القطع المنفردة ذاتها، أما العثور على مجموعة كاملة منها.."، ورفع راحتى يديه وكأنه يبتهل إلى الله أن يرزقه مجموعة كاملة من تلك القطع النادرة ثم سألها: "لعلك تفكرين فى بيع لوح الشطرنج؟".

أجابت إلزى فى صرامة: "كلا، بل على العكس. إننى أفكر فى الإضافة إليها".

ابتسم الخبير المثمن؛ فعلى كل حال لم يكن متجر سوثبى أكثر من متجر رهونات فخم، تعامل معه كل جيل من أجيال الطبقة الأرستقراطية إما بالبيع أو بالشراء.

حين عادت إلزى إلى قصر كننجتون أعادت رقعة الشطرنج إلى موضعها المشرف فى قاعة الرسم.

كانت الخالة جيرترود هى من حرك العجلة الأولى فى الحكاية. فى أحد الأعياد أهدت لابنة أختها بيدقاً أبيض. وضعت إلزى القطعة المنفردة على لوح الشطرنج. بدا البيدق وحيداً للغاية.

قالت الليدى العجوز فى تحدّ: "والآن يا عزيزتى، عليك أن تكتشفى ما إن كان بمقدورك استكمال المجموعة خلال سنين حياتك". قالت الخالة ذلك غافلة عن سلسلة الأحداث التى كانت تجرها بقولها هذا، وما بدأ بوصفه نزوة عابرة أثناء حضور أحد معارض بيع الأشياء القديمة فوق هياكل السيارات الخاصة فى بودزى، تحول إلى هوس مسيطر، وقد شرعت إلزى تمشط العالم بحثاً عن القطع المفقودة من مجموعة الشطرنج، وكان اللورد كننجتون الأول سيصبح فخوراً بها.

عندما أنجبت الليدى كننجتون ابنها الأول، إدوارد، كانت هدية الزوج الممتن لزوجته وزيراً أبيض. وهى قطعة من العاج المنحوت بفخامة لوزير مزخرف بعباءة ملكية طويلة ذات نقوش معقدة التفاصيل. انتصب الوزير على رقعة الشطرنج ناظرًا بازدراء نحو البيدق الوحيد.

القطعة المقتنية التالية كانت بيدقاً أبيض، حصل عليه العم بيرتى من أحد تجار التحف فى نيويورك؛ مما سمح للوزير الأبيض أن يبسط سلطته على مجندين فى جيشه.

وحين أنجبت الابن الثانى، جيمس، كانت هدية مولده فيلاً أحمر، وهكذا صار قبالة الوزير وبيدقيه هدف حربى، وإن كان على الطرف الآخر البعيد من الرقعة. وسرعان ما بدأت العائلة بأكملها تنضم إلى عملية البحث المحموم عن القطع المفقودة. كانت القطعة المنتقية التالية هى بيدق أحمر، عندما عرض للبيع فى مزاد علنى بقاعة بونهام. واتخذ مكانه على الطرف القصى من الرقعة، بانتظار أن يخوض حرباً، وبحلول هذا الوقت صار كل من يعمل بمجال تجارة التحف يعلم تمام العلم برسالة حياة الليدى كننجتون.

القطعة التالية التى شقت سبيلها إلى رقعة الشطرنج كانت رخا أبيض، والذى أوصت به الخالة جيرترود لتتملكه إلزى بعد وفاتها.

فى عام ١٩٩١ توفى اللورد كننجتون الثانى عشر، وفى هذا الحين لم يكن ينقص الجيش الأبيض من مجموعة الشطرنج سوى بيدقين وحصان، فى حين الجيش الأحمر كان ينقصه أربعة بيادق، ورخ واحد وملك.

فى يوم ١١ مايو ١٩٩٢، طرق أبواب قصر كننجتون تاجر تحف بحوزته ثلاثة بيادق حمراء وحصاناً أحمر. كان قد عاد مؤخراً من رحلة عبر أقاليم الصين الخارجية. قال للسيدة

النبيلة إنها كانت رحلة مضنية وطويلة، ولكنه أكد لها أنه لم يعد خاوى الوفاض.

على الرغم من أن سمو الليدى كانت فى أرذل العمر، إلا أنها، ظلت تقاوم وصمدت للمنافسة لعدة أيام، قبل أن يستسلم التاجر أخيراً لجيوش كننجتون ويغادر قابضاً على شيك بمبلغ ٢٦ ألف جنيه إسترلينى.

وعلى الرغم من توالى الشائعات من هونج كونج، التى طارت حتى بوسطن، والتى بلغت تجاراً بعيدين مبعدة موسكو والمكسيك، فنادرًا ما تحولت الشائعة إلى حقيقة فى بحث الليدى كننجتون المتواصل عن القطع المفقودة.

خلال السنوات القليلة الماضية، عثر إدوارد، لورد كننجتون الثالث عشر، على البيدق الأحمر الأخير وعلى رخ أحمر فى منزل أحد النبلاء المفلسين، الذى كان زميلاً لإدوارد فى أيام



الجامعة، لم يشأ شقيقه جيمس أن يهزم فى المنافسة، فامتلك بيدقين أبيضين من أحد تجار بانكوك.

وهكذا لم يتبقَّ إلا الملك الأحمر الذى ينتظر العثور عليه.

ظلت الأسرة تدفع مبالغ لا بأس بها مقابل أى قطع مفقودة من مجموعة قطع الشطرنج، فصار كل تاجر على وجه الأرض يعلم تمام العلم أنه إذا استطاعت الليدى كننجتون أن تستكمل المجموعة فسوف تساوى ثروة.

عندما دخلت إلزى العقد التاسع من عمرها، أعلمت ولديها بما أوصت به فى وصيتها بتقسيم الميراث بالتساوى فيما بين الاثنين، ولكن مع شرط استثنائى واحد؛ فقد انتوت أن توصى بمجموعة قطع الشطرنج لمن ينجح منهما فى العثور على قطعة الملك الأحمر المفقودة.

توفيت إلزى فى الثالثة والثمانين من عمرها، دون أن تحصل على الملك الأحمر.

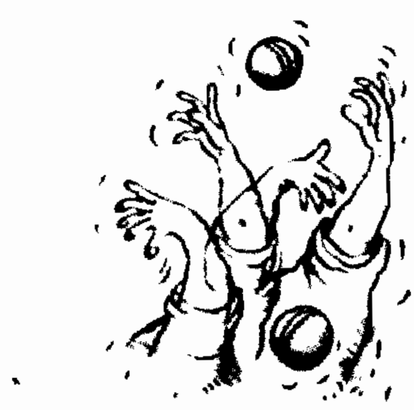
كان إدوارد قد حصل على اللقب من قبل هذا وهو أمر لا يمكن تقريره تبعاً لأى وصية والآن، وبعد وفاتها وانتهاء مراسم الدفن والعزاء، ورث كذلك القصر بالإضافة إلى مبلغ ٨٥٧ ألف جنيه. انتقل جيمس إلى شقة بميدان كادوجان، وحصل كذلك على مبلغ ٨٥٧ ألف جنيه. وبقيت مجموعة قطع شطرنج كننجتون فى خزانة العرض ـ كانت لا تزال ناقصة قطعة، ولا يعرف بعد أى الشقيقين هو مالكها، وهنا ظهر على مسرح الأحداث ماكس جلوفر.

تمتع ماكس بموهبة لا خلاف عليها، وهى قدرته على إلانة الحديد وتذويب الصوان، فبعد أن تلقى تعليمه فى إحدى المدارس الحكومية الصغيرة بإنجلترا، أهلته موهبته كلاعب كريكيت أعسر وأنيق الهندام للاختلاط بعلية القوم الذين كان يسرقهم فيما بعد؛ فعلى كل حال، من ذا الذى لا يثق بلاعب

يحقق كل هذه النقاط بلا أى جهد؟

المباريات الدورية التى تقام بعيداً عن العاصمة كانت موضع ترحيب بالغ من قبل ماكس، بما أنها كانت تتيح له التعرف على إحدى عشرة ضحية محتملة جديدة. دون أن نستثنى فى هذا الضيعة الريفية الصغيرة للورد كننجتون الحادى عشر. فى الوقت الذى انضم فيه سيادة اللورد إلى الفريقين لاحتساء الشاى فى السرادق المخصص لهم، كان ماكس قد نجح فى أن يستدرج الحكم المحلى للضيعة فى الحديث بحيث روى له تاريخ مجموعة شطرنج كننجتون، بما فى ذلك الشرط الذى ورد فى وصية الأم وينص على أن أى الشقيقين سيصل أولاً إلى قطعة الملك الأحمر المفقودة هو من سيرث المجموعة الكاملة تلقائياً.

فى أثناء التهام قطعة من الكعك الإسفنجى، تجرأ ماكس على أن يسأل سيادة اللورد إن كان يسمح له بإلقاء نظرة على مجموعة شطرنج كننجتون، بما أنه مفتون بلعبة الشطرنج. وأبدى اللورد كننجتون سروراً فائقاً بأن يدعو هذا اللاعب الماهر ليصحبه إلى قاعة الرسم الخاصة به. لحظة رأى ماكس المربع الخاوى، بدأت تتشكل فى عقله خطة ما، وطرح بضعة



أسئلة دسها ببراعة فى ثنايا الحوار، وأجابها مضيفه فى رعونة وطيش. تجنب ماكس أى إشارة لشقيق اللورد، أو للفقرة الواردة فى الوصية بخصوص ذلك. ثم أمضى ما تبقى من أصيل اليوم فى الملعب، يصقل خطته ويحبكها، وأضاع رميتى كرة يومها.

حين انتهت المباراة، رفض ماكس الدعوة للانضمام إلى بقية أفراد الفريق فى مشرب الضيعة، وبرر ذلك بأن لديه عملاً عاجلاً فى لندن.

بعد أن وصل شقته فى هامرسميث بدقائق، اتصل بسجين قديم تقاسم معه الوسادة والدثار عندما كان نزيلاً فى إحدى المؤسسات الإصلاحية سابقاً. أكد الزميل السابق لـ"ماكس" أن بوسعه أن ينفذ له بغيته، ولكن هذا سيقتضى منه حوالى شهر، كما أنه سيكلف" مبلغاً وقدره". اختار ماكس أصيل يوم أحد ليعود إلى قصر كننجتون ويواصل أبحاثه. ترك سيارته الإم جى العتيقة فى المكان المخصص للزوار، متقمصاً شخصية أحد جامعى التحف كما حاول أن يقنع نفسه بذلك. اتبع اللوحات الإرشادية حتى الباب الأمامى؛ حيث دفع خمسة جنيهات مقابل تذكرة الدخول. كانت تكاليف صيانة القصر وإدارته أوجبت من جديد أن يفتح أبوابه أمام العامة فى أجازات نهاية الأسبوع.

سار ماكس بعزم على طول ردهة طويلة مزينة بلوحات زيتية لوجوه الأسلاف، رسمتها ريشات مشاهير الرسامين من أمثال رومانى، وجانبورو، وليلى وستابس. قد يقدر ثمن كل لوحة من هذه اللوحات بثروة فى السوق السوداء، غير أن عينى ماكس كانتا مثبتتين على شىء أصغر حجماً منها بكثير، شىء يوجد بصالة العرض الطولية فى الوقت الحاضر.

عندما دخل ماكس إلى القاعة التى يعرض بها مجموعة شطرنج كننجتون، وجد القطع الأصلية محاطة بمجموعة شغوفة من الزوار يوجههم ويخاطبهم أحد المرشدين السياحيين. وقف ماكس فى نهاية الحشد واستمع لحكاية يعرفها تمام

المعرفة. انتظر فى صبر حتى ينتقل الزوار إلى غرفة الطعام لإبداء إعجابهم بأطقم الفضيات الخاصة بالعائلة.

قال المرشد السياحى لمجموعة الزوار بصوت منغم: "بعض هذه القطع تعود لزمن أسطول الآرمادا الأسبانى"، ثم تبعه الزوار إلى الغرفة المجاورة.

نظر ماكس للوراء نحو الردهة ليتأكد من أن مجموعة الزوار التالية لن تهبط عليه فجأة. وضع يده فى جيبه وأخرج الملك الأحمر. باستثناء اللون، كانت القطعة المنحوتة بكل براعة مطابقة فى أدق تفاصيلها للملك الأبيض الذى يقف على الجانب الآخر من الرقعة. كان ماكس يعلم بأن القطعة المزيفة لن تصمد أمام اختبار تحديد العمر باستخدام الكربون المشع، لكنه كان راضياً بامتلاكه نسخة طبق الأصل. غادر قصر كننجتون بعد ذلك بدقائق، وقاد سيارته عائداً إلى لندن.

كانت مشكلة ماكس التالية هى أن يقرر فى أى مدينة سيجد الحالة الأمنية الأكثر تراخياً من أجل أن يضرب ضربته: لندن أم واشنطن أم بكين. متحف الشعب فى بكين فاز فى السباق بفارق طفيف. وعلى الرغم من ذلك، فإنه عند حساب تكاليف المسألة برمتها، كان المتحف البريطانى هو الحصان الوحيد فى المضمار الذى له نصيب من الفوز. غير أن ما حسم التردد فى نهاية الأمر أمام ماكس كانت فكرة قضاء السنوات الخمس القادمة حبيس أحد السجون الصينية، أو إصلاحية عقاب أمريكية، أو حبيس أحد السجون المفتوحة فى شرق إنجلترا. كان الفوز من نصيب إنجلترا دون أى منافسة.

زار ماكس المتحف البريطانى فى الصباح التالى لأول مرة فى حياته. السيدة التى تجلس وراء نافذة بيع التذاكر قامت بتوجيهه إلى مؤخرة الطابق الأرضى؛ حيث سيجد المجموعة الصينية المعروضة بالمتحف.

اكتشف ماكس أن مئات التحف الصينية تشغل خمس عشرة غرفة، ولزمته ساعة أو نحوها ليحدد موقع مجموعة قطع الشطرنج. كان قد فكر فى طلب المساعدة من أحد الحراس المرتدين لزى موحد، غير أنه لم يرغب فى لفت الانتباه إلى نفسه، كما أنه تشكك أن الحارس سيكون بمقدوره الإجابة عن سؤاله، وقرر أن يستغنى عن ذلك.

كان على ماكس أن يبقى بالمكان لبعض الوقت إلى أن صار بمفرده بالقاعة؛ فلم يكن مستعداً أن يشهد حيلته الصغيرة أحد الزوار أو أحد الحراس، وهو الأسوأ. لاحظ ماكس أن حارس الأمن يغطى أربع قاعات كل نصف ساعة. وبالتالى سيكون عليه أن ينتظر حتى يغادر الحارس متوجهًا إلى قاعة الفنون الإسلامية، وفى الحين نفسه عليه أن يتأكد من عدم وجود زوار آخرين فى محيط بصره، قبل أن يستطيع أن يقدم على حركته الحاسمة.

مضت ساعة أخرى حتى شعر ماكس بالثقة الكافية لأن يستخرج النسخة المزيفة من جيبه ويقارنها بالقطعة الأصلية التى تقف بكل فخر على مربعها الأحمر فى كابينة العرض. حدق كل من الملكين فى شبيهه، توءم متطابق، عدا أن أحدهما زائف. ألقى ماكس نظرة سريعة من حوله كانت القاعة لا تزال خالية. وعلى كل حال، كانت الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح يوم ثلاثاء، فى منتصف الفصل الدراسى، والشمس كانت ساطعة.

انتظر ماكس حتى انتقل الحارس إلى قاعة الفنون الإسلامية، وعندها أقدم على حركته التى خطط لها أحسن التخطيط. بمساعدة مدية صغيرة، فتح بحرص غطاء كابينة العرض التى تحتوى مجموعة قطع الشطرنج الصينية. وفى التو والحال انطلق إنذار بصوت حاد ومجلجل، ولكن قبل أن يظهر أول الحراس بوقت طويل كان ماكس قد استبدل الملكين

وأعاد غطاء الصندوق إلى موضعه، وفتح نافذة ثم خرج يتمشى بشكل طبيعى ودخل الغرفة التالية. كان يتأمل زياً يابانياً لمحاربى الساموراى عندما اندفع اثنان من الحراس إلى داخل القاعة المجاورة. أحد الحارسين تفوه بكلمة نابية عندما رأى النافذة المفتوحة، بينما راح الآخر يتأكد إن كان هناك أى شىء مفقود.

قال ماكس مقترحاً، وهو لا يخفى إعجابه بنفسه: "والآن، تريد أن تعرف كيف أوقعت بالشقيقين فى الفخ". أومأت له موافقاً، لكنه لم يَعُدْ للتحدث حتى أنهى لف سيجارة أخرى. واصل ماكس قائلاً: "بادئ ذى بدء، إياك والتسرع فى صفقة تجارية عندما يكون بحوزتك شىء يتنافس عليه مشتريان، وفى هذه الحالة، هما مشتريان مستميتان على شرائه. كانت زيارتى التالية "توقف ليشعل سيجارته ثم أردف: "إلى أحد المتاجرفى شارينج كروس روود. لم يكن الأمر بحاجة إلى قدر كبير من البحث هذه المرة؛ لأن المتجر، واسمه متجر مارلو، يعلن عن نفسه فى دليل الشركات تحت قسم الشطرنج، بشعار يقول "نخدم المحترفين ونرشد المبتدئين ".

دخل ماكس إلى المتجر القديم الرث، واستقبله رجل نبيل متقدم فى العمر كان يشبه أحد بيادق الشطرنج التى دبت فيها الحياة: أى إنه شخص لن يتحرك إلا خطوة وراء أخرى نحو الأمام، ولكنه مازال يبدو كأنه سوف يؤكل فى نهاية الأمر؛ فهو بلا خلاف ليس من النوع الذى يصل إلى الحد الأقصى من الرقعة ليتحول إلى ملك. سأل ماكس الرجل العجوز عن مجموعة من قطع الشطرنج رآها فى واجهة العرض، ثم تبع هذا سلسلة من أسئلة تدرب عليها جيداً؛ مما قاد الحديث فى سلاسة إلى قيمة الملك الأحمر الخاص بمجموعة قطع شطرنج كننجتون.

أعمل المساعد العجوز فكره ثم قال: "إذا ظهرت مثل تلك القطعة فى السوق فقد يبلغ ثمنها ما يفوق خمسين ألف جنيه، فكما يعرف الجميع هناك مشتريان يتنافسان عليها".

كانت تلك هى المعلومة التى دفعت ماكس لإجراء بعض التعديلات على خطته، وكانت مشكلته التالية هى معرفته بأن رصيده فى البنك لا يسمح له بزيارة إلى مدينة نيويورك. وقر قراره بأن عليه أن"يمتلك" أغراضًا صغيرة عديدة من منازل كبرى، أغراضًا يمكن بيعها بسرعة، بحيث يتسنى له أن يزور الولايات المتحدة بمال يكفى لوضع خطته موضع التنفيذ. ومن حسن حظه أن حدث هذا فى منتصف موسم مباريات لعبة الكريكيت.

عندما هبطت طائرة ماكس فى مطار جى إف كينيدى، لم يتجشم عناء زيارة متجر سوثبى أو كريستى، وبدلاً من ذلك طلب من سائق سيارة الأجرة أن يوصله إلى صالة مزادات فيليبس باتجاه الشرق بشارع ٧٩، وكم استراح، حينما أخرج المنحوتة الرقيقة والمسروقة من المتحف البريطانى، لأن الموظف الشاب لم يبد اهتمامًا كبيرًا بالقطعة.

سأله الموظف: "هل تعلم مصدرها؟".

أجاب ماكس: "كلا، لقد توارثتها عائلتى لسنوات".

بعد ذلك بستة أسابيع تم طبع كتالوج مزاد، وطاب ماكس نفساً حين وجد أن السلعة رقم ٢٣ كانت مدرجة باعتبارها مجهولة المصدر، بسعر فتح للمزاد ٣٠٠ دولار. ولأنها لم تكن من بين معروضات المزاد المصحوبة بصورة فوتوغرافية، أحس ماكس بثقة أن قليلين فقط، هم من سوف يبدون اهتماماً كبيراً بالملك الأحمر، وبالتالى سيكون من غير المحتمل أن ينمو إلى إدوارد كننجتون أو شقيقه جيمس علم بها، ما لم يتدخل هو ليلفت انتباه كل منهما.

قبل الموعد المحدد للمزاد بأسبوع واحد، اتصل ماكس بصالة فيليبس فى نيويورك. لم يطرح على الموظف الشاب سوى سؤال واحد؛ أجابه الموظف قائلاً إنه رغم إصدار الكتالوج من فترة تزيد على الشهر، فإنه ما من شخص أبدى أى اهتمام خاص بملكه الأحمر. تظاهر ماكس بخيبة الأمل.

الاتصال الهاتفى التالى الذى أجراه ماكس كان لقصر كننجتون، ونجح فى إغراء اللورد المبجل مستعيناً ببضع جمل تبدأ بـ ماذا لو، وعبارات تبدأ بـ إنما، ووصل به الأمر إلى "ربما"، مما دفع اللورد كننجتون فى النهاية لدعوته لتناول الغداء فى نادى وايتس العريق.

أثناء تناولهما طبقًا من حساء وندسور البنى، أوضح اللورد كننجتون لضيفه أن ماكس لا يمكنه أن يظهر أى أوراق على مائدة الغداء؛ لأن هذا ضد تقاليد النادى. أومأ ماكس متفهماً، ووضع كتالوج قاعة فيليبس تحت مقعده، وبدأ يغزل بإتقان حكاية حول كيف جرت الأمور بمحض المصادفة. واكتشف الملك الأحمر بينما يراجع فى الكتالوج قطعة لأحد رجال الدولة الصينيين القدامى نيابة عن أحد زبائنه.

قال ماكس: "كان من الممكن أن أغفل عنه أنا نفسى، لو لم تطلعنى أنت على تاريخه".

لم يهتم اللورد كننجتون بتناول البودنج (الخبز والزبد)، ولا بتناول الجبن (من نوع الشيدر)، أو حتى قطع البسكويت، ولكنه اقترح أن يتناولا القهوة فى المكتبة الخاصة بالنادى؛ حيث يسمح بمناقشة الأعمال التجارية بها.

فتح ماكس كتالوج قاعة فيليبس ليكشف عن السلعة رقم ٢٣، إلى جانب بعض الصور الفوتوغرافية المفككة الأخرى، ولم يعرضها على رجل المزاد. عندما رأى اللورد كننجتون أن الثمن التقديرى هو ثلاثمائة دولار، كان سؤاله التالى هو؟ "هل تظن أن قاعة فيليبس للمزادات قد تكون أطلعت أخى بشأن هذا المزاد؟".

أجابه ماكس: "ليس هناك ما يبرر هذا الاعتقاد؛ فقد أكد لى أحد الموظفين العاملين بهذا المزاد أن أحداً من الجمهور لم يبد أى اهتمام بالسلعة رقم ٢٣".

"ولكن كيف يمكنك أن تكون بهذه الثقة من منشئها الأصلى؟".

قال ماكس فى ثقة تامة: "إنه عملى الذى أكسب منه عيشى، ولكنك تستطيع على الدوام أن تجرى اختباراً بالكربون المشع لتحديد عمر القطعة، وإذا ثبت لك أننى على خطأ، لن تكون مضطراً لأن تدفع لى".

قال اللورد كننجتون: "لا يطمع المرء فى أكثر من ذلك، إذن فأنا أفترض أننى سوف أسافر إلى أمريكا وأزايد على القطعة بنفسى"، هكذا أضاف وهو يضرب بيده على ذراع المقعد الجلدى، فانبعثت سحابة صغيرة من الغبار فى الهواء.

قال ماكس: "ترى هل سيكون هذا من الحكمة سيدى اللورد، فى ظل ــــــــ".

سأل اللورد كننجتون: "ولم لا؟".

"الأمر هو أنك إذا ما سافرت إلى الولايات المتحدة دون وجود تفسير واضح لذلك، فقد ينشأ فضول لا داعى له بين بعض أفراد أسرتك". توقف ماكس للحظات، ثم واصل قائلاً: "وإذا شاهدك شخص ما تتردد على دار للمزادات..".

قال كننجتون: "أدرك ما ترمى إليه"، ثم نظر مقطباً نحو ماكس وسأله: "فيم تنصحنى إذن؟".

قال ماكس: "سأكون مسروراً غاية السرور إذا سافرت لأمثل مصالحك فى هذا المزاد بالنيابة عنك".

سأله اللورد كننجتون: "وكم تبلغ أتعابك مقابل خدمة كتلك؟".

قال ماكس: "ألف جنيه زائد النفقات، مقابل اثنين ونصف بالمائة من السعر الذى يرسو عليه المزاد، ودعنى أؤكد لك أن

هذه هى الإجراءات المتعارف عليها".

أخرج لورد كننجتون دفتر شيكاته من أحد جيوبه الداخلية وحرر شيكاً بمبلغ ١٠٠٠ جنيه ثم سأل بنبرة توحى بلا مبالاة عادية: "ما تقديرك للمبلغ الذى قد تباع به القطعة؟".

سُر ماكس لإثارة اللورد كننجتون لموضع ثمن القطعة، كما لو أن هذا هو سؤاله التالى. قال ماكس: "الأمر يتوقف على ما إذا كان هناك أى شخص آخر مطلع على سرنا الصغير هذا. ولكننى مع ذلك أقترح أن تضع حداً أقصى للسعر الذى تقدمه وهو مبلغ خمسين ألف دولار سعراً للقطعة".

"خمسون ألف دولار؟"قال اللورد كننجتون هذه العبارة فى غير تصديق.

قال ماكس مقترحاً:"لن تزيد على ذلك إلا بصعوبة، وتذكر أن مجموعة قطع الشطرنج كاملة يمكن أن تباع بما يفوق المليون ــــ"، توقف قليلاً قبل أن يقول: "ــــ أو أنها لن تساوى فلساً، فى حالة شراء أخيك للملك الأحمر".

كرر لورد كننجتون قائلاً: "أدرك ما ترمى إليه، ولكن مازال بمقدورك الحصول على القطعة ببضع مئات من الدولارات".

قال ماكس: "لندع الله أن نفلح فى هذا".

غادر ماكس جلوفر نادى وايتس بعد الثالثة ببضع دقائق، وأوضح لمضيفه أن لديه موعدًا آخر ذلك الأصيل، وهو ما لم يكذب بشأنه فى الحقيقة.

تفقد ماكس عقارب ساعة يده، وقرر أنه مازال لديه وقت كاف ليتمشى قليلاً فى حديقة جرين بارك دون أن يتأخر على موعده التالى.

وصل ماكس إلى ميدان سلوان قبل تمام الرابعة ببضع دقائق، واتخذ مجلسه على مقعد طويل قبالة تمثال السير فرانسيس دريك، وبدأ يتدرب على دوره الجديد، وفقاً للنص المتخيل. حين سمع دقات ساعة البرج القريبة تدق أربع دقات،

نهض متوثباً وسار بهمة عبر ميدان كادوجان. توقف عند مبنى رقم ١٦، صعد الدرج، ودق جرس إحدى الشقق.

فتح جيمس كننجتون الباب ورحب بضيفه مبتسماً.

أوضح ماكس قائلاً: "لقد اتصلت بك فى وقت سابق من صباح اليوم، اسمى جلوفر".

قاده جيمس كننجتون عبر غرفة الاستقبال وأشار إلى ماكس ليجلس بجوار نار خامدة فى المدفأة. وجلس الشقيق الأصغر قبالته.

رغم أن الشقة كانت فسيحة، بل وكبيرة المساحة، كانت هناك بعض الخطوط الخارجية الظاهرة على الجدران توحى بالمواضع التى علقت عليها من قبل اللوحات الزيتية ذات مرة. وشك ماكس فى أن تلك اللوحات الثمينة لم تذهب للتنظيف أو لصنع أطر جديدة لها؛ فأعمدة النميمة فى الصحف تشير من وقت لآخر إلى عادات جيمس السيئة فى الإفراط فى الشراب وتلمح إلى ديون مقامرات عديدة لم تسدد بعد.

عندما بلغ ماكس منتهى قصته، كان فى أتم الاستعداد للسؤال الأول الذى طرحه عليه السيد المبجل جيمس كننجتون.

"ما تقديرك للثمن الذى سوف تباع به القطعة يا سيد جلوفر؟".

أجابه ماكس قائلاً: "بضع مئات من الدولارات؛ ذلك بافتراض أن شقيقك لم يطلع على مسألة المزاد". توقف قليلاً ليحتسى الشاى، قبل أن يضيف قائلاً: "أما إذا دخل المزاد فالثمن التقريبى هو خمسون ألفاً".

قال ماكس: "لكننى لا أملك مبلغ الخمسين ألفاً". وهو أمر كان ماكس يعرفه تمام المعرفة. واصل جيمس قائلاً: "وإذا ما علم أخى بأمر المزاد فلن يكون هناك أى شىء يمكننى القيام به؛ فبنود الوصية واضحة غاية الوضوح ـ من يملك الملك الأحمر يرث المجموعة كاملة".

قال ماكس، دون أن يخرج عن الإيقاع المضبوط: "سوف أكون مستعداً لتقديم المال اللازم لتأمين ثمن القطعة، إذا وافقت بالمقابل أن تبيعنى المجموعة كاملة".

سأله جيمس: "وكم تود أن تدفع ثمناً لها؟".

قال ماكس: "نصف مليون".

احتج جيمس قائلاً: "ولكن دار مزادات سوثبى قدرت سعر المجموعة الكاملة من قبل بمليون وأكثر".

قال ماكس: "قد يكون هذا هو الوضع حقاً، ولكن نصف مليون أفضل من لا شىء بلا شك، وهو ما سيحدث إذا ما علم أخوك بوجود الملك الأحمر".

"لكنك قلت إن الملك الأحمر قد يباع ببضع مئات من ـــــ".

كرر ماكس العبارة نفسها للمرة الثانية خلال هذا الأصيل: "فى تلك الحالة، سوف أنال ألف جنيه مقدماً، مقابل اثنين ونصف بالمائة من السعر الذى يرسو عليه المزاد".

قال جيمس بابتسامة من يعرف أنه فاز بالسبق: "إننى مستعد لاتخاذ هذه المجازفة. وإن بيع الملك الأحمر بأقل من خمسين ألفاً، فسيكون بمقدورى أن أدفع الثمن بنفسى. وإن تجاوز ثمنه الخمسين ألفاً، يمكنك أن تشترى القطعة وسوف أبيعك المجموعة كاملة مقابل نصف مليون". احتسى جيمس رشفة من الشاى، ثم أضاف: "لن أكون خاسراً فى كلتا الحالتين".

وكذلك أنا، هكذا فكر ماكس فى نفسه بينما أخرج عقداً من جيبه الداخلى. قرأ جيمس الوثيقة ببطء. رفع نظره عنها وقال: "لابد أنك كنت واثقاً من موافقتى على خطتك يا سيد جلوفر".

قال ماكس: "وحتى إن لم توافق، فإن زيارتى التالية كانت ستصبح لشقيقك مما سيتركك خاوى اليدين. أما الآن، فعلى الأقل لن تكون خاسراً فى كلتا الحالتين، على حد تعبيرك".

قال جيمس: "من المفترض إذن أن أسافر إلى نيويورك".

أجابه ماكس: "ليس بالضرورة، تستطيع أن تزايد على القطعة من خلال الهاتف؛ مما يتيح لك ميزة عدم إطلاع أحد على شخصية المتصل بدار المزادات".

سأله جيمس: "ولكن كيف أرتب هذا؟".

أكد له ماكس قائلاً: "أمر فى غاية البساطة. يبدأ مزاد نيويورك فى الساعة الثانية بعد الظهر، وهو ما يعنى تمام السابعة مساءً بتوقيت لندن. الملك الأحمر هو السلعة رقم ٢٣ المعروضة بالمزاد، إذن سوف أرتب مع دار فيليبس للمزادات أن يجروا اتصالاً معك ما إن يصل المزاد إلى القطعة رقم واحد وعشرين، وما عليك إلا أن تحرص على التواجد بجوار الهاتف دون أن يشغل الخط أى شخص آخر".

"وسوف تتعامل مع الأمر إن ارتفع السعر فوق الخمسين ألفاً؟".

قال ماكس: "كلمة شرف"، ناظراً مباشرة فى عينى محدثه.

حلق ماكس مسافراً إلى نيويورك فى إجازة نهاية الأسبوع السابقة على موعد عقد المزاد مباشرة. حجز لنفسه بفندق صغير يقع فى إيست سايد، ونزل بغرفة لا تتسع مساحتها كثيراً عن مساحة زنزانتنا، ولكن هكذا تبقى معه ما يكفى من المال لتغطية نفقات النقلة الأخيرة فى مباراة الشطرنج الحاذقة تلك.

صباح الاثنين نهض ماكس من نومه باكراً. لم يغمض له جفن بسبب أوركسترا الضجيج التى تبثها سيارات نيويورك وسارينات سيارات الشرطة، وقد أحسن استغلال هذا الوقت فى مراجعة الاحتمالات المختلفة والتغييرات المرجحة للخطة التى قد تحدث ما إن يفتتح المزاد.

ما هى إلا دقيقتان أو أقل ويصبح فى منتصف الحلبة، وإن أخفق، فسوف يعود على أول رحلة متجهة إلى مطار هيثرو، دون أن تكلل جهوده بشىء عدا الديون والرصيد البنكى المكشوف.

ابتاع كعكة عند تقاطع الشارع الثالث بالشارع السادس والستين، ثم سار ما يساوى بضعة مبانٍ أخرى ليصل إلى دار مزادات فيليبس. قضى ما تبقى من ساعات النهار فى حضور مزاد لمخطوطات قديمة يعقد بالقاعة نفسها التى سوف تشهد بيع التحف الصينية بالمزاد العلنى. جلس صامتاً فى نهاية القاعة، يراقب كيف يدير الأمريكيون مزاداتهم؛ بحيث لا يتورط فى أمر غير متوقع خلال وقت لاحق من ذلك الأصيل.

لم يتناول ماكس أى طعام على الغداء، ولا يرجع هذا فقط لميزانيته الهزيلة التى سبق أن بلغ بها حدودها القصوى؛ فبدلاً من تضييع الوقت فى تناول الطعام، استغل الوقت ليجرى اتصالين هاتفيين دوليين؛ الأول منهما للورد كننجتون؛ ليؤكد أنه مازال لديه السلطة ليزايد على شراء الملك الأحمر حتى مبلغ خمسين ألف دولار، وطمأنه ماكس بأنه بمجرد أن تدق مطرقة رجل المزاد معلنة بيع القطعة سوف يتصل به ليخبره بالمبلغ الذى بيعت به القطعة. بعد ذلك بدقائق أجرى ماكس اتصاله الهاتفى الثانى، وهذه المرة ليتحدث إلى السيد المبجل جيمس كننجتون بمنزله فى ميدان كادوجان. التقط جيمس سماعة الهاتف بعد أول رنين له، وكان جلياً أنه استراح عند سماع صوت ماكس على الطرف الآخر من الخط. قدم ماكس الوعد نفسه للسيد المبجل جيمس كننجتون.

أعاد ماكس سماعة الهاتف لموضعها ثم شق سبيله نحو نضد المزايدة؛ حيث أعطى إحدى المساعدات رقم هاتف جيمس كننجتون فى لندن وأخبرها بنيته المزايدة على القطعة رقم ٢٣.

أجابته المساعدة قائلة: "اترك الأمر لنا يا سيدى. سأحرص على اتصالنا به فى الوقت المناسب تماماً".

شكر ماكس المساعدة، وعاد من جديد نحو غرفة المزاد واتخذ الموضع المفضل لديه عند نهاية الصف الثامن، على يمين رجل المزاد تماماً. بدأ يقلب صفحات الكتالوج، يتفحص القطع المعروضة والتى لا تثير أى اهتمام لديه. وبينما جلس هناك، ينتظر فى نفاد صبر دعوة رجل المزاد للمزايدة على القطعة رقم واحد، حاول أن يميز من بين الحضور من هم التجار، ومن هم المزايدون الجادون ومن حضروا بدافع الفضول لا أكثر.

عندما صعد رجل المزاد سلم المنصة عند الثانية إلا دقيقتين، كانت غرفة المزاد ممتلئة بالوجوه التى يعلوها الترقب. عند الثانية تماماً ابتسم الرجل الذى يدير المزاد من فوق المنصة لزبائنه الحاضرين.

أعلن قائلاً: "القطعة رقم واحد، وهى تمثال لصياد من العاج منحوت بدقة ومهارة".

بيعت القطعة بمبلغ ٨٥٠ دولاراً، دون أى تلميح للدراما المشوقة التى ستتلو ذلك.

بلغت القطعة الثانية مبلغ ألف دولار، ولكن كان يجب الانتظار حتى القطعة رقم ١٧، وهو تمثال لأحد رجال الدولة الصينية القديمة منحن على مكتب ويقرأ فى أحد الدفاتر، وعندها وصل الثمن إلى ٥٠٠٠ دولار.

غادر القاعة تاجر أو اثنان كان من الواضح أن اهتمامهما انصب على القطع السابقة وحسب، بينما غادر اثنان آخران، بعد أن نجحا أو أخفقا فى امتلاك القطع التى حضرا سعياً وراءها. كان يمكن لـ"ماكس" سماع خفقان قلبه بشدة، على الرغم من أنه مازال هناك بعض الوقت قبل أن يصل رجل المزاد إلى القطعة رقم ٢٣.

أعاد توجيه اهتمامه إلى صف الهواتف الموضوعة على منضدة طويلة على أحد جوانب الغرفة. لم يكن هناك إلا ثلاثة منها مشغولة. عندما أعلن رجل المزاد عن وصوله للقطعة رقم ٢١، بدأت المساعدة تتصل بالرقم. بعد ذلك بدقائق معدودة كورت يدها حول طرف السماعة القريب من الفم وراحت تهمس. عندما تم تقديم القطعة رقم ٢٢، تحدثت باقتضاب مع عميلها من جديد. افترض ماكس أنها ولابد تحذر جيمس كننجتون من أن الملك الأحمر سيكون هو القطعة التالية التى توضع تحت رحمة مطرقة رجل المزاد.

أعلن رجل المزاد وهو يلقى بنظرة على أوراق ملاحظاته: "القطعة رقم ٢٣، وهى ملك أحمر منحوت نحتاً بارعاً ودقيقاً، المنشأ مجهول. هل أفتتح المزاد بمبلغ ٣٠٠ دولار؟".

رفع ماكس كتالوجه.

"خمسمائة؟"، هكذا تساءل رجل المزاد وهو يلتفت ليواجه الموظفة التى تتحدث بالهاتف. همست بشىء فى الهاتف ثم أومأت برأسها فى حزم. حول رجل المزاد انتباهه نحو ماكس من جديد، الذى كان قد رفع كتالوجه حتى من قبل أن يقترح رجل المزاد الثمن.

"لدى مزايدة بألف دولار"، هكذا قال رجل المزاد مولياً وجهه نحو المشترى المتصل بالهاتف. غامر قائلاً: "ألفان؟"، ولدهشته رأى الموظفة تومئ بسرعة شديدة.

اقترح قائلاً بينما نظر من جديد نحو ماكس: "ثلاثة آلاف؟". ارتفع الكتالوج لأعلى مرة أخرى، وبدأ العديد من التجار يتبادلون الهمسات فى مؤخرة القاعة.

"أربعة آلاف؟"تساءل رجل المزاد وهو يحدق دون تصديق نحو الموظفة الممسكة بسماعة الهاتف. خمسة آلاف دولار، ستة آلاف دولار، سبعة آلاف، ثمانية آلاف دولار، تسعة آلاف دولار،

عشـرة آلاف دولار تم تجاوزهـا فى أقـل من دقيقة واحدة. حاول رجـل المـزاد محاولـة يائسـة أن يظهـر بمظهـر مـن كان يتوقـع حدوث هذا بينما تعالت الهمهمة والدمدمة فى القاعة. بدا كأن لدى كل واحد رأياً مختلفاً فيما يجرى. نهض واحد أو أكثر من التجار من أماكنهم المفضلة وساروا بكل همة نحو نهاية القاعة، علـى أمـل العثور علـى تفسيـر لهـذه المزايدة المحمومـة. البعض الآخر كان قد بدأ يضع الافتراضات بالفعل، ولكن أحداً لم يكن مستعـداً للمزايـدة تحـت وطـأة كل هـذا الضغـط، وخصوصاً أن المبلغ راح الآن يتقافز بالخمسة آلاف دولار كل مزايدة.

عندما تساءل رجل المزاد "بخمسة وأربعين ألفاً؟" رفع ماكس كتالوجه على الفور مستجيباً له، فتوجه رجل المزاد نحو السيدة علـى الهاتف: "هل يزايـد زبونك بخمسين ألفاً؟" التفت جميع مـن بالقاعـة نحوها، لرؤية رد فعلها. ترددت للمرة الأولى حتى الآن. كـرر رجل المـزاد قائـلاً: "خمسين ألفـاً". همست الموظفة بالمبلـغ فى سماعـة الهاتف، وبعد وقفة طويلـة أومأت بالموافقة، ولكن دون حماس كبيـر.

عندمـا عرضت القطعة علـى ماكس بمبلغ خمسة وخمسين ألفاً، تردد هو أيضاً، وأخذ وقته قبل أن يرفع كتالوجه بالموافقة أخيراً.

"ستـون ألفاً؟" هكذا اقتـرح رجـل المزاد على الموظفة الممسكة بسماعـة الهاتف. انتظـر ماكس فى توتـر عصبى بينما هى تكور يدهـا حول الطرف القريـب لفمها من السماعـة وتكرر النطق بالرقـم. بـدأت بعض خيـوط العرق تظهـر على جبـين ماكس، وراح يسائـل نفسه تـرى هل نجح جيمس فى تدبر أموره بحيث يتسنى له أن يرفع المبلغ إلى أكثر من ٥٠ ألفاً؛ ففى تلك الحالة سـوف يخسر كل النفقات التى تحملهـا على العملية حتى الآن. بعـد وقـت بدا وكأنه طال مدى الدهر، ولكنه لم يزد فى حقيقة الأمـر عـن عشريـن ثانية، هـزت الموظفـة رأسها نفيـاً، ووضعت

سماعة الهاتف على القرص منهية الاتصال.

ابتسم رجل المزاد باتجاه ماكس، وقال: "بيعت للسيد المحترم على يساري، مقابل خمسة وخمسين ألف دولار". شعر ماكس عندئذ بالغثيان، والانتصار، والدوار، والارتياح، كل ذلك فى اللحظة نفسها.

بقى ماكس فى مكانه، منتظراً حتى تهدأ ضجة الحماس والإثارة، وبعد بيع حوالى عشر قطع أخرى تسلل بهدوء خارج القاعة، غير منتبه للنظرات المحدقة والمرتابة التى رماه بها التجار؛ ممن راحوا يتساءلون عمن يكون هذا الرجل. خطا فوق البساط الأخضر السميك وتوقف عند نضد البيع.

"أود أن أترك عُربوناً على القطعة ٢٣".

نظرت الموظفة نحو القائمة التى أمامها. قالت: "ملك أحمر"، ثم تأكدت أكثر من مرة من السعر، ثم أضافت: "خمسة وخمسون ألف دولار"، ثم رفعت بصرها نحو ماكس للتأكد.

فأومأ بالموافقة بينما بدأت الموظفة تملأ خانات مربعة صغيرة على وثيقة الشراء، وما هى إلا لحظات حتى أدارت النموذج نحو ماكس ليوقعه.

قالت الموظفة: "ستكون قيمة العربون خمسة آلاف وخمسمائة دولار، وينبغى دفع الثمن كاملاً فى غضون ثمانية وعشرين يوماً". أومأ ماكس برأسه دون اكتراث، وكأنما كان هذا إجراء اعتاد عليه تمام الاعتياد. وقع الوثيقة ثم حرر شيكاً بمبلغ خمسة آلاف وخمسمائة دولار، مدركًا أنه سيجعل رصيده صفراً، ودفعه نحوها عبر النضد. سلمته الموظفة النسخة العليا من العقد واحتفظت بالنسخة الأخرى. عندما راجعت توقيعه بدا عليها التردد. لابد أنها مجرد مصادفة لا أكثر، فاسم جلوفر شائع. لم ترغب فى إهانة عميلها، لكنها كانت تعرف أن عليها إطلاع القسم الذى تتبعه بهذا الموقف الغريب، ومن ثم يتأكدون من صرف الشيك.



غـادر ماكس دار المزادات وتوجـه شمالاً صوب بـارك أفينو. دخـل مباشـرة إلى سوثبى بـارك بيرنـت واقـترب مـن مكتب الاستقبـال. سأل إن كان يمكـن له أن يتحدث قليلاً إلى مسئول قسم التحف الشرقية. لم ينتظر إلا دقائق معدودة.

فى هذه المرة لم يهدر ماكس وقته بطرح أية أسئلة تمهيدية لا جدوى منها إلا تغطية نواياه الحقيقية. فعلى كل حال، وكما ذكرتـه موظفة دار فيلييس للمـزادات، فإنه لم يعد أمامه سوى ثمانية وعشرين يومًا لإتمام الصفقة.

سـأل ماكـس: "إن عرضت مجموعة شطـرنج كننجتون فى السوق، فكم تتوقع أن يكون ثمنها؟".

بـدا الشـك والريبة على الخبـير، وخصوصاً بعـد أن تناهى إلى علمه تواً نبأ بيع الملك الأحمر بدار فيلييس، وبالسعر الذى بيـع به. أجاب قائـلاً: "سبعمائة وخمسون ألفـاً من المحتمل أن تصل إلى المليون".

قال ماكس: "وإن كان بمقدورى أن أجلب لكم المجموعة الكاملة لقطع شطرنج كننجتون، وكنتم المخولين بإثبات أصالتها، فما المبلغ المستعدون أنتم لتقديمه مقابل صفقة مستقبلية؟".

"أربعمائة ألف، ربما خمسمائة، فقط لو أمكن لأسرة كننجتون أن تؤكد لى أنها مجموعة قطع شطرنج كننجتون حقاً".

"سأكون على اتصال معكم، "هكذا وعده ماكس، وهو يشعر بأن جميع مشكلاته القريبة والبعيدة قد تم حلها إلى الأبد.

❁ ❁ ❁

سجل ماكس مغادرته من الفندق الصغير الذى نزل به فى إيست سايد فى وقت لاحق من المساء نفسه، واستقل سيارة أجرة إلى مطار لينيدى، وما إن أقلعت الطائرة حتى راح فى نوم عميق للمرة الأولى منذ أيام.

لمست الطائرة بوينج ٧٢٧ أرض مطار هيثرو مع طلوع الشمس على نهر التايمز؛ لأنه لم يكن هناك أحد بانتظاره، ركب ماكس قطار هيثرو إكسبريس إلى بادنجتون، وكان فى شقته وقت تناول الإفطار، وبدأ يشطح مع خيالاته حول طبيعة حياته عندما يتناول طعامه بانتظام فى مطعمه المفضل، أن يستقل سيارات الأجرة باستمرار، بدلاً من أن يقف فى انتظار الحافلة التالية.

ما إن أنهى ماكس إفطاره حتى وضع الأطباق فى الحوض وجلس فى أحد المقاعد المريحة. بدأ يفكر فى تحركه القادم، واثقاً من أن الملك الأحمر قد اتخذ مكانه الآن فى لوح اللعب، وأن المباراة الحافلة لابد أن تنتهى بموت الشاه.

عند الساعة الحادية عشرة وهو وقت ملائم للاتصال بنبيل من نبلاء المملكة، اتصل ماكس بقصر كننجتون. حين

حول رئيس الخدم المكالمة إلى اللورد كننجتون، كان أول ما نطق به هو: "هل حصلنا عليه؟".

أجابه ماكس: "كلا، بكل أسف سيدى اللورد، لقد هزمنا فى المزايدة من قبل طرف مجهول. لقد قمت بتنفيذ تعليماتك بالحرف الواحد، وتوقفت عن المزايدة عند وصول السعر لمبلغ خمسين ألف دولار". توقف قبل أن يضيف: "كان السعر الذى رسا عليه المزاد هو خمسة وخمسون ألفاً".

ساد صمت طويل على الطرف الآخر، ثم قال اللورد: "أتظن أن المزايد الآخر هو شقيقى؟".

أجاب ماكس: "لا سبيل للتأكد من ذلك، كل ما أعرفه أنهم كانوا يزايدون عن طريق الهاتف، لاشك أنهم كانوا يبتغون الحرص على بقائهم مجهولى الهوية".

أجاب اللورد كننجتون: "سأكتشف ذلك قريبًا"، ثم أغلق الخط.

"طبعاً ستكتشف قريباً"، هكذا قال ماكس متفقاً معه بينما كان يتصل برقم فى تشيلسى.

ما إن سمع ماكس الصوت الأرستقراطى لـ جيمس قال: "تهانينا، لقد نجحت فى شراء القطعة، وهكذا يحق لك الآن المطالبة بحقك فى إرثك؛ طبقاً لبنود الوصية".

قال جيمس كننجتون: "أحسنت فعلاً يا جلوفر".

قال ماكس: "وفى اللحظة التى تتسلم فيها بقية المجموعة سيقوم المحامون التابعون لى بتسليمك شيكاً بمبلغ أربعمائة وخمسة وأربعين ألف دولار".

قال جيمس منزعجاً: "لكننا اتفقنا على نصف مليون".

قال ماكس: "ناقص مبلغ الخمسة والخمسين ألفاً الذى دفعته لشراء الملك الأحمر. ستجد ذلك منصوصًا عليه فى العقد الذى وقعناه".

بدأ جيمس يتذمر قائلاً: "ولكن....".

سأله ماكس بينما بدأ جرس الباب الخارجى يدق: "أتفضل أن أتصل بأخيك؟ لأننى مازلت أمتلك القطعة". لم يرد جيمس فى الحال. أضاف ماكس: "فكر بالأمر بينما أتفقد الباب الخارجى". وضع ماكس السماعة على المنضدة الجانبية، وسار إلى الردهة، وهو يفرك يديه. فتح السلسلة، وفتح القفل، وجذب الباب بضع بوصات. رأى رجلين طويلين يرتديان معطفين متطابقين واقيين من المطر يقفان قبالته.

سأله أحدهما: "هل أنت السيد ماكس فكتور جلوفر؟".

سأله ماكس: "ومن الذى يسأل؟".

"إننى المفتش آرميتاج من شرطة مباحث النصب والاحتيال، وهذا الرقيب ويلليز". وأشهر كل منهما بطاقة التعريف الخاصة به، والتى كان يعرف ماكس شكلها تمام المعرفة. "هل تأذن لنا بالدخول؟".

ما إن حصل رجلا الشرطة على إفادة ماكس ودونوها، تلك الإفادة التى لم تزد على عبارة: "سأكون بحاجة للاتصال بالمحامى الخاص بى" حتى غادرا الشقة، ثم اتجها مباشرة بعدها إلى يوركشير للقاء اللورد كننجتون، وبعد أن حصلا على إفادة مفصلة من سيادته، عادا إلى لندن للقاء شقيقه جيمس. ووجده الشرطيان متعاوناً هو الآخر لأقصى درجة.

بعد ذلك بأسبوع قبض على ماكس بتهمة الاحتيال. لم يصرح له القاضى بالإفراج بكفالة نظراً لسجله الماضى غير المشرف.

سألت ماكس: "ولكن كيف اكتشفوا أنك سرقت الملك الأحمر؟".

أجابنى ماكس وهو يدهس عقب سيجارته: "لم يكتشف ذلك أحد".

وضعت قلمى، وغمغمت من الجزء العلوى من الفراش قائلاً: "لست واثقاً من أننى فهمت المسألة".

اعترف ماكس قائلاً: "ولا أنا، على الأقل حتى وجهوا لى الاتهام". بقيت صامتاً، بينما بدأ شريكى فى الزنزانة يلف سيجارته التالية. استمر يقول: "عندما تلوا وثيقة الاتهام لم يكن هناك شخص أكثر دهشة منى؛ فقد كان الحكم كما يلى:

"ماكس جلوفر، أنت مذنب بمحاولة الحصول على مال عن طريق ادعاءات كاذبة، وتحديداً فى السابع عشر من أكتوبر، فى عام ٢٠٠٠، اشتريت قطعة ملك أحمر من مزاد بمبلغ خمسة وخمسين ألفاً، وهى القطعة رقم ٢٣ من دار مزادات فيليبس فى نيويورك، بينما أغريت أطرافاً أخرى مهتمة بالقطعة بالمزايدة أمامك، دون أن تعلمهما بأنك المالك الحقيقى للقطعة".

دار مفتاح ثقيل فى ثقب الباب وطقطق منفتحاً على زنزانتنا.

صاح الضابط المناوب: "زيارات".

بينما دلى ماكس ساقيه من فراشه، قال لى: "وهكذا ترى أنهم اتهمونى خطأ وحكموا على بالسجن عقاباً على الجريمة التى لم أرتكبها".

"ولكن لم خضت غمار كل تلك التمثيلية فى حين كان بوسعك أن تبيع القطعة لأحد الشقيقين وتنتهى الحكاية؟".

"لأنه فى تلك الحالة كنت سأضطر لأن أريهم كيف حصلت على القطعة فى المقام الأول، ولو قبض علىّ بسبب...".

"ولكن الشرطة قبضت عليك بالفعل".

ذكرنى ماكس: "ولكن ليس بجريمة السرقة".

سألته بينما نخطو إلى الردهة ونشق سبيلنا نحو مركز الزيارات: "وماذا حدث للملك الأحمر إذن؟".

قال ماكس: "أعيد إلى المحامى بعد المحاكمة، وحفظه فى خزانته؛ حيث سوف يبقى هناك حتى إطلاق سراحى".

قلت له: "ولكن هذا يعنى....". .

قاطعنى ماكس بلامبالاة: "هل سبق لك أن التقيت بلورد كننجتون؟".

أجبت: "كلا، لم أنل هذا الشرف".

قال وهو يحاكى لهجتى ساخراً: "إذن سوف تنال هذا الشرف، سأقدمك له أيها الصبى العجوز؛ لأنه آت اليوم لزيارتى"، ثم توقف قليلاً قبل أن يضيف: "لدى شعور بأن اللورد سوف يقدم لى عرضاً محترماً مقابل الملك الأحمر".

سألته: "وهل ستقبل عرضه؟".

أجابنى ماكس ونحن ندخل قاعة الزيارات: "صبراً يا جيف، لن يكون بمقدورى أن أجيب عن هذا السؤال حتى الأسبوع القادم، عندما يزورنى شقيقه جيمس".

حكيم الزمان



كانت نصيحة زوجتى كارول لى هى: "اهتم بشئونك ولا تتدخل فيما لا يعنيك".

فذكرتها بينما أصعد للفراش: "ولكن الأمر يعنيتى، لقد كنت أنا وبوب صديقين منذ أكثر من عشرين عاماً حتى الآن".

أصرت على موقفها قائلة: "هذا أدعى لأن تحتفظ بمشورتك لنفسك".

أجبتها محتداً قليلاً: "ولكنى لا أستريح لها".

"لقد أوضحت شعورك هذا كل الوضوح خلال العشاء". هكذا ذكرتنى كارول بينما كانت تطفئ المصباح المجاور لجانبها من الفراش.

"ولكن بلا أدنى شك، من الواضح وضوح الشمس أن هذه العلاقة سوف تنتهي بالبكاء والنواح".

"لن يكون عليك ساعتها إلا شراء علبة من المناديل الورقية".

غمغمت قائلاً: "إنها لا تسعى إلا وراء ماله".

أجابتنى كارول: "ولكنه لا يملك أى مال، إن بوب ناجح عملياً تمامًا، ولكن اسمه لا يرد على قائمة أثرى أثرياء العالم".

"قد يكون هذا هو الحال حقاً، ولكن مازال من واجبى أن أحذره باعتبارى صديقه بألا يتزوج من تلك المرأة".

قالت كارول: "إنه لا يود سماع هذه النصيحة بالذات حالياً؛ فلا تفكر حتى فى النطق بها".

قلت لها وأنا أهز وسادتى وأهيئها للنوم: "اشرحى لى يا حكيمة الزمان، لم يتوجب علىَّ الصمت؟".

تجاهلت كارول سخريتى قائلة: "إذا كان لا مناص من أن ينتهى بهما الأمر بالنزاع أمام محاكم الطلاق، لن يضيف هذا لنصيحتك شيئًا سوى أنك ستبدو معتدًا عندئذ بنفسك. أما إذا نجح هذا الزواج، فإن صديقك لن ينسى لك أبدًا ولن يصفح

عنك ـ ولا هى سوف تصفح عنك".

"لم أكن أنتوى إخبارها برأيى".

قالت كارول: "صدقنى إنها تعرف تمامًا طبيعة شعورك ناحيتها منذ الآن".

تنبأت قائلاً: "لن يستمر هذا الزواج أكثر من عام". و هنا دق جرس الهاتف على الجانب الخاص بى من الفراش. التقطت السماعة داعيًا الله ألا يكون استدعاء من مريض.

انبعث صوت مألوف لا حاجة به للتعريف عن نفسه يقول: "طلب واحد فقط سأطلبه منك".

سألته: "وما هو يا بوب؟".

"هل تكون إشبينًا لى فى حفل الزفاف؟".

التقينا أنا وبوب رادفورد للمرة الأولى بمستشفى سانت توماس عندما كان كل منا طبيبًا تحت التدريب، وكنا حديثى التخرج. ولنكون أكثر دقة، كان اللقاء الأول بيننا فى ملعب الرجبى، عندما غلبنى بينما كنت على وشك أن أسجل رمية الفوز. فى تلك الأيام كنا على جانبين متناحرين.

بعد أن تم تعييننا كطبيبى امتياز فى مستشفى جايز، بدأنا نلعب الرجبى ولكن فى فريق واحد هذه المرة، وكنا نلعب مباراة إسكواش بانتظام فى منتصف كل أسبوع ـ كان هو الفائز فيها على الدوام. لم نكن مضطرين وقتها للبحث عن رفقة من الإناث لأن مستشفى سانت توماس كان بها ما يزيد على الثلاثمائة ممرضة، الغالبية العظمى منهن يبحثن عن خطيب مناسب، ولسبب مجهول كن يعتبرن الأطباء صيدًا ثمينًا، وكان كلانا يتطلع لاستغلال وضعنا الجديد بينهن. وعندئذ تحديدًا أصابنى سهم كيوبيد.

كانت كارول أيضًا طبيبة على وشك التخرج مثلنا، وفى موعدنا العاطفى الأول أوضحتْ بما فيه الكفاية أنها غير

مستعدة للارتباط والزواج قبل فترة طويلة جدًا من العمل والاستقلال، ولكنها لم تأخذ بعين الاعتبار موهبتى الوحيدة تقريبًا، ألا وهى المثابرة. وبعد أن تقدمت لخطبتها للمرة التاسعة على التوالى استسلمت أخيرًا، وتزوجت من كارول بعد تخرجها وتأهلها للعمل ببضعة شهور.

انطلق بوب على الاتجاه المعاكس تمامًا لاتجاهنا. فكلما دعوناه لتناول العشاء كان يصطحب معه رفيقة جديدة. كنت أخلط بين أسمائهن أحيانًا، وهو خطأ لم تقع فيه كارول بالمرة. وعلى الرغم من ذلك، ومع مرور الأعوام، ضعفت شهية بوب ونال الزمن من إقباله على تجربة مذاقات جديدة وأطباق مختلفة من قائمة أصناف النساء، عكس ما كان عليه فى عهد الدراسة؛ فعلى كل حال لقد احتفلنا بعيد ميلادنا الأربعين مؤخرًا. ولم يعد لذكرى فوزه بلقب أكثر الشباب جاذبية وهو فى ثوب التلميذ أى معنى أو جدوى له الآن، حتى بعد أن أسس أنجح عيادة خاصة فى لندن كلها. كان يسكن فى شقة متعددة الغرف فى هارلى ستريت، لا يرضخ تحت أى عبء من أعباء الزواج، ولكن بدا أن ذلك كله قد وصل لخط النهاية الآن.

دعانى بوب أنا وزوجتى كارول لننضم إليه على العشاء لكى يقدم لنا فيونا، التى وصفها باعتبارها المرأة التى نوى أن يقضى معها ما تبقى من حياته، وهنا ساورتنا الدهشة وغمرنا السرور، كما أننا أيضًا أصبنا بشىء من الارتباك لأننا لم نستطع تذكر اسم آخر صديقة له، ولكننا على الأقل كنا متأكدين من أن اسمها لم يكن فيونا.

حين وصلنا إلى المطعم رأيناهما يجلسان بركن قصى بالقاعة، تتشابك أصابع أيديهما. نهض بوب لتحيتنا وعلى الفور قدم لنا فيونا باعتبارها أروع امرأة فى العالم، ولكى أوفى المرأة حقها، علىَّ أن أقول إن أى رجل جدير بهذا اللقب يراها لا يمكنه إنكار محاسنها الجسدية، فلابد أن طولها يتراوح من

خمس إلى ثمانى أقدام، ويبلغ طول ساقها ثلاثين بوصة، وقد كان جسدها ممشوقًا بعد أن ضبطت معاييره صالة الألعاب الرياضية، ثم اكتملت مفاتنه بحمية طعام معتمدة على أوراق الخس الأخضر والماء القراح وحسب.

كان حديثنا أثناء الطعام محدودًا إلى حد كبير، من ناحية لأن بوب قضى معظم الوقت يتفرس فى فيونا بطريقة لا ننظر بها حتى إلى أروع النساء التى رسمها دوناتيللو أو نحتها فى تماثيل. وعند نهاية العشاء، كنت قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن فيونا سوف تكلف صاحبى ما لا يطيق، ولا يعود هذا فقط لأنها قرأت قائمة المشروبات من الأغلى بالأسفل إلىّ الأرخص بالأعلى، ولا لأنها طلبت كافيارًا كطبق فاتح للشهية، ولا لأنها طلبت، بابتسامة معسولة، أن يضع قطع الفطر والكمأ على وجه طبق المكرونة الخاص بها.



بكل صراحة، كانت فيونا من نوعية الشقراوات طويلات السيقان التى يتمنى الرجل منا أن يصادفها وهو يسهر وحده فى مشرب أحد الفنادق، وهو مسافر برحلة عمل ويفضل أن يكون هذا بقارة أخرى غير القارة التى يعيش بها. إننى غير قادر على تحديد عمرها، ولكننى علمت خلال تناول العشاء أنها كانت قد تزوجت ثلاث مرات قبل أن تلتقى بصديقى بوب. وعلى الرغم من هذا، فقد أكدت لنا أنها قد عثرت أخيرًا على الرجل المناسب.

كنت سعيدًا كل السعادة بمغادرتى المطعم تلك الليلة، كما سبق أن لاحظتم؛ فلم أكد أضيع أى وقت لإعلام زوجتى بوجهة نظرى بشأن فيونا.

عقد الزفاف بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر فى مكتب تشيلسى للتوثيق بـ كنجز رود. لم يحضر المراسم إلا أصدقاء بوب من مستشفى سانت توماس وجامعة جايز- وبعض منهم لم تقع عيناى عليهم منذ أيام مباريات الرجبى. وجدت أنه من غير الحكمة أن أشير لـ "بوب" أن فيونا لا يبدو أنها تتمتع بالعديد من الصداقات، أو أنها على الأقل لا تملك أصدقاء مستعدين لحضور أحدث زواج لها.

وقفت صامتًا بجانب بوب بينما يتلو الموظف الموثق الكلمات المعهودة: "لو أن أى شخص يمكنه أن يظهر مبررًا قانونيًا يمنع هذين الشخصين من الارتباط بميثاق الزواج، فليعلن ذلك المبرر لى الآن".

أردت أن أقدم مبررًا، غير أن كارول كانت شديدة القرب منى بحيث أحجم عن تلك المجازفة. لابد أن أعترف أن فيونا بدت متألقة فى ذلك اليوم، تمامًا مثل حية بجرسين على وشك أن تلتهم حملاً تأتى عليه عن آخره.

أقيم حفل الاستقبال فى لوسيز بـ "فولهام رود"، ولو أننى لم أكن متعبًا ليلتها لكان الخطاب الذى ألقيته على الضيوف أكثر تماسكًا ووضوحًا، أو ربما كان يعوزنى تصديق الكلمات التى تفوهت بها.

حين جلست بعد أن أنهيت كلمتى لأستمتع بالتصفيق الحار، لم تنحن كارول علىَّ لتهنئنى على بلاغتى وفصاحتى. لقد تجنبتها إلى أن تجمعنا كلنا على الرصيف الخارجى لتوديع العريس والعروس أمام المطعم. لوح بوب وفيونا تلويحة الوداع قبل أن يدخلا إلى العربة الليموزين البيضاء التى ستقلهما إلى مطار هيثرو، ومن هناك يأخذان طائرة إلى آكابولكو؛ حيث سيقضيان شهر عسل لمدة ثلاثة أسابيع. لم يكن كل من الانتقال إلى مطار هيثرو، وهو ما أفسد حفل الزفاف فى وقت مبكر للغاية، ولا المكان المقصود لقضاء شهر العسل، خيارًا مفضلاً لصديقى بوب. وهى معلومة لم أطلع كارول عليها؛ لأنها كانت سوف تتهمنى دون شك بالتحامل ـ ولعلها تكون محقة فى اتهامها ذلك.

خلال ذلك العام الأول من الزواج لا أستطيع أن أدعى أننى رأيت فيونا مرات كثيرة، على الرغم من أن بوب كان يتصل بى بين الحين والآخر، ولكنه يتصل فقط من العيادة فى هارلى ستريت. بل وكنا نتدبر أمرنا أحيانًا للالتقاء لتناول غداء سريع، لكنه لم يعد قادرًا على لقائى من أجل مباراة الاسكواش فى المساء.

لم ينس بوب أبدًا أثناء تناولنا لوجبات الغداء أن ينوه بمحاسن زوجته الرائعة، كما لو أنه كان يعلم تمام العلم موقفى من شريكة حياته ـ مع أننى لم أعرب عن مشاعرى الحقيقية تجاهها فى أى مناسبة، وأظن أن هذا كان سبب عدم دعوتى أنا وزوجتى كارول أبدًا لتناول العشاء فى منزلهما،

وكلما طلبنا منهما الانضمام إلينا على العشاء، كان بوب يقدم أعذارًا غير مقنعة من قبيل اضطراره لزيارة مريض، أو سفره خارج المدينة فى تلك الأمسية ذاتها.

كان التغير طفيفًا ولطيفًا فى البداية، بل لا يكاد يدرك بالعين المجردة. صارت وجبات الغداء التى أتناولها معه أكثر انتظامًا، بل ونجح من جديد فى حضور كل مباريات الاسكواش الليلية، وربما الأمر الأكثر وضوحًا هو الإشارات التى راحت تقل على لسانه بالتدريج عن فيونا وخصالها الحميدة.

ما إن توفيت عمة بوب، الآنسة موريل، حتى صار التغير واضحًا جليًا. وللأمانة لم أكن أدرك أصلاً أن بوب له عمة، ناهيك عن أنها عمة تملك شركة بمبلتون إلكترونيكس ووريثها الوحيد هو بوب.

أعلنت مجلة التايمز أن الآنسة موريل قد تركت وراءها ثروة تزيد بقليل على المليون جنيه فى صورة أسهم وممتلكات، جنبًا إلى جنب مجموعة مقتنيات فنية ثمينة، وباستثناء بضع وصايا ثانوية أوصت بها للمؤسسات الخيرية، كان ابن أخيها هو المنتفع الأوحد بثروتها. وبارك الله فيه من إنسان؛ لأن كل تلك الثروة التى هبطت عليه من السماء لم تنجح فى تغيير بوب بأى صورة؛ غير أن القول نفسه لا يصدق على فيونا.

عندما اتصلت بصديقى بوب لتهنئته على حظه السعيد، بدت فى صوته نبرة إحباط. سألنى إن كان من الممكن أن أنضم له لتناول طعام الغداء؛ لأنه فى حاجة لنصيحتى فى مسألة شخصية.

التقينا بعدها بنحو ساعتين، فى مطعم جاسترو قريبًا من ميدان ديفونشاير. لم يتحدث بوب عن أى شىء ذى بال إلا بعد أن أخذ النادل طلباتنا، ولكن ما إن تم تقديم الصنف الأول لنا،

لم يعد على قائمة المطعم إلا سيرة فيونا زوجته كطبق أوحد وحيد. لقد تلقى هذا الصباح نفسه رسالة من مكتب المحاماة آبوت كرومبيه وشركاه، لإعلامه بصيغ غامضة أن زوجته ترفع عليه قضية طلاق.

فقلت دون مراعاة لأى لباقة: "لقد أحسنت اختيار التوقيت".

قال بوب: "ولم ألحظ ذلك!".

كررت كلامه: "تلحظ ذلك؟ تلحظ ماذا؟".

"ألحظ كيف تغير موقف فيونا منى بعد وقت قصير من لقائها بعمتى موريل. ففى الحقيقة، إنها فى الليلة نفسها نجحت فى أن تسحرنى بها وتأسرنى تمامًا".

ذكرت بوب بما قاله المخرج والممثل وودى آلان فى هذا الصدد؛ فقد قال إنه لا يفهم كيف يمتلك الرجل منا عقلاً وغريزة فى الحين نفسه، دون أن يكون لديه القدرة على استعمال الاثنين فى الحين نفسه. ضحك بوب للمرة الأولى فى ذلك اليوم، ولكن ما هى إلا دقائق قبل أن يعود من جديد إلى صمته المشحون بالحزن.

سألته: "هل هناك أى شىء يمكننى القيام به لمساعدتك؟".

أجاب بوب: "فقط إن كنت تعرف اسم محامى طلاق من الطراز الأول؛ لأنهم أخبرونى بأن السيدة آبوت تلك لها سمعة شهيرة فى اعتصار آخر قطرة دم من الخصوم لصالح موكليها، وخصوصًا بعد آخر تعديلات فى قوانين الطلاق".

أجبته قائلاً: "لا أظن أننى أعرف محاميًا من هذا النوع، بما أننى متزوج زواجًا سعيدًا منذ ستة عشر عامًا. أخشى أننى الشخص غير المناسب لنصحك. لماذا لا تتحدث إلى بيتر ميتشل؟ فعلى كل، وبعد أربع زيجات سابقة، لابد أنه قادر على إخبارك بأفضل محام يمكن الوصول إليه".



أقر بوب قائلاً: "لقد اتصلت به ما إن صحوت من نومى هذا الصباح، لقد كان دائمًا يوكل السيدة آبوت كمحامية له - وقد أخبرنى أنه يحتفظ بتوكيل دائم لها؛ بحيث لا تستولى عليها أى واحدة من زوجاته القادمات".

خلال الأسابيع القليلة التالية، عدت أنا وبوب إلى مباريات الاسكواش المنتظمة، وبدأت أنجح فى التغلب عليه للمرة الأولى. وبعد ذلك صار ينضم إلى أنا وكارول على العشاء. حاولنا أن نبتعد بالحديث عن أى شىء يتعلق بـ فيونا. وعلى الرغم من ذلك، فلم يمنع نفسه من إخبارنا بأنها لا تود أن تغادر الحلبة بسلام؛ حتى بعد أن عرض عليها أن تنال نصف ما تركته عمته.

وإذ امتدت الأسابيع لتصبح شهورًا، بدأ بوب يفقد وزنه وتسلل الشيب إلى خصلاته الذهبية. أما فيونا، فعلى الجانب

الآخـر، كانـت تبـدو أنها تزداد صحـة وقوة، وتتجـاوز كل حاجز يظهـر أمامهـا مثل جـواد أصيل فى شرخ شبابـه. وما رجح كفة فيونـا، أنها كانت بكل وضوح تـدرك المدى الطويل للعبة، وكيف لا وهـى تملك ميزة تجربة ثلاثة انتصارات سابقة، فى المضمار نفسه، وبدا أنها تتطلع إلى نصرها الرابع بكل تأكيد.

لابـد أن عامًـا تقريبًا قد انصرم قبل أن توافق فيونا أخيرًا على التوصـل لتسوية، دون الوقـوف أمام القضـاء. كل ممتلكات بوب سـوف تقسم بالتسـاوى بينهمـا إضافة لتحمل بـوب لمصاريفها القانونية، وتم تحديد موعد للتوقيع الرسمى على هذا بإحدى قاعـات المحكمـة. وافقت علـى أن أحضر وأوقـع الاتفاق كشاهد، وأن أقدم لـ بوب الدعم النفسى الذى يحتاج إليه أمس الحاجة؛ وذلك على حد تعبير زوجتى كارول.

ولكن لم يتسنَّ لى أن أرفع غطاء قلمى لأوقع بالمرة؛ ذلك أن فيونـا قـد انخرطت فى نوبة بكاء ونحيب، قبـل أن تقرأ السيدة آبـوت محاميتهـا بنود الاتفاق بوقـت طويل، وأعلنـت أنها تلقت معاملـة قاسيـة من بوب وأنه سبب لها انهيـارًا عصبيًا حادًا، ثم انتفضت وغادرت المكتب متعثرة الخطوات دون أى كلمة أخرى. لابـد أن أعـترف أننـى لم يسبـق لى رؤيـة فيونـا فـى حالـة أقل توتـرًا. بـل إن السيدة آبوت نفسها جاهـدت لكى تخفى سخطها من موكلتها.

وَكَّل بـوب محاميًـا اسمه هارى دكسـتر، والذى حذره قائلاً بأنـه غالبًـا سيخوض معركـة قضائيـة طويلـة ومكلفـة إن لم يوافـق علـى التسوية، وأضـاف السيد دكسـتر أن القضاة كثيرًا مـا يأمـرون الطـرف المدعـى عليـه بتحمـل مصاريـف الطـرف المتضـرر. هـز بوب منكبيـه لامباليًا، ولم يهتم حتـى بالرد على هذا الكلام.

ما إن قَبل الجانبان حقيقة أنه من غير الممكن التوصل لتسوية خارج المَحكمة، تم تحديد يوم فى الأوراق الرسمية القضائية لنظر الدعوى.

كان السيد دكستر عاقدًا عزمه على مواجهة مطالب فيونا الشائنة بقدر مساو من المقاومة الصلبة، وأن يبدأ بإقناع بوب بمطاوعة جميع توصياته. ولكن مع كل مطلب جديد من الطرف الخصم، كان عزم بوب يضعف ويلين مثل ملاكم يترنح من وقع اللكمة؛ حتى إنه كان مستعدًا للتخلى عن كل شىء وإعلان هزيمته فى الحلبة، وكلما اقترب موعد نظر الدعوى كان يزداد إحباطه ويأسه شيئًا فشيئًا ، بل وراح يقول: "لم لا أقدم لها كل شىء على طبق من فضة، إن كانت هذه هى الطريقة الوحيدة لإشباعها؟". حاولت أنا وكارول أن نرفع من معنوياته، دون أن نحرز نجاحًا كبيرًا فى هذا، وحتى السيد دكستر كان يواجه صعوبة متزايدة فى إقناع عميله بأن يثبت ويقاوم.

أكد كل منا لـ بوب أننا سوف نكون فى المحكمة لساندته فى اليوم المحدد لنظر الدعوى.

وقفت مع كارول فى الرواق رقم ثلاثة لمبنى المحكمة، وهو الخاص بقسم قضايا تقسيم الممتلكات بعد الطلاق، وذلك يوم الخميس المتمم لشهر يونيه، وانتظرنا بدء الإجراءات. قبل العاشرة تمامًا بعشر دقائق بدأ الموظفون الرسميون فى الظهور واتخاذ أماكنهم. بعدها بدقائق جاءت السيدة آبوت، وإلى جانبها فيونا. حدقت نحو المدعية التى وصلت مرتدية حلة نسائية سوداء دون أى حلى، وهو مظهر يليق بجنازة - لعلها جنازة صديقى بوب.

ما هى إلا دقائق حتى ظهر السيد دكستر ثم ظهر بوب فى أعقابه. اتخذا مكانهما على المنضدة المقابلة لمنصة القاضى.

عندمـا دقـت السـاعة تمـام العاشرة تحققت أسـوأ مخاوفى. دخلـت القاضيـة إلى القاعـة ـ وهـى امرأة أعـادت لذاكرتى على الفـور ذكـرى ناظرة مدرستـى القديمة ـ كأنهـا حارسة صارمة لا تـرى علـى الإطـلاق أن العقـاب لابـد أن يتناسب مـع الجرم. اتخـذت القاضيـة مجلسهـا علـى المنصـة وابتسمـت فـى وجـه السيـدة آبـوت. أغلـب الظن أنهمـا كانتا زميلتين فـى الجامعة. نهضـت السيدة آبوت من مكانهـا وردت الابتسامة للقاضية، ثم شرعـت فى خوض معركتها للاستيلاء على كل صغيرة وكبيـرة مـن ممتلكات صديقـى بوب، إلى درجة التجـادل حول من يحق له امتـلاك مجموعة أزرار أكمام القمصان التذكارية من فتـرة دراستـه، بدعـوى أنهما كانا قـد اتفقا على تقاسـم كل ممتلكات السيـد رادفورد بينهمـا بالتساوى، وهكذا فـإن كان له الحق فى أحد الأزرار فإنها تستحق الزر المكمل له.

ومـع مـرور كل ساعـة كانـت مطالب فيونـا تـزداد وتتوسع. فكمـا فسرت السيدة آبـوت، على كل حال ألم تتخل موكلتها عن حياتهـا الهنيئة والمجزية ماديًا فى أمريكا، بما فى ذلك مشروع تجـارى عائلـى منتعش ـ وهو الشىء الـذى لم أسمعه يقال من قبـل ــ مـن أجـل أن تكرس نفسهـا لزوجها؟ فقـط لتكتشف أنه نـادرًا مـا يعود إلى البيـت فى المساء قبل السـاعـة الثامنة، وذلك فقط بعد أن يخرج مع أصدقائه ليلعب الاسكواش، وعندما كان يظهـر أخيرًا فى البيت ـ توقفت السيدة آبوت ـ يكون ثملاً، ولا يرغـب فـى تناول الوجبـة التى قضـت زوجته المخلصـة ساعات فـى إعدادهـا مـن أجله ــ توقفت من جديـد ـ وعندمـا يذهبان للفراش فيمـا بعـد، سرعـان مـا يستغـرق فـى النوم مـن تأثيـر الشـراب. نهضـت مـن موضعـى فـى الـرواق لأعترض، ولكـن الحاجـب أمرنـى بالجلوس وإلا سيطلـب منى أن أغـادر القاعة على الفور. جذبتنى كارول من سترتى بشدة لأجلس.

أخيرًا انتهت مطالب السيدة آبوت، مع اقتراح بأن تمتلك موكلتها منزلهما الريفي (أي منزل العمة موريل)، وأن يُسمح لـ بوب بالاحتفاظ بشقته التي تقع في لندن؛ وأن من حق موكلتها أن تمتلك الفيلا التي تقع في مدينة كان بفرنسا (فيلا العمة موريل) بينما يحتفظ بوب بعيادته في شارع هيرلي (وهي مستأجرة). وجهت السيدة آبوت أخيرًا انتباهها نحو المجموعة الفنية للعمة موريل، والتي ارتأت أيضًا أنه يجب تقاسمها بالتساوي؛ موكلتها تأخذ لوحة مونيه، بينما يحتفظ هو بلوحة مانجوين. موكلتها تنال لوحة بيكاسو، بينما يحتفظ هو بلوحة بازموري؛ هي تأخذ بيكون، إلى آخر القائمة. وحين عادت السيدة آبوت للجلوس أخيرًا اقترحت السيدة باتلر القاضية أن يأخذوا استراحة غداء.

خلال وجبة الغداء التي لم يقرب منها أحد، حاولت أنا والسيد دكستر وكارول إقناع بوب بأن عليه أن يقاتل ويرد الهجوم، عبثًا حاولنا ذلك، ولكنه لم يعرنا أذنًا.

أصر بوب على موقفه قائلاً: "لو أنني استطعت الاحتفاظ بكل ما كنت أمتلكه قبل أن تموت عمتي سيكون هذا كافيًا بالنسبة لي".

لكن السيد دكستر شعر بأنه يمكنه أن يحقق ما هو أفضل من ذلك بكثير ولا شك، لكن بوب لم يبد أي اهتمام بخوض معركة.

وأمر محاميه قائلاً: "دعنا ننته من الأمر وكفى، حاول أن تتذكر أنني من سيدفع أتعاب محاميتها، التي تزيد كل يوم بعد آخر".

حين رجعنا إلى قاعة المحكمة في الساعة الثانية تمامًا من ذلك الأصيل، أولت القاضية انتباهها لمحامي بوب. سألت القاضية باتلر: "وماذا لديك لتقوله حول هذا كله يا سيد دكستر؟".

فأجاب بتنهيـدة حانقة: "إننا راضون عن المضى فى تقسيم الممتلكات على النحو الذى اقترحته السيدة آبوت".

كـررت القاضيـة قولـه دون تصديق: "هل أنتـم راضون عن تقسيـم الممتلـكات علـى نحو ما أوصت بـه السيدة آبـوت يا سيد دكستر؟".

ومرة أخرى نظر السيد دكستر نحو بوب، الذى أومأ برأسه موافقًا بكل بساطة.

قالـت القاضيـة السيـدة باتلـر، وهـى عاجـزة عـن إخفـاء دهشتها: "إذن ليكن هذا".

كانـت علـى وشـك أن تصـدر حكمهـا، حـين انهـارت فيونـا وشرعـت تبكى بـكاء حارًا. مالت نحو الأمـام وهمست بشىء فى أذن محاميتها السيدة آبوت.

قالـت القاضية باتلر، متجاهلة دموع المدعية: "سيدة آبوت، هل أصدق على هذه التسوية؟".

فقالـت السيدة آبوت وهى تنهض مـن مكانها ويظهر عليها الحرج بطريقـة مـا: "يبـدو أن ذلك غيـر ممكن بعـد. يبدو أن موكلتـى مازالـت تشعـر بـأن هـذه التسويـة فـى صالـح المدعـى عليه".

قالـت السيدة القاضية باتلـر وهى تلتفت نحو فيونا: "أهى تشعـر بذلـك حقًـا؟". مست السيـدة آبوت كتـف موكلتها بيدها وهمسـت بشـىء فـى أذنهـا. نهضـت فيونـا علـى الفـور، وظلـت محنية الرأس بينما تتحدث القاضية.

بـدأت القاضيـة تتحـدث ناظرة نحـو فيونا، قالـت: "سيدة رادفورد، هل أفهم من هذا أنك لست راضية بعد بالتسوية التى ضمنتها لك محاميتك؟ ".

أومأت فيونا برأسها فى احتشام.

"إذن فسوف أقترح اقتراحًا أرجو أن يصل بهذه القضية إلى نتيجـة سريعة". تطلعت فيونا نحوهـا وابتسمت لها ابتسامتها

المعسولة، فيما غاص بوب فى مقعده يأسًا.

"لعله سيكون من الأسهل عليك يا سيدة رادفورد إذا قمت بوضع قائمتين لتأخذهما المحكمة بعين الاعتبار، قائمتين ترين أنهما يقتسمان ممتلكات زوجك قسمة عادلة ومساوية، فما رأيك؟".

قالت فيونا بمهادنة: "يسرنى أن أقوم بهذا يا سيدتى القاضية".

سألت القاضية السيدة باتلر وهى تعود للالتفات نحو محامى بوب: "هل يحظى اقتراحى بموافقة موكلك يا سيد دكستر؟".

قال السيد دكستر وهو يحاول ألا يظهر نقمته: "نعم يا سيدتى".

"هل لى أن أتخذ هذا الإجراء بناء على توجيهات موكلك مباشرة؟".

نظر السيد دكستر نحو بوب، الذى لم يتجشم حتى عناء إبداء رأى.

ثم أولت القاضية انتباهها من جديد نحو محامية فيونا: "وأنت يا سيدة آبوت، أريد منك كلمة فاصلة تعدنى بأن موكلتك لن تتراجع عن تلك التسوية هذه المرة".

أجابت محامية فيونا: "أستطيع أن أؤكد لك أيتها القاضية أنها ستذعن لحكمك هذه المرة".

قالت القاضية السيدة باتلر: "إذن ليكن هذا، سوف نفض الجلسة حتى صباح الغد فى العاشرة تمامًا؛ وسوف أنظر فى القائمتين اللتين ستتقدم بهما السيدة رادفورد".

***

اصطحبت بوب أنا وكارول لتناول العشاء بالخارج تلك الليلة، كانت محاولة يائسة؛ فبالكاد فتح فمه سواء ليأكل أو ليتحدث.

تكلم أخيرًا ونحن نحتسى القهوة: "دعوها تأخذ كل شىء؛ لأن هذا هو السبيل الوحيد لكى أتخلص من تلك المرأة".

"لكن عمتك لو عرفت أن هذا سيكون مآل ثروتها لما تركتها لك".

أجاب بوب فى تسليم: "لا أنا ولا العمة موريل اكتشفنا هذا الأمر، ولا يمكن للمرء أن يتجاهل دقة توقيت فيونا. فلم تكن بحاجة إلا لشهر واحد بعد لقائها بعمتى العزيزة قبل أن توافق على عرض الزواج". التفت بوب نحوى وتفرس فى عينى وسألنى: "لماذا لم تحذرنى من الزواج منها؟".

عندما دخلت القاضية إلى القاعة فى الصباح التالى كان جميع الموظفين الرسميين فى أماكنهم من قبل. كل محامٍ جلس إلى جوار موكله. وقف جميع الحضور بالقاعة وانحنوا للسيدة القاضية بينما تتخذ مجلسها، داعية السيدة آبوت فقط للاقتراب منها.

سألت القاضية السيدة آبوت وهى تتفرس فيها: "هل كان لدى موكلتك الوقت الكافى لكى تعد القائمتين؟".

قالت السيدة آبوت: "هذا صحيح يا سيدتى القاضية، والقائمتان جاهزتان لتفحصيهما".

أومأت القاضية نحو حاجب المحكمة، فسار ببطء نحو السيدة آبوت، التى سلمته القائمتين، ثم سار الحاجب عائدًا إلى المنصة ورفع القائمتين إلى القاضية لتفحصهما.

أخذت القاضية السيدة باتلر وقتها الكافى فى دراسة القائمتين، وراحت تومئ برأسها بين الحين والآخر، بل وتصرح بصوت تعجب من قبيل "أوه"، بينما وقفت السيدة آبوت على قدميها. ما إن وصلت القاضية لآخر بنود القائمتين، حتى أولت انتباهها من جديد إلى مائدة المحامين.

سألت السيدة القاضية: "هل أفهم من ذلك أن الطرفين يعتبران هذا التوزيع لجميع الممتلكات المقصودة عادلاً ومتساويًا؟".

قالت السيدة آبوت بحزم نيابة عن موكلتها: "نعم يا سيدتى".

"أفهم ذلك". هكذا قالت القاضية ثم التفتت نحو السيد دكستر وسألته: "هل هذا أيضًا يلقى موافقة موكلك؟".

تردد السيد دكستر، ثم نجح أخيرًا فى أن يقول: "نعم يا سيدتى"، وكان غير قادر على إخفاء نبرة التهكم والحسرة فى صوته.

"إذن ليكن هذا". ابتسمت فيونا لأول مرة منذ بداية الدعوى. ابتسمت لها القاضية ردًا على ابتسامتها، ثم واصلت قائلة: "وعلى الرغم من ذلك، وقبل النطق بالحكم مازال لدى سؤال واحد للسيد رادفورد". ألقى بوب نظرة سريعة على محاميه قبل أن ينهض مترددا من مقعده، ثم رفع بصره نحو القاضية.

ما الذى تريده أكثر من هذا؟ كانت هذه هى الفكرة الوحيدة التى خطرت لى بينما كنت أجلس محدقًا من مكانى فى الرواق.

بدأت القاضية تقول: "سيد رادفورد، لقد سمعنا جميعًا من زوجتك أنها تعتبر هاتين القائمتين قسمة عادلة ومتساوية لممتلكاتك".

أحنى بوب رأسه وبقى صامتًا.

"ومع ذلك، وقبل أن أصدر حكمى؛ أحتاج لأن أتأكد من أنك تتفق مع هذا القول".

رفع بوب رأسه. بدا عليه شىء من التردد للحظة، لكنه قال: "إننى موافق يا سيدتى القاضية".

أعلنـت القاضيــة السيدة باتلر: "إذن فلم يبقَ لى أى خيار". توقفـت قليـلاً ، ونظـرت مباشرة نحـو فيونا التـى كانت لا تزال تبتســم. واصلـت القاضيــة تقـول: "بمــا أننــى أعطيـت للسيدة رادفورد الفرصة لإعداد هاتين القائمتين واللتين تراهما قسمة عادلـة ومنصفـة ومتساوية لممتلكاتك ـ "، سـرت القاضية باتلر وهـى ترى أن فيونـا تومئ بالموافقة على كلامهـا. "إذن سيكون من العدل والإنصاف أيضًا أن ــــ "، هكذا راحت القاضية تضيف وهى تتوجه بنظرها نحو بوب: "أمنح السيد بوب الفرصة لكى يتخير أى القائمتين يفضل أن ينالها".

أتفهم مقصدي؟



قال دوج: "إذا أردت أن تكتشف كل ما يجرى بالسجن، فأنا الشخص المناسب لتتحدث معه، أتفهم مقصدى؟".

كل سجن به شخص على هذه الشاكلة. فى سجن معسكر نورث سى، كان هذا الشخص يسمى دوج هازلت. كان طول دوج أقل من ست أقدام بنصف البوصة، وكان له شعر كثيف أسود وقد خط الشيب فوديه، وتدلت بطنه فوق سرواله. كانت فكرة دوج عن التمرن لا تتعدى المشى من المكتبة ـ حيث كان يعمل أمينًا لها، حتى المقصف والذى لا يبعد أكثر من مائة ياردة؛ وذلك لثلاث مرات يوميًا. أعتقد أنه كان يمرن عقله فى الحدود البسيطة ذاتها.

لم يلزمنى وقت طويل حتى أتبين أنه كان ذكيًا ولئيمًا ومخاتلاً وكسولاً ـ وهى صفات غير نادرة بين أصحاب السوابق. وفى غضون أيام من وصوله إلى سجن جديد، كان بمقدور دوج أن يكفل لنفسه ثيابًا جديدة الصنع، وأفضل زنزانة، وأعلى الأعمال أجرًا، بل وأن يكتشف أى المساجين والأهم أى الضباط يحتاج لكسبهم إلى صفه.

بما أننى قضيت كثيرًا من وقت فراغى بالمكتبة ـ وهى نادرًا ما تكون ممتلئة بالرواد، على الرغم من أن عدد نزلاء السجن تجاوز الأربعمائة سجين ـ فسرعان ما أطلعنى دوج على تاريخ قضيته. عندما كان السجناء يكتشفون أننى كاتب، فإن منهم من كان يلزم الصمت على الفور، والبعض الآخر على العكس لم يكن يتوقف عن الكلام، وقد كان دوج من هذا النوع الأخير، بالرغم من إشارات توخى الهدوء المعلقة على جميع جدران مكتبة السجن.

حين تسرب دوج من التعليم المدرسى فى عمر السابعة عشرة، كان الاختبار الوحيد الذى نجح به هو اختبار القيادة ـ ومن المرة الأولى. بعدها بأربعة أعوام أضاف إلى مؤهلاته رخصة قيادة شاحنات البضائع الثقيلة، وحصل فى الحين نفسه على وظيفته الأولى كسائق شاحنة.

سرعان ما واجه دوج واقع الحياة بلا أوهام خيالية عندما اكتشف النقود القليلة التى يمكن له أن يكسبها فى رحلاته ما بين جنوب فرنسا محملاً الشاحنة بالملفوف والبازلاء، وكثيرًا ما كان يعود إلى سليفورد بشاحنة خاوية وبالتالى دون أجر إضافى. كان دوج، وحسب تعبيره غالبًا ما يخلط الأمور عندما يتعلق الأمر بقوانين الاتحاد الأوربى، ويتخذ وجهة نظر من أعفى من دفع الضرائب بطريقة أو بأخرى. كان يلقى باللوم على الفرنسيين بسبب الكثير من الإجراءات الروتينية غير الضرورية وعلى حكومة حزب العمل بسبب الضرائب التأديبية، وعندما حكمت المحكمة أخيرًا بإلزامه بأن يدفع ما عليه من دين أو الحبس فورًا، كان اللوم يقع على عاتق كل الجهات والأشخاص عدا دوج نفسه.

وضع مأمور تنفيذ الأحكام يده على جميع ممتلكات دوج ـ عدا الشاحنة التى كان لا يزال يسدد أقساط شرائها.



كان دوج على وشك أن يترك عمله كسائق شاحنة وينضم إلى طابور مستحقى إعانة البطالة ـ وهى طريقة مربحة للعيش؛ فليس عليك حتى أن تنهض باكرًا فى الصباح ـ عندما اعترض طريقه رجل لم يسبق له أن رآه من قبل، أثناء توقفه

حين تسرب دوج من التعليم المدرسى فى عمر السابعة عشرة، كان الاختبار الوحيد الذى نجح به هو اختبار القيادة ـ ومن المرة الأولى. بعدها بأربعة أعوام أضاف إلى مؤهلاته رخصة قيادة شاحنات البضائع الثقيلة، وحصل فى الحين نفسه على وظيفته الأولى كسائق شاحنة.

سرعان ما واجه دوج واقع الحياة بلا أوهام خيالية عندما اكتشف النقود القليلة التى يمكن له أن يكسبها فى رحلاته ما بين جنوب فرنسا محملاً الشاحنة بالملفوف والبازلاء، وكثيرًا ما كان يعود إلى سليفورد بشاحنة خاوية وبالتالى دون أجر إضافى. كان دوج، وحسب تعبيره غالبًا ما يخلط الأمور عندما يتعلق الأمر بقوانين الاتحاد الأوربى، ويتخذ وجهة نظر من أعفى من دفع الضرائب بطريقة أو بأخرى. كان يلقى باللوم على الفرنسيين بسبب الكثير من الإجراءات الروتينية غير الضرورية وعلى حكومة حزب العمل بسبب الضرائب التأديبية، وعندما حكمت المحكمة أخيرًا بإلزامه بأن يدفع ما عليه من دين أو الحبس فورًا، كان اللوم يقع على عاتق كل الجهات والأشخاص عدا دوج نفسه.

وضع مأمور تنفيذ الأحكام يده على جميع ممتلكات دوج ـ عدا الشاحنة التى كان لا يزال يسدد أقساط شرائها.



كان دوج على وشك أن يترك عمله كسائق شاحنة وينضم إلى طابور مستحقى إعانة البطالة ـ وهى طريقة مربحة للعيش؛ فليس عليك حتى أن تنهض باكرًا فى الصباح ـ عندما اعترض طريقه رجل لم يسبق له أن رآه من قبل، أثناء توقفه

على مدى الشهر التالى بدأ فى مشاهدة عقارات عديدة فى سليفورد، برفقة سيدة شابة من إحدى وكالات العقارات المحلية. كانت سالى ماكنزى تتساءل فى حيرة كيف يمكن لسائق شاحنة أن يؤمن ثمن العقارات التى تعرضها عليه.

استقر دوج فى النهاية على منزل ريفى صغير فى ضواحى سليفورد. واندهشت سالى عندما دفع الوديعة المطلوبة نقدًا، وزادت دهشتها عندما طلب منها أن يلتقيا.

استمرت لقاءات سالى ودوج وتوطدت علاقتهما خلال الأشهر الستة التالية، على الرغم من أنها لم تتخلص من قلقها حيالَ الطريقة التى يجنى بها دوج كل هذا المال.

تسببت ثروة دوج المفاجئة فى مشكلات أخرى لم يكن يتوقعها. فما الذى يمكن له أن يفعله بمبلغ ٢٥ ألف جنيه كل أسبوع، مع عدم قدرته على إيداعه فى حساب بنكى، أو أن يدفع شيكًا شهريًا لإحدى جمعيات بناء المساكن؟ استبدل بشقة البدروم فى هينتون رود منزلاً ريفيًا فى الضواحى. وحل محل الشاحنة القديمة المستعملة ذات الرافعة المشعبة شاحنة أخرى من ماركة مرسيدس ذات الستة عشر إطارًا. أما إجازته السنوية التى كان يقضيها فى الفراش مع تناول إفطاره فى مطعم بلاك بول فقد ارتقت لتصير فى فيلا مستأجرة فى آلجرافى. فالبرتغاليون يربحون بأى تدفق نقدى بغض النظر عن العملة.

فى رحلة دوج الثانية إلى آلجراف خلال العام التالى، اصطحب معه سالى وهناك عرض عليها أن تتزوج منه وقدم لها خاتمًا مرصعًا بماسة فى حجم الجوزة، وهكذا سار دوج على النهج التقليدى لأى فتى محترم.

كان هناك الكثير من الناس، إلى جانب سالى، يتساءلون كيف يمكن لـ دوج أن يؤمن نمط معيشة مثل ذلك بدخل سنوى لا يزيد على الخمسة والعشرين ألفًا؟ أما الجواب الوحيد

الذى كان دوج يقدمه كلما طرحت عليه سالى هذا السؤال، فهو: "إنها نقود الأجر الإضافى نظرًا لعملى وقتًا إضافيًا" . ما فاجأ السيدة زوجته هو معرفتها بأنه لا يعمل أكثر من يومين فى الأسبوع، ولعلها ما كانت لتكتشف أبدًا حقيقة الأمر لولا أن شخصًا آخر دس أنفه فى الأمر.

إنه مارك كينان، ضابط مساعد شاب وطموح فى مصلحة جمارك المملكة المتحدة، الذى قرر أن الوقت قد حان ليكتشف على وجه التحديد ما الذى يورده دوج، بعد أن وشى له أحد المخبرين بأن الأمر لا يقتصر وحسب على الموز.

بينما كان دوج عائدًا من إحدى رحلاته الأسبوعية إلى مارسيليا، أوقفه السيد كينان وأمره بأن يتوقف بسيارته تحت سقيفة وحدة الجمارك. نزل دوج من كابينة القيادة وقدم أوراق عمله إلى الضابط. لم يذكر فى بيان البضاعة أى شىء سوى الموز: خمسون صندوقًا من الموز. أصدر الضابط الشاب أمره بفتح الصناديق واحدًا بعد الآخر، وعندما وصل إلى الصندوق السادس والثلاثين كان قد بدأ يتساءل ترى هل تبع خيطًا زائفًا بناء على معلومة خاطئة؛ وسرعان ما تبدد هذا التساؤل عندما فتح الصندوق رقم واحد وأربعين، والذى كان مكتظًا عن آخره بخراطيش السجائر ـ من أصناف المارلبورو، وبنزون آند هدج، وسيلك كات وبلايرز، وعندما كان الضابط كينان يفتح الصندوق الخمسين كان قد وضع قيمة تقديرية للبضائع المهربة بسعر بيعها فى السوق السوداء مبلغًا يتجاوز مائتى ألف.



" لم يكن لدىَّ أى فكرة عما تحتويه تلك الصناديق"، هكذا أكد

دوج لزوجته التى صدقته، وهكذا كرر القصة نفسها لفريق الدفاع عنه، الذين أرادوا أن يصدقوه، ثم أعادها للمرة الثالثة على مسامع هيئة المحلفين وهم من رفضوا تصديقه. قام فريق الدفاع عن دوج بتذكير القاضى بأنها السابقة الأولى للسيد هازلت وأن زوجته تنتظر ابنها الأول. ظل القاضى منصتًا فى صمت صخرى ثم أرسل دوج للسجن لمدة أربعة أعوام.

قضى دوج أسبوعه الأول فى سجن لنكولن مشدد الحراسة، ولكن ما إن أكمل استمارة الاستقراء كان هناك علامات أمام كل الخانات التالية: غير مدمن، لا حوادث عنيفة، لا سجل لسابقة إجرامية وبالتالى تم نقله على الفور إلى سجن مفتوح.

فى معسكر نورث سى، كان دوج كما سبق أن أشرت، اختير للعمل بالمكتبة. كانت البدائل تتمثل فى مزرعة المواشى، والمطبخ، والمخازن والمتاجر أو تنظيف المراحيض. سرعان ما تبين دوج أنه على الرغم من وجود أكثر من أربعمائة سجين فى السجن، فإنه كأمين مكتبة لا يتلقى إلا مبلغًا زهيدًا. لقد هبط دخله من مبلغ ٢٥ ألفًا فى الأسبوع إلى ١٢ جنيهًا ونصف، كان ينفق منها عشرة جنيهات على شراء بطاقات الهاتف بحيث يَبْقى على اتصال بزوجته الحبلى.

كان دوج يتصل بـ سالى مرتين أسبوعيًا ـ غير مسموح للسجناء بتلقى مكالمات فى السجن، ولكن يسمح لهم فقط بإجراء المكالمات ـ لكى يعدها مرارًا وتكرارًا بأنه ما إن يتم إطلاق سراحه فلن يتورط أبدًا فى أى شىء ضد القانون مرة أخرى، وكانت هذه الأنباء تطمئن قلب سالى.

وفى غياب دوج، كانت سالى لا تزال تحتفظ بعملها فى وكالة العقارات، على الرغم من حملها الثقيل، بل ونجحت كذلك فى تأجير الشاحنة الخاصة بـ "دوج" خلال الفترة التى سيقضيها بعيدًا. على الرغم من ذلك، فإن دوج لم يخبر زوجته بالقصة كاملة. بينما كان السجناء الآخرون يرسلون فى

طلب المجلات الإباحية والخفيفة من نوع *بلاى بوى*، أو ردير وايفز: *وذاصن*، كان دوج يتلقى *هاولاج ويكلى واكسشانج ومارت* لقراءاته الجانبية.

كان يتصفح مجلة هاولاج ويكلى حين وجد ما كان يبحث عنه بالضبط: سيارة لورى مستعملة بمقعد سائق على اليسار، حمولة أربعين طنًا، من نوع البيتربيت الأمريكية، والتى كانت معروضة للبيع بسعر منخفض للغاية. قضى دوج وقتًا طويلاً - حيث إنه كان لديه الكثير من وقت الفراغ - يدرس المواصفات الإضافية للسيارة، وبينما كان يجلس وحده بالمكتبة راح يرسم رسومًا تخطيطية على غلاف المجلة، ثم استخدم مسطرة ليقيس الحجم المضبوط لصندوق سجائر المارلبورو. أدرك أن الربح العائد قد يكون أقل فى هذه المرة، لكنه على الأقل لن يتعرض للمساءلة القانونية.

من بين المشكلات التى يواجهها المرء عندما يجنى ربحًا يقدر بخمسة وعشرين ألفًا كل أسبوع، دون أن يقدم عليها أى تقرير ضريبى، هو أنه عندما يطلق سراحه من السجن يتوقعون منه أن يستقر فى عمل لا يقدم له أكثر من ٢٥ ألفًا سنويًا قبل الضرائب؛ وهى مشكلة شائعة للغاية بين أغلب أصحاب السوابق، وخصوصًا تجار المخدرات.

قبل أقل من شهر من انتهاء مدة سجنه، اتصل دوج بزوجته وطلب منها أن تبيع شاحنته المرسيدس ذات المواصفات الممتازة، من أجل أن تدفع بجزء من ثمنها مقابل الشاحنة البيتربيلت ذات الثمانية عشر إطارًا والمستعملة هائلة الحجم، والتى وجد إعلانًا عن بيعها فى مجلة هاولاج ويكلى.

عندما رأت سالى الشاحنة للمرة الأولى، لم تفهم سر رغبة زوجها فى أن يستبدل بشاحنته الرائعة ذلك الوحش الهائل، وتقبلت التفسير الذى قدمه لها بأنه سيكون بمقدوره مع هذه الشاحنة أن يقود من سليفورد وحتى مارسيليا دون أن يضطر

للتوقف من أجل التزود بالوقود.

وذكر دوج زوجته قائلاً: " ولا تنسى أن القسم الأكبر من الرحلة من كالايس وحتى مارسيليا".

تبين أن دوج سجين نموذجي، ولم يقض من مدة سجنه إلا عامين من الأعوام الأربعة.

يوم إطلاق سراحه، كانت زوجته وابنته كيلى ذات الثمانية عشر شهرًا تنتظرانه عند بوابات السجن. اصطحبته سالى إلى سليفورد فى سيارتها الفوكسهال. وبعد وصولهما، كان دوج مسرورًا حين وجد الشاحنة المستعملة متوقفة بالحقل المجاور لمنزلهم الريفى الصغير.

سأل زوجته: " ولكن لمَ لَمْ تبيعى سيارتى المرسيدس؟".

أقرت سالى قائلة: " لم أجد عرضًا مقبولاً، وهكذا فقد أجرتها لمدة عام آخر. فعلى الأقل بهذه الطريقة توفر لنا دخلاً صغيرًا". أومأ دوج موافقًا. سره أن يجد سيارتى النقل بلا أدنى شائبة، ومصقولتين كحذاء جديد، وبعد فحصه للمحركات سره أيضًا أن يجدهما فى حالة ممتازة.

عاد دوج إلى العمل فى الصباح التالى مباشرة، وأكد لزوجته سالى مرارًا وتكرارًا أنه لن يلدغ من نفس الجحر مرتين. عبأ شاحنته بالملفوف والبازلاء من إحدى المزارع المحلية، قبل أن ينطلق فى رحلته إلى مارسيليا، ثم عاد إلى إنجلترا بحمولة كاملة من الموز. الضابط مارك كينان، والذى ترقى مؤخرًا كان يعترض طريق سيارة دوج بانتظام، ويطلب منه أن يوقفها على جانب الطريق بحيث يفتش حمولته ليكتشف ما الذى كان يعود به من مارسيليا، ولكن مهما بلغ عدد الصناديق التى كان يفتشها، كانت على الدوام معبأة بالموز لا غير. ظل الضابط غير مقتنع، دون أن يستطيع اكتشاف ما يقوم به دوج فى الحقيقة.

عندما أمر الضابط كينان دوج بالتوقف مرة أخرى فى دوفر، قال له: "دعنى وشأنى قليلاً يا سيدى، ألا ترى أننى طويت صفحة الماضى؟"، ولم يرحمه ضابط الجمارك من التفتيش؛ لأنه كان مقتنعًا تمامًا بأنها صفحة سوداء تلك التى طواها دوج، ولو لم يستطع إثبات هذا.

كان المنهج الجديد لـ دوج يمضى على ما يرام مثل حلم جميل، وعلى الرغم من أنه لم يكن يجنى الآن أكثر من ١٠ آلاف جنيه أسبوعيًا فعلى الأقل لن يتم القبض عليه هذه المرة. واصلت سالى تحديث دفاتر الحسابات أولاً بأول بالنسبة للشاحنتين بحيث كانت التقارير الضريبية لـ "دوج" تقدم وتسدد فى مواعيدها دائمًا، بما يتطابق مع أية قوانين جديدة للاتحاد الأوربى، ومع ذلك فإن دوج لم يطلع زوجته على تفاصيل خطته للتربح غير الخاضع لأى ضرائب.

بعد أن عبر دوج مكتب جمارك دوفر مباشرة، فى يوم الخميس بعد الظهيرة، قاد سيارته إلى أقرب محطة وقود ليعيد التزود قبل أن يواصل رحلته شمالاً نحو سليفورد. تبعته سيارة من نوع الأودى حتى الفناء الأمامى لمحطة الوقود، وبدأ سائقها يتساءل لاعنًا عن الوقت الذى سوف تستغرقه هذه الشاحنة العملاقة حتى تمتلئ بالوقود. وما أثار دهشته، أن سائق الشاحنة لم يأخذ أكثر من دقائق معدودة قبل أن يعيد فم الخرطوم إلى مكانه. وحين قاد دوج شاحنته من جديد على الطريق تقدمت السيارة التى وراءه لتشغل مكانه. عندما رأى السيد كينان الاسم على جانب الشاحنة أثير فضوله. وفحص عداد الوقود، ليكتشف أن دوج لم يدفع أكثر من ٣٣ جنيهًا. راح يحدق فى الشاحنة ذات الثمانية عشر إطارًا التى جعلت تتدحرج بصعوبة على الطريق السريع، مدركًا أنه بهذه الكمية القليلة من الوقود لن يتسنى لـ دوج إلا أن يسير بضعة أميال أخرى قبل أن يضطر للتزود بالوقود مرة أخرى.

ما هى إلا دقائق معدودة حتى لحق السيد كينان بشاحنة دوج. عندئذ تبع الشاحنة من مسافة آمنة، لا يظهر منها السائق، على مدى العشرين ميلاً التالية، قبل أن يتوقف دوج عند محطة وقود أخرى، وما إن عاد دوج على الطريق من جديد بعد ذلك بدقائق، حتى توجه السيد كينان لفحص عداد الوقود ــ ٣٤ جنيهًا ــ ما يكفى فقط ليغطى مسافة ٢٠ ميلاً أخرى. وإذ واصل دوج رحلته إلى سليفورد عاد الضابط إلى دوفر تعلو وجهه ابتسامة فوز.

وفى الأسبوع التالى حين كان دوج عائدًا من مارسيليا لم يبد أى قلق حينما طلب منه السيد كينان أن يوقف السيارة على جانب الطريق بالقرب من كشك الجمارك؛ فقد كان يعلم أن كل صندوق فى الحمولة ــ وكما تظهر أوراق النقل ــ ممتلئ بالموز. على الرغم من هذا، فإن ضابط الجمارك لم يطلب من دوج أن يفتح الباب الخلفى للشاحنة. بل سار ببساطة حول الهيكل الخارجى للسيارة ممسكًا بمفتاح ربط إنجليزى كما لو أنه آلة موسيقية مثل شوكة رنانة، بينما أخذ يضرب بها خزان الوقود العملاق. لم يتفاجأ الضابط عندما أصدر الخزان الثامن جرسًا صوتيًا مختلفًا تمامًا عن صوت الخزانات السبعة الأخرى. جلس دوج هناك لساعات بينما أخذ ينقل الميكانيكيون العاملون بالجمارك خزانات الوقود الثمانية من على جانبى الشاحنة. أحدها فقط كان ممتلئًا بزيت الوقود، بينما احتوى الباقى على خراطيش سجائر بقيمة ١٠٠ ألف جنيه.

هذه المرة كان القاضى أقل تساهلاً مع دوج فحكم عليه *بالسجن لست سنوات؛ حتى بعد أن ذكر محاميه بأن المتهم* ينتظر مولودًا ثانيًا.

ارتعبت سالى حين اكتشفت أن دوج لم يَف بوعده لها، وامتلأت بالشكوك حين وعدها بأنه لن يعود إلى فعل ذلك مطلقًا. فى اللحظة التى أغلقت الزنزانة على دوج من جديد،

قامت هى بتأجير السيارة الثانية، وعادت لوظيفتها بوكالة العقارات.

بعد ذلك بعام كان بمقدور سالى أن تعلن دخلاً متزايدًا قيمته ثلاثة آلاف جنيه، إضافة إلى راتبها ودخلها من وكالة العقارات.

المحاسب الخاص بـ سالى نصحها أن تشترى الحقل الصغير المجاور للمنزل الريفى؛ حيث تتوقف الشاحنتان دائمًا فى الليل؛ بحيث يمكنها أن تطلب بناء على ذلك تخفيض الضرائب. وكما شرح لها المحاسب: "سوف يكون مكان انتظار الشاحنات بمثابة نفقات تجارية مشروعة تمامًا".

وبما أن دوج بدأ حكم السجن لمدة ستة أعوام وعاد ليربح ١٢ جنيهًا ونصف أسبوعيًا كأمين مكتبة السجن؛ فلم يكن فى وضع يسمح له بإبداء الرأى. ومع ذلك فكم كان منبهرًا عندما أعلنت سالى فى العام التالى دخلاً يقدر بسبعة وثلاثين ألف جنيه، بما فى ذلك المكافآت الإضافية عن مبيعاتها فى وكالة العقارات. هذه المرة نصحها المحاسب بشراء شاحنة ثالثة.

أطلق سراح دوج من السجن فى نهاية الأمر بعد أن قضى نصف مدة العقوبة (ثلاث سنوات). كانت سالى متوقفة خارج بوابات السجن فى سيارتها الفوكسهال، منتظرة أن تصطحب زوجها إلى المنزل. كانت ابنته تيلى ذات الأعوام التسعة تجلس بالمقعد الخلفى، إلى جوار أختها سام ذات الأعوام الثلاثة. لم تكن سالى تسمح للصغيرتين بزيارة والدهما بالسجن، وهكذا عندما احتضن الصغيرة بين ذراعيه جعلت تبكى بشدة. شرحت لها سالى أن هذا الرجل الغريب هو أبوها.

خلال تناول وجبة إفطار من البيض واللحم المقدد، استطاعت سالى أن تخبره بأن محاميها قد نصحها بإنشاء

شركة ذات مسئولية محدودة. وقد أحرزت شركة هازليت هاولادج أرباحًا تبلغ واحدًا وعشرين ألفًا وستمائة جنيه خلال عامها الأول، وأضافت شاحنتين للأسطول المتنامى. أخبرت سالى زوجها بأنها تفكر فى ترك وظيفتها بوكالة العقارات لتتفرغ بشكل كامل لإدارة الشركة الجديدة.

قال دوج مستغربًا: "إدارة ؟ كيف ستكون هذه الإدارة؟".

سعد دوج بأن يترك إدارة الشركة لزوجته سالى، مادام مسموحًا له أن يتخذ مكانه الأثير خلف عجلة القيادة كواحد من سائقى الشركة. كان من الممكن أن يستمر هذا الوضع كما هو عليه ويعيش الجميع فى سعادة، لو لم يقترب من دوج ذلك الرجل المارسيلى ـ والذى لا يبدو أنه يدخل السجن أبدًا ـ ومعه ما أكد له أنه خطة محكمة بلا أى مخاطر محتملة، والأهم من ذلك، أن زوجة دوج لن تضطر لاكتشافها أبدًا.

قاوم دوج إغراءات الرجل الفرنسى لشهور عديدة، ولكنه استسلم أخيرًا له بعد أن خسر مبلغًا كبيرًا فى مقامرة. وعد نفسه قائلاً إنها رحلة واحدة فقط. ابتسم رجل مارسيليا وهو يناوله مظروفًا به اثنا عشر ألفًا وخمسمائة جنيه عدًا ونقدًا.

استمرت شركة هازليت هاولادج فى النمو تحت إدارة سالى؛ فاكتسبت سمعة طيبة وحققت أرباحًا. وفى هذه الأثناء، صار دوج من جديد معتادًا على سيولة النقود بين يديه؛ أى مال لا يخضع بالمرة لضبط الميزانية، وليس مطروحًا لحساب الإقرار الضريبى.

هناك شخص آخر واصل مراقبة شركة هازليت هاولادج بعين يقظة، ومراقبة دوج على وجه الخصوص. بكل انتظام واعتياد. كان من الممكن رؤية دوج يقود شاحنته الخاصة خلال معبر دوفر، محملاً بالملفوف والبازلاء، قاصدًا مارسيليا. غير أن مارك كينان، والذى صار أحد ضباط مكافحة تهريب



البضائع ويعمل فى وحدة إنفاذ القانون، لم ير دوج ولو مرة واحدة يعود من رحلته إلى البلاد؛ مما بعث فيه القلق.

تفقد الضابط سجلاته فتبين أن شركة هازليت وهاولادج ترسل الآن ثمانى شاحنات كل أسبوع إلى أجزاء مختلفة من أوربا. ومديرة الشركة، سالى هازليت، سمعتها لا تشوبها شائبة ـ وهكذا شاحناتها ـ كما أقر كل شخص تعاملت معه، سواء من العملاء أو من رجال الجمارك. لكن السيد كينان كان لايزال يتملكه الفضول ليعرف لماذا لا يعود دوج من رحلته إلى مارسيليا قائدًا شاحنته خلال هذا الميناء البرى، واعتبر الأمر مشكلته الشخصية.

كشفت بعض الاستجوابات السرية عن أن دوج يمكن رؤيته فى مارسيليا يفرغ شحنته من الملفوف والبازلاء، ثم يعبئ الشاحنة بصناديق الموز، ومع ذلك كان هناك هذه المرة اختلاف

واحـد طفيـف. كان الآن يعود من خلال نيوهيفين؛ مما يضيف ساعتين أخريين إلى مدة رحلة دوج الطبيعية كما قدَّر كينان.

كان لـدى جميع ضباط الجمـارك حرية اختيار أن يخدموا لـمدة شهر واحد كل عام فـى نقطة حدود مختلفة، من أجل دعم فرصهـم فـى الترقى. العـام الماضى اختـار السيد كينـان مطار هيثرو؛ لكنه ذلك العام اختار أن يعمل لشهر فى نيوهيفين.

انتظـر الضابط كينان متجملاً بالصـبر ظهور شاحنة دوج علـى المرفـأ، ولكنـه لم يظهر حتى نهايـة أسبوعـه الثانى هناك حـين رأى خصمـه القـديم منتظرًا فى صف لينـزل عن العبارة أولسن. فى اللحظة التى قاد دوج فيها شاحنة إلى المرفأ، اختفى السيد كينان فى الدور العلوى بغرفة فريق العمل وصب لنفسه قدحًـا من القهوة. سار حتـى النافذة وراقب شاحنة دوج تتوقف عنـد مقدمـة الخـط، وتم السمـاح لـه بالعبـور بسرعـة على يد الضابطين المناوبين. لم يحاول السيد كينان التدخل بأى شكل بينمـا قـاد دوج سيارته علـى الطريق ليواصل رحلتـه عائدًا إلى سليفورد. كان على السيد كينان أن ينتظر عشرة أيام أخرى قبل أن تعاود شاحنة دوج الظهور، وهذه المرة لاحظ أنه لا شىء تغير عن المرة السابقة، ولم يظن السيد كينان أنها مجرد مصادفة.

عندمـا عـاد دوج ليدخـل البـلاد عـبر نيوهيفـين بعـد ذلك بخمسـة أيام، اكتفى الضابطان المناوبـان بمسح شاحنته بنظرة خاطفـة وسطحيـة قبـل أن يسمحا لـه بالعبور. تأكـد الضابط الآن أنهـا أكـثر من مجرد مصادفـة. قدم السيد كينـان تقريرًا بملاحظاته إلى رئيسه فى نيوهيفين وانتهى شهر عمله هناك، وعاد من جديد إلى دوفر.

أكمل دوج ثلاث رحلات أخرى من مارسيليا عبر نيوهيفين قبـل أن يتـم القبـض على أحـد ضابطى الجمـارك. عندما رأى دوج خمسـة ضبـاط يتوجهون صـوب شاحنتـه أدرك أن منهجه الذى يستحيل تعقبه قد تم تعقبه وكشفه.

لم يهدر دوج وقت المحكمة الثمين فى إنكار التهم الموجهة إليه والزعم ببراءته، لاسيما بعد أن قرر أحد ضابطى الجمارك الذى كان يقتسم معهما الغنائم أن يصرح باسم واحد مقابل تخفيض الحكم، وقد صرح باسم دوجلاس آرثر هازليت.

حكم القاضى بالسجن على دوج لمدة ثمانى سنوات، دون تصريح بالخروج من منتصف المدة نتيجة لحسن السير والسلوك، إلا إذا وافق على دفع غرامة قدرها سبعمائة وخمسون ألف جنيه. لم يكن دوج يملك هذا المبلغ وتوسل إلى سالى أن تهب لنجدته؛ لأنه لم يكن يستطيع مواجهة حقيقة أن يمكث خلف القضبان لمدة ثمانية أعوام أخرى. اضطرت سالى لبيع كل شىء، بما فى ذلك المنزل الريفى، ومكان انتظار السيارات، والشاحنات التسع وحتى خاتم زواجها؛ بحيث يمكن لزوجها أن يستجيب لحكم المحكمة.

بعد أن قضى دوج عامًا فى سجن وايلاند من الفئة "ج" الذى يقع فى نورفولك، تم نقله من جديد إلى معسكر نورث سى؛ حيث عمل مرة أخرى كأمين مكتبة؛ وحيث التقيت به للمرة الأولى.

كم تأثرت لأن سالى وابنتيه - اللتين صارتا ناضجتين الآن - حرصن على زيارة دوج فى نهاية كل أسبوع، وقال لى إنهم لا يناقشون أمور المال والتجارة معًا، مع أنه أقسم أنه لن يعود لاقتراف الحماقات مرة أخرى أبدًا أبدا.

حذرته سالى قائلة: "لا تفكر حتى فى ذلك، لقد أرسلت الشاحنة الخاصة بك بالفعل إلى تجار الخردة".

قال دوج عندما زرت المكتبة فى المرة التالية: "لا يمكننى أن ألوم المرأة المسكينة على هذا، بعد كل ما جلبته عليها بسبب أفعالى، ولكن إن لم يتركونى أجلس وراء مقود شاحنة بعد إطلاق سراحى فما الذى سأقوم به خلال ما تبقى من حياتى؟".

أُطلق سراحى قبل إطلاق سراح دوج بنحو عامين، ولولا أننى توجهت إلى لنكولن للمحاضرة فى مهرجان أدبى بعد ذلك ببضعة الأعوام، لما عرفت أبدًا ما الذى حدث لأمين مكتبة السجن.

بينما كنت أنظر نحو الجمهور خلال طرح الأسئلة، ظننت أننى تعرفت على ثلاثة وجوه تبدو مألوفة لى على نحو غامض يجلسون فى الصف الثالث. رحت أجهد هذا الجزء من عقلى المعنى بتخزين الأسماء فيه؛ غير أنه لم يستجب لى. إلى أن طرح أحد الحاضرين علىَّ سؤالاً حول صعوبات الكتابة أثناء فترة السجن. عندئذ فقط تدفق كل شىء راجعًا إلى ذهنى. آخر مرة رأيت فيها سالى كان قبل ثلاثة أعوام أو نحو ذلك، حين كانت تزور دوج مصطحبة معها ابنتيها، كيلى و.... الأخرى .... اسمها سام.

بعد أن أجبت عن آخر الأسئلة، أخذنا راحة لتناول القهوة، وظهر الثلاثة للانضمام إلىَّ.

"مرحبًا يا سالى، كيف حال دوج؟" هكذا سألت قبل أن يقدموا لى أنفسهم، وهى حيلة سياسية قديمة، وبدا تأثرهم لذلك.

"تقاعد"، هكذا قالت سالى دون أى تفسير.

اعترضت قائلاً: "لكنه كان أصغر سنًا منى، ولم يكن يكف عن إخبار الجميع بما يخطط للقيام به بعد أن يطلق سراحه".

قالت سالى: "هذا لا شك فيه، ولكننى أؤكد لك أنه متقاعد. ندير أنا وابنتاى الآن شركة هاولادج، مع فريق عمل يدعمنا من واحد وعشرين موظفًا، ناهيك عن السائقين".

قلت مستجليًا الأمر: "إذن فإن أموركم تمضى على خير ما يرام".

قالت بسخرية: "أنت بكل تأكيد لا تقرأ صفحات المال والتجارة فى الصحف".

تحديتها قائلاً: "إننى أفعل مثل اليابانيين، دائمًا ما أقرأ الصحف من الخلف للأمام. فما الذى فاتنى إذن؟".

قالت ابنتها كيلى: "لقد طرحنا الشركة للاكتتاب العام فى السنة الماضية، والدتى رئيسة مجلس الإدارة، وأنا مسئولة الحسابات الجديدة، وسام مسئولة عن السائقين".

"وإن كنت أتذكر جيدًا فإن لديكم حوالى تسع شاحنات؟".

قالت سالى: "لدينا الآن إحدى وأربعون شاحنة، وأرباحنا الصافية فى السنة السابقة كانت أقل قليلاً من خمسة ملايين".

"ودوج، ألا يلعب أى دور؟".

قالت سالى: "دوج لا يلعب إلا الجولف، وهو ما لا يتطلب منه أن يسافر عبر دوفر أو ــــــ"، أكملت وهى تتنهد بينما ظهر زوجها على مدخل الباب: "عبر نيو هيفين".

لبث دوج ساكنًا بينما فتشت عيناه عن أفراد أسرته فى جنبات الغرفة. لوحتُ له ولفتُ انتباهه. لوح لى دوج وسار بسرعة لينضم إلينا.

همست سالى وهى تبتسم بينما ظهر دوج إلى جانبى: "مازلنا نسمح له بأن يقود بنا السيارة للبيت بين الحين والآخر".

صافحت زميل الزنزانة المفضل لدى، وعندما انتهت سالى والفتاتان من احتساء القهوة، رافقتهم جميعًا حتى سيارتهم؛ مما منحنى الفرصة لأتبادل بعض الهمسات مع دوج.

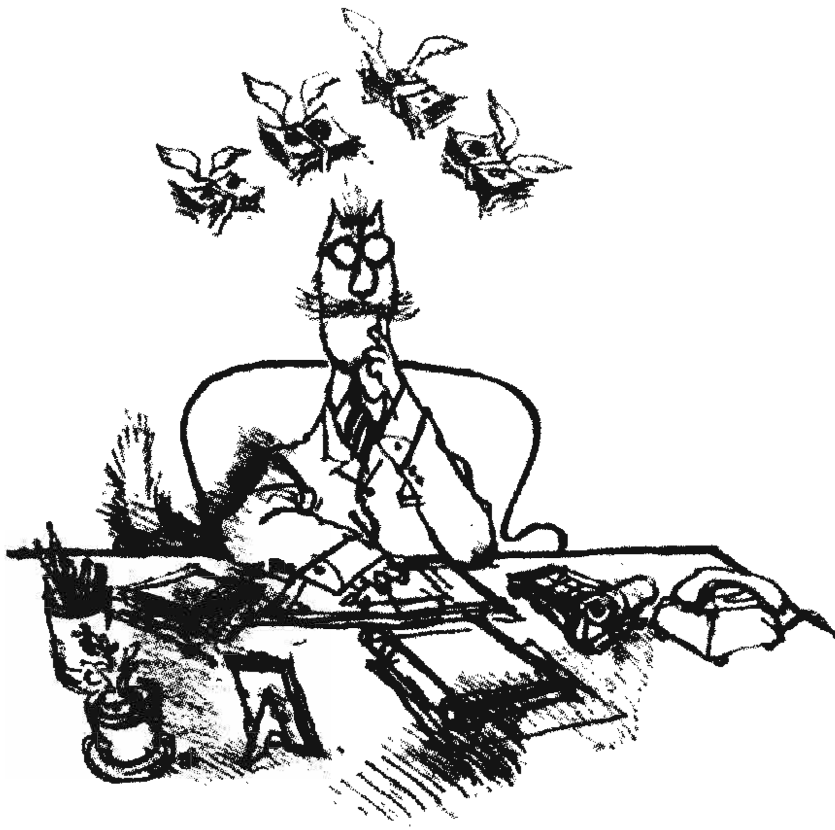
بادرت بالقول: "يسرنى أن أسمع أن شركة هازليت هاولادج تمضى من حال حسن إلى أحسن".

قال دوج: "الأمر كله يعود للخبرة والتجربة، لا تنس أننى علمتهن كل شىء كنت أعرفه".

" ومنذ أن التقينا آخر مرة، أخبرتنى كيلى أن الشركة طرحت للاكتتاب العام".

بينما كانت زوجة دوج تدخل للسيارة من الباب الخلفى، قال دوج: "كل هذا جزء من خطتى بعيدة المدى". واجهنى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة العارف ببواطن الأمور ثم أردف: " الكثير من الناس يحاولون تشمم حقيقة الأمور حاليًا يا جيفرى : فلا تندهش إن حاولت شركة كبرى الاستيلاء على شركتنا فى المستقبل القريب". بلغ مقعد السائق وعندها أضاف: " أمامك فرصة لكسب بعض الأرباح بينما أسعار الأسهم مازالت ثابتة فى الوقت الحالى. أتفهم مقصدى؟".

الأقربون أولى بالمعروف



اسمه هنرى برستون، أما أصدقاؤه القليلون للغاية، فإنهم ينادونه بهارى، وهو ليس من نوع الأشخاص الذين قد تصادفهم فى المقهى المحلى للمنطقة، أو تلتقى بهم خلال مشاهدة مباراة كرة قدم، أو تدعوهم إلى حفل شواء بمنزلك. وبصراحة لو أن هناك ناديًا للمنطوين على أنفسهم، لتم اختيار هنرى رئيسًا له - على مضض.

حين كان بالمدرسة، كانت المادة الوحيدة التى تفوق فيها هى الرياضيات، ونصح بعضهم أمه، الإنسانة الوحيدة التى أحبت هنرى، بأن يتخصص ابنها فى الرياضيات. كان والده ساعى بريد. ومع الدرجة النهائية التى كان يحرزها فى مادة الرياضيات كان المجال محدودًا أمامه إلى حد كبير - إما مجال الصرافة والبنوك وإما مجال المحاسبة، وقد اختارت له أمه المحاسبة.

تم توظيف هنرى بشركة بيرسون، وكلاتربك آند رينولدز، وعندما التحق بالشركة كموظف صغير حلم بإضافة اسمه إلى أسماء الشركاء الآخرين، ولكن مع مرور الأعوام توافد رجال كانوا يصغرونه سنًا ونجحوا فى نقش أسمائهم على الطرف الأيسر من أوراق الشركة، وتلاشى حلمه بالتدريج.

بعض الرجال، بعد أن يدركوا الحدود الواقعية على طموحاتهم وأحلامهم، يجدون العزاء فى أشكال أخرى، مثل النساء، أو المخدرات، أو حياة اجتماعية مزدحمة ومحمومة. أما عن المخدرات فإن هنرى لا يدخن السجائر، على الرغم من أنه يسمح لنفسه بكأس شراب واحدة فقط، وذلك يوم

الإجازة. أما بالنسبة للنساء، فإنه يميل لهن بلا أى شك، لكن متوسط نجاحه فى العلاقات يقترب من الصفر. ولم يكن له أى هوايات.

تأتى نقطة فى حياة كل إنسان يدرك عندها خرافة *الشباب الأبدى*، عندما يعرف معنى التقدم فى العمر، وقد حدث كل شىء بسرعة لـ هنرى ؛ حيث مضى نحو منتصف العمر بخطوة واسعة وبدأ يفكر فجأة فى تقاعد مبكر. عندما تقاعد السيد بيرسون، وهو أحد الشركاء، عقدت حفلة كبيرة على شرفه فى قاعة خاصة بأحد فنادق الخمس نجوم. بعد مسار مهنى طويل ومشرف، أخبر السيد بيرسون زملاءه بالشركة فى تلك الحفلة أنه سيتقاعد فى منزل ريفى بمنطقة كوتسوولدز ليعتنى بزهوره ويحاول أن يهون من نواحى قصوره فى لعبة الجولف. تبع كلمته تلك الكثير من الضحك والهتاف والتصفيق. الشىء الوحيد الذى يتذكره هنرى من هذه المناسبة هو ما قاله له آتكينس، أحدث الموظفين بالشركة، حين كان يغادر المكان ذلك المساء: "أفترض أنه لن يمر وقت طويل قبل أن نعقد الاحتفال نفسه لك أيها الرفيق العجوز".

جعل هنرى يفكر مليًا فى كلمات الشاب آتكينس بينما يسير نحو محطة الأتوبيس. لقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عامًا، وهكذا ففى غضون ست سنوات فقط سيعقدون له حفلة وداع، إلا إذا أصبح أحد شركاء الشركة، وفى هذه الحالة سوف يمتد به الوقت فى منصبه حتى يبلغ الخامسة والستين من العمر. فى حقيقة الأمر، لقد تخلى هنرى منذ وقت طويل عن أى أمل فى أن يصبح أحد الشركاء، وقد تقبل بالفعل أن حفل وداعه لن يعقد بقاعة خاصة فى فندق خمس نجوم. وبكل تأكيد لن يقضى سنوات تقاعده فى منزل ريفى ليعتنى بزهوره، أما عن نواحى قصوره، فلديه منها وفرة بالفعل، ناهيك عن مسألة الجولف.

كان هنرى مدركًا تمام الإدراك أن زملاء العمل يعتبرونه شخصًا كفئاً وضليعًا فى مجاله ويعتمد عليه، لكن هذا يضيف المزيد إلى إحساسه بالفشل، وكان أعلى مديح قد ناله عبارة : "يمكنكم دائمًا الاعتماد على هنرى ؛ فهو يؤتمن على ما يقوم به خير ائتمان".

غير أن ذلك كله قد تبدل منذ يوم لقائه بـ آنجيلا.

كانت آنجيلا فورستر تملك شركة إيفنتس آنليميتد، وهى شركة ليست كبيرة بما يكفى لأن يضطلع بحساباتها أحد الشركاء الأساسيين، ولا صغيرة إلى حد أن يضطلع بها محاسب صغير، وهكذا انتهى المطاف بملفها إلى مكتب هنرى، الذى درس التفاصيل بكل اعتناء.

كانت السيدة فورستر هى المالكة الوحيدة للمشروع التجارى الصغير والذى تخصص فى تنظيم الاحتفالات والمناسبات الخاصة - أى مناسبات بداية من العشاء السنوى لجمعية حزب المحافظين وحتى حفل هنت الإقليميى. كانت آنجيلا شخصية منظمة بالفطرة وبعد أن هجرها زوجها من أجل امرأة تصغرها سنًا - ملاحظة جانبية: عندما يهجر رجل زوجته من أجل امرأة أصغر سنًا يكون الناتج قصة قصيرة، أما عندما تهجر امرأة زوجها من أجل رجل أصغر سنًا، يكون الناتج رواية طويلة (لا أتفق مع هذا الرأى) - اتخذت آنجيلا قرارًا بأنها لن تبقى بالبيت لترثى لحالها، لكن اختارت أن تستغل مواهبها التنظيمية؛ بحيث يمكن لها أن تشغل كامل وقت فراغها بينما تستثمر المبلغ الهزيل الذى ادخرته جانبًا. ظهرت المشكلة عندما حققت آنجيلا نجاحًا أكبر قليلاً مما توقعته لمشروعها، وهو ما أدى بها لتحديد موعد مع المحاسب المتخصص هنرى.

قبل أن ينهى هنرى العمل على حسابات السيدة فورستر، راح يراجع معها ببطء الأرقام عمودًا بعد آخر، عارضًا على عميلته الجديدة كيف كان يمكنها أن تطالب باستثناء بعض البنود من الحساب الضريبى، من قبيل سيارتها، وسفرياتها، بل وحتى ملابسها؛ فقد أوضح لها أنه لزامًا عليها أن تظهر بمظهر يليق بالمناسبات التى تحضرها؛ لأنها تشرف على تنسيقها. نجح هنرى فى أن يوفر على السيدة فورستر بضع مئات من الجنيهات من الضرائب المقررة عليها؛ وهذا على كل حال ما اعتبره مسألة شرف مهنة؛ وكان جميع عملائه يتبعون نصائحه ويتركون المكتب وهم فى حال أفضل كثيرًا. وذلك يحدث حتى بعد أن يضيفوا لنفقاتهم أتعاب الشركة التى يعمل بها، وهو ما كان يشير عليهم بإضافته أمام بنود تقليل الضرائب.

كان هنرى ينهى كل لقاء مع عملائه على الدوام قائلاً: "يمكننى أن أؤكد لك أن حساباتك فى غاية من الدقة والنظام، وأن رجل الضرائب لن يزعجكم بأى شكل"؛ فقد كان هنرى يعلم تمام العلم أن قليلين من عملائه هم من يرغبون بإثارة اهتمام موظف ضرائب، ناهيك عن إزعاجه لهم. وكان غالبًا ما يرافق عميله حتى الباب وهو يقول: "أراك العام المقبل"، وحين فتح الباب للسيدة فورستر، ابتسمت وقالت له: "لماذا لا تحضر إحدى المناسبات التى أنظمها يا سيد برستون؟ وعندئذ يمكنك أن ترى ما أقوم به فى أغلب الأمسيات".

لم يكن هنرى يذكر متى كانت آخر مرة دعى فيها إلى أى شىء. تردد، وهو لا يعلم كيف يجيبها. لكن آنجيلا ملأت الصمت الذى ساد للحظات، بقولها: "إننى أنظم حفلاً لصالح ضحايا المجاعات الإفريقية مساء السبت. إنه فى دار البلدية. لم لا تشرفنى بحضورك؟".



وجد هنرى نفسه يقول: "سأفعل، وشكرًا لك، كم هو لطيف منك. إننى أتطلع إلى ذلك"، وندم على القرار الذى اتخذه فى اللحظة نفسها التى كان يغلق فيها الباب. على كل حال، لم تكن أمسيات السبت من كل أسبوع تحمل له من وعود أكثر من مشاهدة فيلم الأسبوع على قناة سكاى، بينما يتلذذ بتناول طعام صينى طلبه بالهاتف، وكأس شرابه الأسبوعى. ولابد أن يكون على أية حال فى فراشه عند العاشرة مساء لأن عليه صباح الأحد أن يتعهد فحص حسابات صندوق تبرعات دار العبادة؛ فقد كان المحاسب الخاص بالصندوق كذلك، وهو عمل تطوعى غير مأجور، كما أكد هنرى لأمه.

أمضى هنرى جزءًا كبيرًا من صباح يوم السبت فى محاولة التوصل لعذر وجيه: صداع، اجتماع مفاجئ ومهم، ارتباط بموعد سابق كان قد غفل عنه حينها؛ بحيث يتمكن من الاتصال بالسيدة فورستر ويضع عن كاهله الأمر برمته؛ وعندئذ أدرك أنه لا يعرف رقم منزلها.

فى الساعة السادسة من ذلك المساء ارتدى هنرى السترة الرسمية لمناسبات العشاء التى أهدتها له أمه فى يوم ميلاده الواحد والعشرين، والتى لا يرتديها إلا فيما ندر. راح يتطلع إلى صورته فى المرآة، قلقًا من أن يكون لباسه قد صار قديم الطراز: سترة بياقة عريضة وسروال يتسع بالتدريج من الأعلى للأسفل ـ غير منتبه أن هذا الطرز نفسه قد مضى وانقضى ثم عاد ليتصدر الواجهات من جديد. كان من بين آخر من حضروا إلى قاعة دار البلدية، وقد قر عزمه من قبل على أن يكون من بين أول المغادرين للحفل كذلك.

أجلست آنجيلا هنرى على طرف مائدة أهم المدعوين؛ حيث يمكنه أن يراقب مجريات الحفل، بينما يتجاوب مع حديث السيدة التى تجلس على يساره من حين لآخر.

بعد أن انتهى إلقاء الخطب، نهضت الفرقة وبدأت العزف، شعر هنرى بأنه من الأمان أن يتسلل الآن من الحفل. راح يتطلع حوله بحثًا عن السيدة فورستر. كان قد رآها قبل ذلك تذرع المكان جيئة وذهابًا، تشرف على نظام كل شىء بداية من بيع أوراق اليانصيب الخيرى إلى المسابقات إلى سحب على ورقة بعشرة جنيهات، بل والمزاد العلنى كذلك. عندما نظر إليها نظرة أكثر قربًا، وهى ترتدى ثوبها الأحمر الطويل، يغطى شعرها الأشقر كتفيها، كان عليه أن يعترف بأنها.... نهض وكان على وشك أن يغادر، عندما ظهرت آنجيلا فجأة تقف بجواره. قالت بصوت رقيق: "أرجو أن تكون قد استمتعت".

أكد لها هنرى قائلاً: "لقد أمضيت وقتًا رائعًا، ماذا عنك أنت؟".

أجابته آنجيلا: "ساقاى يؤلماننى من كثرة الحركة هنا وهناك، لكننى على ثقة تامة من أننا سوف نحقق رقمًا قياسيًا فى مبلغ التبرعات هذا العام".

من خمسة ملايين، منها مليون واحد نقودًا سائلة".

قالت آنجيلا وهما يتوجهان نحو هاى ستريت: "ما أقوى ذاكرتك يا سيد برستون، لكننى آمل أن أتجاوز الخمسة ملايين هذا العام"، وأضافت: "وقد أحرزت هذا المبلغ المستهدف بالفعل حتى شهر مارس".

قال هنرى: "قد يكون هذا هو الأمر، ولكن العام الماضى لم يتبق لك سوى اثنين وأربعين ألفًا من الأرباح، وهو أقل من واحد بالمائة من صافى الأرباح".

قالت آنجيلا: "أنا واثقة من أنك على صواب، ولكننى أستمتع بالعمل فهو يشغل وقتى".

"ولكن ألا تفكرين أنك تستحقين عائدًا أفضل مقابل كل جهودك؟ ".

"ربما، ولكننى لا أحمل عملائى أكثر من خمسة بالمائة من الأرباح، وكلما اقترحت عليهم أن أرفع من أتعابى يذكروننى على الدوام بأنهم يقومون بأعمال خيرية لا تستهدف التربح".

قال هنرى: "هذا حالهم وليس حالك أنت، أنت محترفة، ولابد أن تؤجرى على هذا الأساس".

بينما توقفا أمام بنك نايت وست، وأخرجت المال لتضعه فى الخزانة الليلية، قالت آنجيلا: "أعرف أنك محق، لكن أغلب عملائى كانوا معى لسنوات".

ألح هنرى قائلاً: "وقد استغلوك على أكمل وجه على مدى كل تلك السنوات أيضًا".

قالت آنجيلا: "قد يكون هذا صحيحًا، ولكن ماذا عساى أن أفعل حيال هذا؟".

عادت الفكرة نفسها إلى عقل هنرى، ولكنه لم يفصح عنها للسيدة، لم يزد على أن يقول لها: " شكرًا على هذه الأمسية الأكثر إثارة فى حياتى يا سيدة فورستر. لم أستمتع بهذا القدر منذ سنوات". مد هنرى يده أمامه، كما اعتاد أن يفعل

فى نهاية كل لقاء مع عملائه، وكان عليه أن يمنع نفسه من أن يقول: "أراك العام القادم إن شاء الله".

ضحكت آنجيلا، وقالت: "عمت مساء يا هنرى". قالتها وبدأت تسير مبتعدة.

تردد قبل أن يقول: " لا أفترض أن...".

قاطعته قائلة: "ماذا يا هنرى؟"، والتفتت تواجهه.

"هل توافقين على تناول العشاء معى ذات يوم؟".

قالت آنجيلا: "أود ذلك للغاية، ما الوقت المناسب لك؟".

قال هنرى: "غدًا" وقد واتته جرأة مفاجئة.

أخرجت آنجيلا دفتر مواعيد من حقيبة يدها وراحت تقلب صفحاته، ثم قالت: "أعلم أن غدًا لا يناسبنى، لدى شعور بأنه موعد جمعية السلام الأخضر".

قال هنرى: "الاثنين؟" دون أن يكون مضطرًا لمراجعة دفتر مواعيده.

قالت آنجيلا: "آسفة إنه حفل إحدى الجمعيات".

"الثلاثاء إذن؟" هكذا قال هنرى محاولاً ألا يبدو محبطًا.

قالت آنجيلا وهى تقلب صفحة أخرى: "إنه حفل منظمة العفو الدولية".

قال هنرى: "ماذا عن الأربعاء؟"، وقد راح يتساءل ترى هل غيرت رأيها.

قالت آنجيلا: "يبدو مناسبًا"، ثم أضافت وهى تحدق فى صفحة خالية: " أين تود أن نلتقى؟".

قال هنرى: "ما رأيك فى لاباشا؟"، متذكرًا أنه المطعم الذى يصطحب إليه أصحاب الشركة العملاء المهمين دائمًا لتناول الغداء: "هل يناسبك الثامنة مساء؟".

"يناسبنى تمامًا".

فى نهاية كل لقاء مع عملائه، وكان عليه أن يمنع نفسه من أن يقول: "أراك العام القادم إن شاء الله".

ضحكت آنجيلا، وقالت: "عمت مساء يا هنرى". قالتها وبدأت تسير مبتعدة.

تردد قبل أن يقول: " لا أفترض أن...".

قاطعته قائلة: "ماذا يا هنرى؟"، والتفتت تواجهه.

"هل توافقين على تناول العشاء معى ذات يوم؟".

قالت آنجيلا: "أود ذلك للغاية، ما الوقت المناسب لك؟".

قال هنرى: "غدًا" وقد واتته جرأة مفاجئة.

أخرجت آنجيلا دفتر مواعيد من حقيبة يدها وراحت تقلب صفحاته، ثم قالت: "أعلم أن غدًا لا يناسبنى، لدى شعور بأنه موعد جمعية السلام الأخضر".

قال هنرى: "الاثنين؟ " دون أن يكون مضطرًا لمراجعة دفتر مواعيده.

قالت آنجيلا: "آسفة إنه حفل إحدى الجمعيات".

"الثلاثاء إذن؟" هكذا قال هنرى محاولاً ألا يبدو محبطًا.

قالت آنجيلا وهى تقلب صفحة أخرى: "إنه حفل منظمة العفو الدولية".

قال هنرى: "ماذا عن الأربعاء؟"، وقد راح يتساءل ترى هل غيرت رأيها.

قالت آنجيلا: "يبدو مناسبًا"، ثم أضافت وهى تحدق فى صفحة خالية: " أين تود أن نلتقى؟".

قال هنرى: "ما رأيك فى لاباشا؟"، متذكرًا أنه المطعم الذى يصطحب إليه أصحاب الشركة العملاء المهمين دائمًا لتناول الغداء: "هل يناسبك الثامنة مساء؟".

"يناسبنى تمامًا".

وصل هنرى إلى المطعم مبكرًا عن الموعد بثلث الساعة وقرأ قائمة الطعام والشراب من الغلاف للغلاف ـ مرة بعد أخرى. وكان قد اشترى أثناء استراحة الغداء فى العمل قميصًا جديدًا وربطة عنق حريرية. وندم أشد الندم على أنه لم يجرب أن يقيس السترة المعروضة فى واجهة المتجر.

بعد الثامنة بقليل حضرت آنجيلا تتهادى إلى مطعم لاباشا. كانت ترتدى ثوبًا منقوشًا بالزهور لونه رمادى شاحب يصل لما تحت الركبتين مباشرة. راقت لـ "هنرى" تصفيفة شعرها، لكنه أدرك أنه لن يجرؤ على قول هذا لها. كما راقته فكرة أنها لم تضع الكثير من مساحيق زينة الوجه وأن قطعة الحلى الوحيدة التى وضعتها كانت عقدًا من اللؤلؤ، وعندما بلغت المائدة نهض هنرى من مقعده. لم تستطع آنجيلا أن تتذكر متى كانت المرة الأخيرة التى تجشم فيها أحدهم عناء النهوض لتحيتها.

خشى هنرى ألا يجدا ما يتحدثان حوله ــ فتجاذب الأحاديث الصغيرة لم تكن يومًا نقطة قوته ـ غير أن آنجيلا سهلت عليه الأمر تمامًا بحيث وجد نفسه يطلب زجاجة أخرى من الشراب، قبل أن ينتهيا من تناول الوجبة بوقت طويل.

وبينما كان يحتسيان القهوة، قال هنرى: "أظن أننى قد توصلت إلى طريقة لزيادة دخلك".

فقالت له آنجيلا: "أوه، دعنا نضع أحاديث العمل جانبًا".

أكد لها هنرى قائلاً: "هذا ليس حديث عمل".

حين صحت آنجيلا من نومها فى الصباح التالى ابتسمت وهى تتذكر كم كانت سهرتها مع هنرى بديعة. كل ما كانت تتذكره من حديثه قوله لها بينما كانت ترحل: "لا تنسى أن أية مكاسب تجنى من المقامرة لا ضرائب عليها". ترى ما معنى هذا؟

على الجانب الآخر كان هنرى يستطيع تذكر كل جزئية صغيرة من النصائح التى أسداها لـ آنجيلا. صحا مبكرًا يوم الأحد التالى وبدأ يضع المخطط المبدئى، والذى يتضمن فتح عدة حسابات بنكية، وإعداد بعض البرامج المحاسبية والعمل على برنامج استثمار طويل المدى، وكاد يضيع موعد ذهابه إلى دار العبادة يومها.

فى المساء التالى شق طريقه إلى فندق الهيلتون فى بارك لين، وقد بلغه قبل منتصف الليل بدقائق معدودة. كان يحمل حقيبة من نوع جلا دستن فارغة بإحدى يديه و بالأخرى مظلة. فعلى كل حال لابد أن يبدو ملائمًا للدور الذى سيلعبه.

كان الحفل السنوى لجمعية وستمنستر وجمعية محافظى المدينة يوشك على الانتهاء. حين دخل هنرى إلى القاعة، كان المحتفلون يفرقعون بعض البالونات ويريقون آخر قطرات المشروبات الغالية من آخر الزجاجات المتبقية. رأى آنجيلا تجلس إلى إحدى الموائد فى طرف قصى، تصنف السندات الارتهانية والشيكات البنكية والنقود السائلة قبل أن تضعها فى ثلاث كومات منفصلة. تطلعت للأعلى ولم تتمكن من إخفاء دهشتها لرؤيته. أمضت آنجيلا اليوم كله تحاول إقناع نفسها أنه لم يكن يقصد حقًا ما قاله، وأنه إذا ظهر حقًا فى المساء فلن تطاوعه فيما انتوى عمله.

"كم يبلغ المال السائل؟"، هكذا سألها بكل بساطة، حتى قبل أن تقدم له التحية.

وجدت نفسها تقول على الفور: "اثنان وعشرون ألفًا وثلاثمائة وسبعون جنيهًا".

أخذ هنرى وقته الكافى. راجع ملاحظاته أكثر من مرة ثم وضع المال فى حقيبته البالية. ثبت أن حسابات آنجيلا صحيحة. ناولها إيصالاً بمبلغ ١٩,٤٠٠ ألفًا.

قال لها: "أراك فيما بعد". بينما تعزف الفرقة موسيقى الختام. غادر هنرى قاعة الاحتفال بينما تفرقع كلمات أغنية الختام فى الأجواء بقوة ونشاز. بقيت آنجيلا متحجرة فى مكانها بينما راقبت هنرى يسير مبتعدًا. كانت تعلم أنها إن لم تنهض وتطارد هذا الرجل قبل أن يبلغ البنك، فلن يكون هناك أبدًا خط رجعة.

قال المستشار بيكرنج، مقاطعًا أفكارها: "أهنئك يا آنجيلا على احتفال آخر عرفت كيف تنظمينه على خير ما يرام. لا أدرى كيف كان يمكننا تدبر الأمور لولاك".

قالت آنجيلا، وهى تلتفت نحو رئيس لجنة الاحتفال: "أشكرك".

راح هنرى يشق طريقه خلال الأبواب الدوارة للفندق وينطلق نحو الشارع، مدركًا لأول مرة أن جهل الآخرين بشخصه ليست نقطة ضعف بل موطن قوة فى حقيقة الأمر. كان بوسعه سماع خفقان قلبه بينما يتوجه صوب الفرع المحلى من بنك إتش إس بى سى، وهو أقرب بنك به خزانة ودائع تعمل على مدار الساعة. أودع هنرى مبلغ ١٩,٤٠٠ ألفًا فى الخزانة، تاركًا مبلغ ٢,٩٧٠ معه فى الحقيبة. ثم نادى على سيارة أجرة وهو خروج آخر عن عاداته المعهودة ـ وناول السائق عنوانًا فى وست إند.

توقف التاكسى أمام مؤسسة لم يدخلها هنرى قبل ذلك أبدًا، على الرغم من اضطلاعه بحساباتها لفترة تتجاوز العشرين عامًا.

إنه كازينو بلاك آس؛ حيث حاول المدير إخفاء دهشته عندما رأى السيد برستون يسير داخلاً إليه. هل أتى لإجراء تفتيش مفاجئ؟ لا يبدو هذا معقولاً، كما أن محاسب الشركة لم يتعرف عليه بل اتجه مباشرة نحو مائدة لعب الروليت.

كان هنرى على اطلاع بفرص الفوز والخسارة؛ ذلك لأنه كان يحرر بنفسه موازنة نهاية العام الخاصة بالكازينو فى إبريل من كل عام، وعلى الرغم من الإيجارات، ومعدلات الضريبة، وأجور العاملين والأمن، بل وحتى الأطعمة والمشروبات المجانية الممنوحة للزبائن المهمين، كان صاحب الكازينو ينجح فى إعلان ربح لا بأس به. غير أن هنرى فى هذه الحالة تحديدًا لم يكن يبدى أدنى اهتمام بمسألة ربح المكان، أو تحديدًا خسائره.

اتخذ هنرى مجلسه إلى طاولة الروليت ورأى اللون الأحمر بالطاولة. فتح حقيبته الرثة وأخرج منها عشر ورقات من فئة العشرة جنيهات وناولها للقائم على تنظيم اللعبة، والذى عدها ببطء قبل أن يعطى لـ هنرى مقابلها عشر فيشات صغيرة ذات لونين أزرق وأبيض.

كان هناك عدد من المقامرين يجلسون من قبل إلى الطاولة، يراهنون بفيشات ذات أثمان مختلفة، فئة الخمسة والعشرة والعشرين والخمسين، بل حتى من وقت لآخر بالفيشة ذهبية اللون ذات المائة جنيه. مقامر واحد فقط كانت أمامه كومة من الفيشات الذهبية، وكان ينثرها بعشوائية فوق أرقام مختلفة من أرقام عجلة الروليت. أحس هنرى بالسرور لأنه جذب انتباه جميع من وقفوا حول الطاولة ليتفرجوا.

بينما واصل الرجل الجالس على الطرف الأقصى من المائدة توزيع فيشاته الذهبية على الأجزاء الخضراء اللون، فإن هنرى وضع واحدة من فيشاته فئة العشرة جنيهات على اللون الأحمر. دارت العجلة وأخذت الكرة البيضاء تتدحرج فى الاتجاه المعاكس حتى استقرت أخيرًا على الرقم ١٩ الأحمر. أعاد مشغل اللعبة الفيشة فئة العشرة إلى هنرى، بينما استولى على فيشات ذهبية تتجاوز قيمتها الألف جنيه من المقامر الجالس على الطرف الآخر من الطاولة.

بينما كان مشغل اللعبة يتهيأ للدورة التالية للعجلة، وضع هنرى خلسة فى جيب سترته الأيسر فيشته الوحيدة التى كسبها، فى حين ترك الفيشة الأصلية على الأحمر كما هى.

أدار مشغل اللعبة العجلة من جديد، وهذه المرة توقفت الكرة البيضاء الصغيرة عند رقم ٤ أسود، وهكذا استولى مشغل اللعبة على فيشة هنرى ذات العشرة جنيهات. بعد مراهنتين آخريين عاد هنرى كما بدأ تمامًا، بلا مكاسب أو خسائر. وضع هنرى فيشة بقيمة عشرة جنيهات على اللون الأحمر. كان هنرى قد استقر على أنه إذا غير كل ما معه من مال سائل إلى فيشات ستكون عملية طويلة ومجهدة. غير أن هنرى، وعلى خلاف أغلب المقامرين، كان يتحلى بالصبر الجميل، وهدفه الوحيد كان الخروج دون أية خسائر.



بعد ثلاث ساعات من ذلك، كان قد نجح فى تغيير مبلغ الألفين وتسعمائة وسبعين جنيهًا كله إلى فيشات لعب دون أن يثير ريبة أى شخص، غادر هنرى الطاولة وقصد المشرب. إن كان هناك شخص يتتبع عن كثب ما يقوم به هنرى، فإنه سيلاحظ أنه على وشك أن يخرج من اللعبة بلا أية خسائر. لكن هذه كانت هى نيته تمامًا، وأن كل مبتغاه أن يستبدل بكل الفائض المضاف فيشات قبل أن يتمكن من تنفيذ الجزء الثانى من خطته.

عندما بلغ هنرى المشرب كانت حقيبته الجلاستون قد صارت خاوية وامتلأ جيبه بالفيشات، اتخذ مجلسه إلى جانب امرأة بدا أنها تجلس بمفردها. لم يتحدث إليها و هى لم تبد أى اهتمام به، وعندما طلبت تلك المرأة، آنجيلا، شرابًا آخر، انحنى هنرى للأمام وأودع كل فيشاته فى حقيبة يدها التى تركتها على الأرض بجانبها، وقبل أن يعرف عامل المشرب ماذا يطلب كان هنرى قد توجه بالفعل إلى باب الخروج.

فتح المدير بنفسه له الباب الأمامى.

قال المدير: "أرجو أن نراك ثانية فى القريب العاجل يا سيدى".

أومأ هنرى برأسه، دون أن يتجشم عناء توضيح الأمر للمدير بأن ذلك كله سوف يعد روتينًا ليليًا ثابتًا لديه. ما إن سار هنرى على الرصيف بالخارج حتى سار نحو أقرب محطة لقطار الأنفاق، لكنه لم يشرع فى الصفير حتى استدار نحو الركن.

انحنت آنجيلا وأغلقت حقيبتها، بعد أن أنهت مشروبها بوقت معقول. فى وقت سابق من هذا المساء حاول رجلان التقرب منها ولذلك غادرت المكان وهى تشعر بالإطراء والثقة. تهادت فى مشيتها وسارت لتنضم إلى طابور قصير أمام نافذة تغيير الفيشات بالنقود. عندما بلغت الواجهة الأمامية، دفعت آنجيلا بكومة من الفيشات فئة العشرة جنيهات تحت الشبكة

الحديدية وانتظرت.

سألها الصراف، بعد أن أحصى الفيشات الخاصة بها: "نقدًا أم شيكًا يا سيدتى؟".

فأجابته آنجيلا: "شيكًا من فضلك".

كان السؤال التالى للصراف هو: "باسم من سيكون الشيك؟".

قالت آنجيلا بعد لحظة تردد: "السيدة روث ريتشارد".

كتب الصراف اسم روث ريتشارد، ومبلغ ألفين وتسعمائة وثلاثين جنيهًا، قبل أن يناولها الشيك من تحت الشبكة المعدنية. راجعت آنجيلا الرقم. لقد خسر هنرى أربعين جنيهًا. ابتسمت وقد تذكرت أنه قال لها إن الحساب سوف يتساوى على مدى عام واحد. فعلى كل، كما شرح لها، لم يكن يراهن بالفوائد والفروق، لكنه ببساطة يحول أى نقود سائلة يمكن تتبعها بسهولة إلى شيكات بنكية لا يمكن لأى شخص أن يتتبعها فيما بعد.

تسللت آنجيلا خارج الكازينو عندما رأت المدير يتحدث إلى أحد الزبائن الذى بدا عليه أنه خسر مبلغًا كبيرًا من المال، وقد حذرها هنرى من أن المدير يضع عينًا يقظة على الرابحين أكثر بكثير مما يفعل مع الخاسرين، وبما أنها على وشك أن تباشر جولة طويلة من الربح فينبغى عليها ألا تلفت الانتباه إليها.

أحد شروط الاتفاق التى أكد هنرى عليها هو ألا يتواصل أحدهما مع الآخر فى الكازينو بأى صورة، سواء عندما يجىء ليجمع غنائمه، أو فيما بعد خلال اللحظة القصيرة التى يودع فيها الفيشات بداخل حقيبتها المفتوحة. لم يكن يرغب فى أن يعتقد أى شخص أن وراءهما شيئًا ما. وافقت آنجيلا على تبريره بعد تردد وعلى مضض. كانت نصيحة هترى الوحيدة الأخرى هى أنه لا يجب أن يراها أحد تجمع المال السائل

الحديدية وانتظرت.

سألها الصراف، بعد أن أحصى الفيشات الخاصة بها: "نقدًا أم شيكًا يا سيدتى؟".

فأجابته آنجيلا: "شيكًا من فضلك".

كان السؤال التالى للصراف هو: "باسم من سيكون الشيك؟".

قالت آنجيلا بعد لحظة تردد: "السيدة روث ريتشارد".

كتب الصراف اسم روث ريتشارد، ومبلغ ألفين وتسعمائة وثلاثين جنيهًا، قبل أن يناولها الشيك من تحت الشبكة المعدنية. راجعت آنجيلا الرقم. لقد خسر هنرى أربعين جنيهًا. ابتسمت وقد تذكرت أنه قال لها إن الحساب سوف يتساوى على مدى عام واحد. فعلى كل، كما شرح لها، لم يكن يراهن بالفوائد والفروق، لكنه ببساطة يحول أى نقود سائلة يمكن تتبعها بسهولة إلى شيكات بنكية لا يمكن لأى شخص أن يتتبعها فيما بعد.

تسللت آنجيلا خارج الكازينو عندما رأت المدير يتحدث إلى أحد الزبائن الذى بدا عليه أنه خسر مبلغًا كبيرًا من المال، وقد حذرها هنرى من أن المدير يضع عينًا يقظة على الرابحين أكثر بكثير مما يفعل مع الخاسرين، وبما أنها على وشك أن تباشر جولة طويلة من الربح فينبغى عليها ألا تلفت الانتباه إليها.

أحد شروط الاتفاق التى أكد هنرى عليها هو ألا يتواصل أحدهما مع الآخر فى الكازينو بأى صورة، سواء عندما يجىء ليجمع غنائمه، أو فيما بعد خلال اللحظة القصيرة التى يودع فيها الفيشات بداخل حقيبتها المفتوحة. لم يكن يرغب فى أن يعتقد أى شخص أن وراءهما شيئًا ما. وافقت آنجيلا على تبريره بعد تردد وعلى مضض. كانت نصيحة هنرى الوحيدة الأخرى هى أنه لا يجب أن يراها أحد تجمع المال السائل

العشاء فى مطعم لاباشا. دون أن يشير أحد منهما أدنى إشارة إلى أنها قد نجحت فى التخلص من مبالغ ٢٧٦,٩٠٠، و٣١١,١٥٠، و ٣٦٤,٦١٠ على مدار السنوات الثلاث السابقة، وبعد الانتهاء من كل عملية إيداع كان يصل أحدث الشيكات إلى بنك مختلف فى لندن، ودائمًا باسم السيدة روث ريتشارد. تمثلت المسئولية الأخرى الملقاة على عاتق هنرى فى التأكد من استثمار ثروتهما التى تكونت حديثًا استثمارًا ذكيًا وفعالاً، متذكرًا أنه لم يكن فى النهاية مقامرًا. ومع ذلك، فإن إحدى مزايا الإمساك بدفاتر حسابات الشركات الأخرى هى القدرة على أن تتوقع دون مشقة الشركة التى من المرجح أن تحقق أرباحًا جيدة فى العام التالى، وبما أن الشيكات البنكية لم تحرر أبدًا باسمه أو باسمها فإن الفوائد اللاحقة لم يكن من الممكن تتبعها حتى الوصول إليهما.

بعد أن وصلا للمليون الأول فى رصيد البنك شعر هنرى بأن عليهما أن يجازفا بسهرة عشاء كنوع من الاحتفال. أرادت آنجيلا الذهاب إلى مطعم موزيمان فى شارع وست هالكنز، غير أن هنرى اعترض على الفكرة، وحجز مائدة لشخصين فى مطعم لاباشا. لا حاجة بهما إلى لفت الانتباه إلى ثروتهما المكتسبة حديثًا، هكذا ذكرها.

وخلال تناول العشاء قدم هنرى اقتراحين آخرين. أبدت آنجيلا سعادة هائلة فى الموافقة على الاقتراح الأول، غير أنها لم ترغب فى الحديث عن الاقتراح الثانى. نصحها هنرى أولاً أن تحول المليون الأولى إلى حساب منخفض العوائد إلى بنك كوك آيلاندز بينما يواصل هو نفس سياساته الاستثمارية؛ كما أنه أوصى بأنهما فى المستقبل كلما وصلا إلى مبلغ مائة ألف أخرى فإن آنجيلا عليها أن تحوله على الفور إلى المبلغ المودع فى ذلك الحساب نفسه.

رفعت آنجيلا كأسها، وقالت: "موافقة، ولكن ما هو البند الثانى على جدول الأعمال يا سيادة رئيس مجلس الإدارة؟". هكذا سألته على سبيل المشاكسة. أخذ هنرى يعرض عليها أدق تفاصيل خطة خاصة بالطوارئ. لم تكن هى ترغب فى مجرد التفكير فيها.

ثم رفعت كأسها فى نهاية الأمر، وللمرة الأولى فى حياته، بدأ هنرى يتطلع للتقاعد، والاحتفال مع جميع زملائه فى الشركة فى حفل وداع فى عيد ميلاده الستين.

بعد ذلك بستة شهور، أرسل رئيس مجلس إدارة شركة برسون، كلاتربال آند رينولدز دعوة إلى جميع موظفى الشركة، يطلب منهم الانضمام إلى الشركاء الرئيسيين لتناول المشروبات الخفيفة فى فندق محلى بثلاث نجوم بغرض الاحتفال بتقاعد هنرى برستون ومن أجل شكره على أربعين عامًا من الخدمة المخلصة للشركة.

لم يتمكن هنرى من حضور حفل وداعه بنفسه؛ ذلك أن الأمر انتهى به بالاحتفال بعيد ميلاده الستين وراء القضبان، ومن أجل مبلغ ٨٢٠ جنيهًا فقط لا غير.

راجعت الآنسة فلورنس بلينكنسوب الأرقام مرة بعد أخرى. إذن فقد كانت على صواب فى المرة الأولى. هناك نقص قدره ٨٢٠ جنيهًا من المبلغ الذى أحصته قبل أن يظهر ذلك الضيف غير المدعو، والذى كان يرتدى حلة مخططة، ومعه حقيبة صغيرة ثم اختفى وبحوزته كل المال السائل. لا يمكن أن تقع المسئولية على آنجيلا بالمرة، فعلى كل حال، لقد كانت آنجيلا إحدى تلميذاتها فى مدرسة سانت كاثرين الدينية. صرفت الآنسة بلينكنسوب نظرها عن ذلك الفارق الطفيف باعتباره خطأها

هى، لاسيما أن التبرعات قد ارتفعت كثيرًا عن إجمالى العام السابق.

فى العام التالى سيكون الاحتفال بالمئوية الخاصة بتأسيس المدرسة الدينية، وقد خططت الآنسة بلينكنسوب من الآن بالفعل لاحتفال جدير باليوبيل الذهبى، وقد أخبرت أعضاء لجنتها أن عليهم بذل جهد كبير لتحسين الأوضاع إن أرادوا أن يحققوا رقمًا قياسيًا خلال العام المائة. وعلى الرغم من أن الآنسة بلينكنسوب قد تقاعدت من وظيفة مديرة مدرسة سانت كاثرين قبل نحو سبع سنوات، فقد واصلت معاملة لجنتها من الصديقات والفتيات العجوزات كما لو أنهن مازلن تلميذات فى مرحلة المراهقة.

ما كان من الممكن أن يحقق الحفل المئوى نجاحًا أعظم مما حققه، وكانت الآنسة بلينكنسوب هى أول من انتقى آنجيلا من أجل مديح خاص. وقد أكدت أنه فى رأيها الخاص أن السيدة آنجيلا فورستر قد بذلت قصارى جهدها حقًا.

على الرغم من هذا، فإن الآنسة بلينكنسوب العجوز شعرت بضرورة أن تحصى المال الذى جمعوه تلك الليلة ثلاث مرات، قبل أن يظهر ذلك الرجل الصغير ويأخذ المال كله بعيدًا. حين قامت بمراجعة الأرقام فى وقت تال من هذا الأسبوع، وعلى الرغم من أنهم قد حققوا رقمًا يتجاوز آخر أرقامهم بمعدل لا بأس به، فإن المبلغ المودع كان أقل بألفى جنيه من الرقم الذى دونته بالقلم على ظهر بطاقة دعوتها.

شعرت الآنسة بلينكنسوب أنها لا حيلة أمامها إلا أن تعلن عن هذا الفارق (الذى حدث لعامين متتاليين) لرئيستها السيدة ترافنجتون، والتى سألت زوجها النصح بدورها، والذى كان رئيس لجنة المراقبة المحلية. قبل أن يقوم السيد دافيد بإطفاء المصباح المجاور للفراش تلك الليلة، وعد زوجته أنه سيتحدث إلى مأمور الشرطة فى الصباح.

عندما علم مأمور الشرطة بأمر هذا الاختلاس، وضع التفاصيل كلها بين يدى رئيسه المباشر، والذى مرر الكرة بدوره إلى رئيس مفتشى المباحث، والذى ود لو يخبر رئيسه أنه يعمل على قضية القبض على أحد القتلة وكذلك محاولة التوصل لشحنة هيروين سيبلغ ثمن بيعها فى الشارع أكثر من عشرة ملايين. والحقيقة أن مدرسة سانت كاثرين لم تفقد أكثر من ألفى جنيه، كما تبين له عند مراجعة دفاتره، وهو ما لم يكن من المرجح أن يوضع على رأس قائمة أولوياته. قام بإيقاف أول شخص التقاه فى الردهة وأسلمه ملف الموضوع. "أريد أن أرى تقريرًا كاملاً بالأمر على مكتبى قبل الاجتماع التالى للجنة المراقبة فى الشهر القادم، مفهوم أيتها الرقيبة؟".

انطلقت الرقيبة المحققة جانيت سيتون فى مهمتها بهمة وكأنها تسعى فى أثر أخطر سفاح على وجه الأرض.

أول شىء قامت به أنها قابلت الآنسة بلينكنسوب والتى أبدت تعاونها التام، ولكنها أكدت أيضًا أنه من المستحيل أن تكون إحدى بناتها وتلميذاتها متورطة فى أمر مشين كهذا، وبالتالى لم يتم استجواب أى منهن. بعد ذلك بعشرة أيام، قامت المحققة سيتون بشراء تذكرة إلى حفل نادى خيول بيبنجتون الخيرى، على الرغم من حقيقة أنها لم تركب حصانًا طوال حياتها.

وصلت المحققة سيتون إلى الحفل قبيل دق الجرس وإعلان دعوة الحضور إلى مائدة العشاء. سرعان ما تعرفت على آنجيلا فورستر، حتى قبل أن تجد الطاولة التى ستجلس إليها. ومع أن المحققة سيتون اضطرت لتجاذب أطراف الحديث مع الرجال المجاورين لها على الطاولة فإنها راحت تنقل عينيها حيثما ذهبت السيدة فورستر. فى وقت تقديم الجبن والقهوة، كانت المحققة قد توصلت لمحصلة مفادها أنها تتعامل مع محترفة ذات براعة تامة؛ لأن السيدة فورستر لم تكن قادرة وحسب

على التعامل من وقت لآخر مع نوبات غضب واندفاع ليدى بيبنجتون، زوجة رئيس النادى والرابطة، بل إنها كذلك كانت تجد الوقت لكى تنسق عمل الفرقة الموسيقية، وتهتم بأمور المطبخ، والنادلين، وعمل الفقرات الترفيهية وكذلك فريق المتطوعين دون أن تهرول أو تتحرك بسرعة ولو لمرة واحدة. لكن الأمر الأكثر مدعاة للدهشة هو أنها لم يبد عليها أنها مهتمة مطلقًا بمسألة جمع أموال التبرعات؛ فقد كان هذا مسئولية مجموعة من سيدات المجتمع، ممن اضطلعن بأداء المهمة دون أن يبدو أنهن بحاجة لاستشارة آنجيلا.

عندما بدأت الفرقة الموسيقية فى تقديم أولى فقراتها، حاول أكثر من شاب مجالسة المحققة الشابة، لكنها رفضت، ورفضت أحدهم على وجه الخصوص بعد شىء من التردد.

كانت الساعة تقارب الواحدة صباحًا عندما بدا أن السهرة تشارف نهايتها، وعندئذ أمكن للمحققة أن ترى الرجل الذى كانت بانتظاره. من بين السترات السوداء والحمراء كان من السهل تحديده أكثر من سهولة تحديد ثعلب يجرى فى مكان فضاء، كما أنه طابق الوصف الدقيق الذى قدمته الآنسة بلينكنسوب العجوز: رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، أصلع الرأس ويبلغ الستين من عمره تقريبًا ويرتدى ملابس تليق أكثر بمحاسب بائس أكثر من ضيف فى حفل خيرى. لم ترفع عينيها من عليه بينما راح هو يسير دون تسرع أو تطفل حول الحافة الخارجية للساحة إلى أن اختفى وراء الفرقة الموسيقية. تركت المحققة الشابة مائدتها فى الحال وتوجهت نحو الجانب الآخر من قاعة الحفل، ولم تتوقف إلا حين تمكنت من أن ترى الاثنين رؤية واضحة تمام الوضوح. الرجل الذى يجلس الآن بجانب آنجيلا كان يحصى المال السائل، غير منتبه إلى زوج العيون الذى كان يراقبه. حدجت المحققة فى آنجيلا، بينما كان الرجل يقوم بوضع الشيكات البنكية ووثائق السندات والمال

السائل في كومات منفصلة. لم يتبادلا ولو كلمة واحدة.

بعد أن تأكد هنرى من إحصاء المال السائل مرة بعد أخرى، لم يتطلع نحو آنجيلا ولو بنظرة أخرى واحدة، فقد وضع النقود فى حقيبته وأسلمها وصلاً بالتسلم. ولم يقدم تحية لـ آنجيلا أكثر من انحناءة بالرأس، ثم عاد أدراجه ملتفًا حول الساحة من جديد وغادر قاعة الاحتفال مسرعا. لم يقتض الأمر كله منه أكثر من سبع دقائق. غير أن هنرى لم ينتبه إلى أن واحدة من المدعوات كانت تسعى فى أثره على مبعدة خطوات منه، والأهم من ذلك أنها لم تغفل عن مراقبته بعينيها طرفة عين.

كانت المحققة الشابة سيتون مازالت تراقب الرجل مجهول الهوية بينما يسير مسافة طويلة عبر البوابات المزخرفة بالحديد المشغول، وباتجاه القرية.

وبما أنها كانت ليلة صافية، والشوارع خالية، فإن المحققة سيتون لم تجد أية مشقة فى متابعة تقدم الرجل صاحب الحقيبة دون أن يلحظها. لابد أنه يشعر بثقة مطلقة بما أنه لم ينظر للوراء ولو لمرة واحدة. اضطرت لأن تندس فى الظلام مرة واحدة؛ وذلك عندما توقف هدفها أمام الفرع المحلى لبنك نات وست. فتح حقيبته وأخرج اللفافة ووضعها فى الخزانة الليلية، ثم واصل طريقه بعد ذلك، دون أن يخفف من إيقاع سيره الحثيث. إلى أين كان متجهًا؟

كان على المحققة الشابة أن تأخذ قرارًا فوريًا. فهل عليها أن تواصل مراقبة هذا الغريب، أم تعود أدراجها إلى قاعة حفل بيبنجتون لترى ما الذى ستفعله السيدة فورستر؟ فى النهاية عملت بالنصيحة التى طالما وجهها إليها المشرف عليها فى كلية الشرطة: اتبعوا رائحة المال. عندما وصل هنرى إلى المحطة أطلقت المحققة صيحة تذمر؛ فقد تركت سيارتها فى مرآب قصر الاحتفال، وإن كان عليها أن تواصل مطاردة رجل الحقيبة

فإن عليها أن تنسى أمر سيارتها؛ ثم تأتى لأخذها ما إن تطلع شمس الغد.

بعد ذلك بدقائق معدودة وصل آخر قطار متجه إلى واترلو تلك الليلة إلى محطة بيبنجتون. صار من الجلى أن الرجل صاحب الحقيبة قد ضبط توقيت كل شىء بالدقيقة الواحدة. ظلت المحققة خارج نطاق نظره إلى أن استقل هدفها المشبوه القطار، فاتخذت مقعدًا فى العربة التالية للعربة التى ركبها.

عندما بلغا محطة واترلو نزل الرجل عن القطار وشق طريقه على وجه السرعة نحو أقرب موقف لعربات الأجرة. وقفت المحققة إلى أحد الجوانب وراقبته بينما يتقدم حتى صدارة الصف. فى اللحظة التى استقل فيها إحدى عربات الأجرة، سارت المحققة بسرعة حتى مقدمة طابور عربات الأجرة، وأبرزت تصريحها المهنى واعتذرت بسرعة للشخص الذى كان على وشك أن يستقل سيارة الأجرة. قفزت إلى داخل السيارة وأمرت السائق بأن يتبع سيارة الأجرة التى تحركت لتوها خارج الصف.

عندما أوقف السائق سيارة الأجرة أمام كازينو بلاك آس، بقيت المحققة بداخل العربة التى استقلتها إلى أن اختفى الرجل بداخل الكازينو.

أخذت وقتها الكافى لتدفع للسائق أجرته ثم خرجت من السيارة لتتبع طريدها إلى داخل الكازينو. ملأت استمارة بعضوية مؤقتة؛ لأنها لم ترغب أن يدرك أى شخص حقيقة مهمتها.

أخذت المحققة سيتون تتجول فى أرجاء المكان وتتفحص بعينيها طاولات اللعب. اقتضى منها الأمر بضع لحظات قبل أن تقع عيناها على رجلها المستهدف يجلس إلى واحدة من طاولات الروليت. اتخذت خطوة إلى الأمام وانضمت إلى الواقفين للمشاهدة ممن شكلوا حدوة حصان حول الطاولة.

حرصت المحققة أن تكون على مسافة من هدفها؛ لأنها بثوبها الطويل الحريرى الأزرق، والأكثر ملاءمة لحفل الكازينو، قد تلفت انتباهه، وربما تساءل إن كانت قد تبعته من قصر بيبنجتون.

على مدى الساعة التالية شاهدت الرجل يخرج من حقيبته أكوامًا من النقود السائلة على فترات منتظمة، ثم يستبدل بها فيشات. وبعد مضى الساعة صارت الحقيبة خاوية بكل وضوح لأنه غادر الطاولة وعلى وجهه نظرة كآبة، وشق سبيله نحو المشرب.

فهمت المحققة سيتون مغزى الحكاية. لقد كان الرجل مجهول الهوية يختلس مالاً من تبرعات الاحتفالات الخيرية من أجل أن يمول عادته فى المقامرة، لكنها مازالت غير واثقة إن كانت آنجيلا لها يد فى ذلك أم لا.

وقفت المحققة وراء عمود رخامى بينما جلس الرجل على أحد مقاعد المشرب المرتفعة التى لا ظهر لها بجوار سيدة ترتدى ثوبًا أزرق قصيرًا.

أمازال معه من النقود ما يكفى ليدعو هذه المرأة إلى شراب؟ اتخذت المحققة خطوة للأمام من وراء العمود ونظرت نظرة أكثر قربًا، عندما رأت أن هنرى بدأ يسير متجهًا صوب باب الخروج انطلقت فى أثره تكاد تجرى. بعد ذلك، وبعده بوقت طويل، فكرت المحققة سيتون أنه كان غريبًا منه أن يغادر المشرب دون أن يحتسى شرابًا. لعل المرأة التى تجلس إلى المشرب رفضت دعوته فأُحبِطَ وغادر.

خطا هنرى نحو رصيف الشارع وصاح مناديًا على سيارة أجرة، وأوقفت المحققة سيارة أجرة وتبعت سيارته بينما سلكت سبيلها فوق جسر بوتنى وواصلت رحلتها على طول الضفة الجنوبية للنهر. توقفت سيارة الأجرة أخيرًا قبالة مبان سكنية فى واندسورث. دونت المحققة سيتون العنوان وقررت

أنهـا تستحق أن تعـود بسيارة الأجرة ذاتهـا لمنزلها. بعد كل هذا الجهد.



فـى الصباح التالى وضعت المحققة سيتُون تقريرها الوافى على مكتب المفتش العام. قرأه المفتش وابتسم وغادر مكتبه وسار فى الردهـة ليعلم المأمور بالمستجدات، والـذى قام بدوره بالاتصال بكبير المحققين، الذى قرر بدوره ألا يذكر شيئًا من هذا لرئيس لجنـة المراقبـة إلا بعد القبض على الرجـل؛ لأنه رغب أن يقدم للسـير دافيد قضية بسيطة ومنتهيـة؛ قضية لا يجد المحلفون حيالها خيارًا آخر إلا إدانة المتهم.

قـام هنرى بإيداع المال المجموع من حفل مؤسسة باترفلاى فى خزانـة تحـت الأرض تفتح على مـدار الساعة ببنك تـى إس بى، والذى لا يبعد أكثر من مائة ياردة عن الفندق الذى انعقد فيه حفل العشاء السنوى. لابد أنه قد سار ثلاثين ياردة أخرى قبل

أن تتوقف إلى جواره سيارة شرطة. لم يكن هناك أى مغزى من الإسراع بتطويقه ومهاجمته، فلم تكن بنية هنرى الجسدية تعينه على المقاومة أو الركض. وعلى أى حال، فقد خطط من قبل لمثل هذه اللحظة، ورسم فى عقله أدق تفاصيلها. تم القبض على هنرى ومحاكمته قبل يومين اثنين من الموعد المقرر لاجتماع لجنة المراقبة.

اختار هنرى السيد كليفتون سميث لتمثيله قانونيًا، وهو محام أمسك هنرى دفاتر حساباته على مدى العشرين عامًا الماضية.

أنصت السيد كليفتون سميث خير إنصات لدفاع موكله، مدونًا ملاحظات كثيرة، ولكن عندما وصل هنرى أخيرًا إلى نهاية قصته، لم يكن لدى المحامى إلا نصيحة واحدة فقط يسديها له: أن يعترف بالتهمة الموجهة له.

أضاف المحامى قائلا: "سوف أعمل بالطبع على إطلاع المستشار على أية ظروف خاصة قد تسهم فى تخفيف الحكم".

قَبِل هنرى نصيحة محاميه؛ فعلى كل حال لم يراجع السيد كليفتون سميث، خلال العشرين عامًا الماضية، هنرى فى رأى أو نصيحة، وهكذا بنيت الثقة بينهما.

لم يحاول هنرى أن يتصل بـآنجيلا فى أثناء فترة المحاكمة، وعلى الرغم من أن رجال الشرطة كانوا على ثقة تامة من أنها شريكة له فى الجريمة، فسرعان ما أدركوا أنهم كان ينبغى عليهم ألا يقبضوا عليه حتى يصل إلى الكازينو مرة ثانية. من كانت المرأة التى كانت تجلس إلى المشرب؟ هل كانت بانتظاره؟ أمضت وحدة الجرائم الخاصة أسابيع فى جمع أعقاب الشيكات البنكية من الكازينوهات فى طول لندن وعرضها، لكنهم لم يعثروا على شيك واحد محرر باسم السيدة آنجيلا فورستر،

والأكثر مدعاة للحيرة لم يتوصلوا لشيك واحد محرر باسم هنرى برستون. فهل كان يخسر فى المقامرة على الدوام؟

عند مراجعتهم لدفاتر احتفالات آنجيلا، اكتشفوا أن هنرى كان هو المسئول على الدوام عن إحصاء النقود السائلة، وتوقيع إيصالات التسلم. كان حسابها البنكى منتقى من مجموعة من سندات وأسهم لكبرى الشركات، ووجدوا فى رصيدها مبلغ ١١,٣١٨ لا أكثر، مبلغ لم يزد على ذلك أو يقل كثيرًا خلال الأعوام الخمسة الماضية. عندما قامت المحققة سيتون بتقديم تقرير واف للآنسة بلينكنسوب بدا أن العجوز على ثقة تامة بأنه قد تم القبض على المتهم المسئول فعلاً عن الجريمة. فعلى كل حال، وكما آخبرت المحققة من قبل، فإنه من المستحيل أبدًا أن تتورط واحدة من تلميذاتها وبناتها، خريجات مدرسة سانت كاثرين، فى أمر شائن كهذا.

ولأن قضية اصطياد القاتل الطليق لم تنته بعد، ولأن محاولة إفشال عملية تهريب الهيروين مازالت قيد التنفيذ، فقد أمر كبير المفتشين بإغلاق ملف قضية اختلاس المال من أموال تبرعات مدرسة سانت كاثرين؛ فقد ألقوا بالقبض على متهم، وكان هذا كل ما يهم عند تحرير تقرير الأداء السنوى وإحصاءات الجريمة السنوية.

وبعد أن قبل المستشارون الماليون بأنهم لا يمكنهم تعقب أثر أى مال مفقود، نجح محامى هنرى فى التوصل لتسوية بغرض تخفيف الحكم مع النيابة العامة الخادمة لجلالة الملكة. وكانت التسوية كالتالى، إن اعترف بذنبه فى اختلاس مبلغ ١٣٠٠٠٠ ألف جنيه وأبدى استعداده لرد المبلغ كاملاً للأطراف المتضررة والمعنية، فإن النيابة ستوصى بتخفيف العقوبة.

تساءل القاضى بينما ألقى بنظره نحو الأسفل؛ حيث يجلس هنرى ومحاميه: "هل هناك ظروف خاصة تدعو لتخفيف

العقوبة فى هذه القضية ترغب فى لفت انتباهنا نحوها يا سيد كاميرون؟".

أجاب آلكس كاميرون، أحد المستشارين الكبار، بينما نهض بتأن من مكانه: "هناك ظروف تدعو لذلك بلا جدال سيدى القاضى؛ فإن عميلى لم يخف إدمانه المخزى للمقامرة، والذى كان وراء سقوطه المأساوى. ومع ذلك"، هكذا واصل السيد كاميرون قائلاً: "أشعر بثقة تامة بأن سيادتكم سوف تضعون فى الحسبان أنها السابقة الأولى لموكلى، وأنه فيما عدا هذه الزلة المؤسفة فى إساءة الحكم كان لوقت طويل وجهًا من وجوه المجتمع الشريف والنبيل بسمعة لا تشوبها شائبة. وحقيقة الأمر، أن موكلى قد ظل لسنوات يقدم خدمته المتفانية لدار العبادة التى يتبعها؛ حيث عمل لها كمحاسب تطوعًا دون أى مقابل، وهو ما سوف تتذكره يا حضرة القاضى عند شهادة رجال الدين المعنيين".

تنحنح السيد كاميرون قبل أن يواصل قائلاً: "سيادة القاضى، إنك ترى أمام عينيك رجلاً محطمًا ومهزومًا ومفلسًا، لم يعد بين يديه شىء يعتمد عليه خلال سنوات الوحدة الطويلة لفترة تقاعده"، ثم أضاف السيد كاميرون مراجعًا ما دونه من ملاحظات: "بل إنه اضطر حتى لبيع شقته فى واندسورث حتى يسدد ما عليه من ديون". توقف قليلاً ثم قال: "لعلك تشعر يا سيادة القاضى بأن موكلى قد عانى بما فيه الكفاية؛ وبناء على ذلك يستحق معاملة رحيمة ومتسامحة"، وابتسم السيد كاميرون فى وجه القاضى ابتسامة آملة، وعاد لموضعه.

نظر القاضى نحو محامى دفاع هنرى، ورد له ابتسامته بمثلها، ثم قال: "لا، ليس بما فيه الكفاية يا سيد كاميرون. وحاول ألا تنسى أن السيد بريستون كان صاحب مهنة محترمة وقد خان الثقة الموكلة إليه، ولكن أولاً دعنى أذكر موكلك"، ثم التفت عن ذلك القاضى نحو هنرى، وواصل يقول: "إن المقامرة

داء عضال، داء ذميم حرمته جميع الشرائع، وأن على المتهم أن يسعى وراء العلاج ما إن يتم إطلاق سراحه من السجن".
تحامل هنّرى على نفسه، محتملاً كل هذا التأنيب والتوبيخ، على أمل أن يعرف فى نهاية هذه المحاضرة التى كان فى غنى عنها، المدة التى سيحكم بها عليه القاضى.

لزم القاضى الصمت لبرهة امتدت كأنها الدهر، لكنه واصل تحديج هنرى بنظرته الصارمة، ثم قال: "إننى أحكم عليك بثلاثة أعوام"، ثم أضاف بعد قليل: "اصحبوا السجين للأسفل".

تم نقل هنرى إلى سجن فورد المفتوح. وفى السجن ما من أحد لاحظه حين دخل، وما من أحد انتبه إليه حين خرج. استمر فى وجوده الخفى عن الجميع بداخل السجن كما كان بخارجه. لم يتلق رسائل، لم يجر اتصالات هاتفية أو يستقبل زوارًا، وعندما أطلقوا سراحه بعد ذلك بثمانية عشر شهرًا، بعد أن أتم نصف المدة، لم يكن هناك أحد ينتظره عند بوابات الخروج، لكى يحيِّيَه ويعانقَه.

تقبل هنرى برستون مبلغ الخمسة والأربعين جنيهًا الذى يدفع للسجين عند إطلاق سراحه، وشوهد لآخر مرة يتوجه نحو محطة السكة الحديد، حاملاً حقيبته من ماركة جلادستون التى لا تحتوى إلا على ممتلكاته الشخصية، لا غير.

كان كل من السيد والسيدة جراهام ريتشاردز يستمتعان بعيشة رغدة، مثل أى شخص يقضى فترة تقاعده على جزيرة مايوركا الخرافية. كان لديهما فيلا صغيرة تطل مباشرة على خليج بالما، وأثبت كل منهما أنهما موضع حب السكان المحليين.

فى الاجتماع السنوى العام لأعضاء نادى أوفرسيز الملكى فى بالما، قام رئيس النادى بالإعلان بأنه نجح أخيرًا فى إقناع

المدير المالى السابق لشركة بترول نيجيرية وطنية كبرى، بأن يكون محاسبًا متطوعًا بدون أجر للنادى. تبع إعلانه هذا إيماءات، وكلمات استحسان، ونوبات من التصفيق الحار. واصل رئيس النادى كلامه مقترحًا بأن يدون سكرتير الاجتماع ملاحظة فى مضبطة الجلسة تقول إنه مادام السيد ريتشاردز هو من سيتولى مسئولية الأمور المالية والمحاسبية فسوف تكون حسابات النادى فى أدق وأروع حالة ممكنة.

ثم أضاف معقبًا: "وبالمناسبة؛ فإن زوجته روث وافقت عن طيب خاطر أن تنظم لنا حفلنا الخيرى السنوى".

دلیل نفی



قال مايك: "لقد أفلت بجريمة قتل، أليس كذلك؟".

سألته: "كيف أمكنه أن ينجح فى هذا؟".

فقال مايك: "لأنه حين يشهد حارسان فى السجن بأن شيئًا ما قد حدث، فهذا إذن ما قد حدث، ولا يمكن لأى واحد من السجناء أن يخبرك بأى شىء مختلف. أتفهمنى؟".

أجبته قائلاً: "كلا، لست أفهمك".

فقال مايك: "سوف أشرح لك الأمر إذن، هناك قاعدة ذهبية بين السجناء - إياك أن تتودد إلى فتاة زميلك بينما هو ملقى فى السجن؛ فهذا كله جزء من العرف السائد".

"قد يكون أمرًا قاسيًا على فتاة شابة إذا ما سجن فتاها لفترة طويلة، أن يحكم عليها بالبقاء دون أية علاقات عاطفية خلال نفس العدد من السنوات المحكوم بها على فتاها".

قال مايك: "ولكن المسألة ليست كذلك، لأن بيت قال لـ كارين بمنتهى الوضوح إنه سوف ينتظرها".

قلت مقترحًا: "ولكنه لن يذهب إلى أى مكان على مدى السنوات الست التالية".

قال مايك: "فاتك مربط الفرس يا زميلى جيف، إنه العرف السائد، ولكى نفى الفتاة حقها لم يكن هناك أى غبار على سلوك كارين خلال أول ستة أشهر، بعدها زلت قدمها وحادت عن الطريق، وهكذا تودد إليها أقرب أصدقاء بيت، وهو براين، الذى كان يتقرب منها لفترة قبل أن ترتبط هى بـ بيت، فقد كانا معًا، هى وبراين، أيام المدرسة الإعدادية. لكن هذا لا يدخل فى الحسبان لأن كارين كانت قد نفضت يديها من

الماضى وعلاقاته القديمة ما أن تعرفت على بيت، أتفهمنى؟".

قلت: "أحسب أننى أفهمك".

"وانتبه جيدًا: لأن القاعدة لا تنطبق على بيت على اعتبار أنه رجل. إنه المنطق فقط، أليس كذلك؟ لأن الرجال مختلفون. إننا الأسود، والنساء هن الحملان". أعتقد أن اللبؤات كانت هى الكلمة الأكثر ملاءمة، ومع ذلك فإننى أعترف أننى لم أصرح برأيى هذا ساعتها. واصل مايك قائلاً: "ومع ذلك، فالقاعدة واضحة كل الوضوح، لا يجب أن يتودد الزميل إلى فتاة زميله بينما يقاسى هذا الزميل ويلات السجن".

وضعت قلمى وواصلت الإنصات إلى تعاليم مايك المقدسة ـ وهو لص منازل آخر يواصل الدخول إلى السجن والخروج منه كأن أبواب السجن دوارة لا تؤدى إلا إليه. قررت أن أتخلى عن أى محاولة لكتابة يومياتى؛ فقد كان من الواضح أن مايك شهيته مفتوحة على الكلام ولن يستطيع أى شىء أن يوقفه ـ وبالطبع لن أفعل ذلك أنا. وبما أن الأبواب قد أغلقت ولا مهرب لى منه، فقد قررت أن أبدأ بتدوين كلماته، ولكننا بحاجة إلى معرفة القليل عنه فى البداية.

كان مايك بويل هو شريك زنزانتى فى سجن لنكولن، وكان يقضى فترة عقوبته التاسعة على مدار السبعة عشر عامًا الماضية، وكلها ناتجة عن سرقة المنازل. كان يتباهى قائلاً: "قد أكون هجامًا على البيوت، لكننى لا يمكننى أن ألجأ أبدًا إلى العنف، ألا تتفق معى يا زميلى؟ " هكذا أضاف، فى محاولة واضحة لكى يظهر لى أنه تحلى بأخلاق سامية. أخبرنى أن له ستة أطفال من خمس نساء مختلفات، ولكنه لا اتصال له بأى واحدة منهن حاليًا، ولابد أن الدهشة بدت على وجهى، لأنه أضاف قائلاً: "لا تقلق نفسك يا جيف، فهن وأطفالهن جميعًا تحت رعاية الشئون الاجتماعية".

واصـل مـايك حديثـه قائلاً: "إن رغب الواحـد منا فى فتاة يرافقهـا، فسيجـد كثيرات منهن متوفـرات دون أن يخرجن مع زميل له إذا ما سجن، وهكذا فالعلاقات العاطفية مثل السجون، تجـد هذا يـدخل وذاك يخرج، دائما وأبـدًا، واحد يدخل والثانى يخرج"، راح يكررها، وهو يضحك على مزحته.

مـن يلعـب دور البطولـة فى هـذه الحكايـة، أو دور الشرير، وفقًـا لوجهة نظـرك فيها، هو صديق مايـك واسمه بيت بايلى، وقـد حوكـم بتهمة سطـو خطير وهو ما كشف عـن آثام عديدة، وخصوصًـا إذا مـا طلب مـن المحكمة أن تضع فـى الاعتبار، بعد إثبـات أنـه مذنب، مائة واثنتى عشـرة جريمة مماثلة لجريمته فى صحيفة سوابقه.

"والنتيجة؟ حكم على بيت بستة أعوام فى السجن". توقف مايـك قليـلاً ليلتقـط أنفاسه. "ومـع ذلك فقد تمكـن من قتل أقـرب أصدقائـه بينما كان بداخل السجن وأفلت بجريمته تلك من العقوبة، أليس كذلك؟".

"هـل نجـح فـى ذلـك حقًـا؟"، سألتـه وقـد بـدا علـى بعض الاهتمام الزائد.

قـال مايـك: "نعـم، بـكل تأكيد نجح فـى هـذا، كان صاحبنا يعـرف أنـه لن يمضـى فى السجن أكـثر من ثلاث سنـوات، أى نصـف العقوبـة، بمـا أنـه كان دائمًا يتحـول إلى مواطـن حسن السـير و السلـوك ما إن يدخـل إلى السجن، أمر منطقى، أليس كذلك؟ وهكذا فبعد أن أمضى خمسة عشر شهرًا فى واكفيلد ـ وهـو سجن رهيب ـ أرسلـوه إلى خليج هولزلى حيث يوجد أحد السجـون المفتوحة فـى صافولك، أليس كذلك؟ مـن أجل إنهاء عقوبتـه. إنـه معسكـر لعـين يشبه معسكـرات الإجـازات. أتفهم النظريـة؟ " واصل مايك قائـلاً: "النظرية هى أن الغرض من السجـن المفتوح هو تأهيلك للعـودة إلى المجتمع من جديد. نوع مـن الأمـل. كل ما قام به بيت هو قضـاء الوقت بمكتبة السجن

ليقرأ أعدادًا من مجلة حياة الريف، التى يتبرع بها للمكتبة فاعلو الخير الحمقى - بحيث يتسنى له أن يعرف مقدمًا أى المنازل سوف يسطو عليها ما إن يخرج من السجن". تابع مايك حديثه قائلاً: "والآن هناك قاعدة ذهبية أخرى فى أى سجن مفتوح، وهى أنه مسموح للسجين بزيارة واحدة كل أسبوع، ليس الأمر مثل الزيارة الواحدة شهريًا المسموح لك بها فى السجون المشددة؛ الزيارة الأسبوعية مسموح بها للسجين مادام متميزًا، ولم يتم رفع أى تقرير عنه خلال شهر على الأقل".

تساءلت: "متميزًا؟".

"أى أن السجين يسلك سلوكًا حسنًا لمدة ثلاثة شهور على الأقل، وعندما يحدث هذا يصير متميزًا، بمعنى أنه يتمتع بكل أنواع المزايا، مثل قضاء مزيد من الوقت خارج زنزانته، والحصول على وظائف أفضل بالسجن، بل الحصول على أجر أفضل فى بعض السجون".

"وكيف يرفعون عن السجين تقريرًا؟".

"هذا أسهل شىء. الكلام النابى فى وجه أى حارس، الوصول متأخرًا عن موعد عملك، الكشف عن تعاطيك المخدرات بعد الاختبار. بل إنهم رفعوا عنى تقريرًا ذات مرة لسرقتى برتقالة من المطبخ".

سألته: "إذن هل تم رفع أى تقرير عن صديقك بيت؟"

أجابنى مايك: "أبدًا. كان سلوكه مثاليًا، أليس كذلك؟ لأنه كان يرغب فى زيارة من فتاته، أمضى شهوره الثلاثة يعمل بالمخازن ولم يقرب المخدرات، وهكذا، صار صاحبنا متميزًا. ويوم الأحد التالى ظهرت فتاته فى السجن لزيارته.

فى السجون المفتوحة، تعقد الزيارات فى أكبر القاعات المتاحة، غالبًا فى صالة الألعاب الرياضية أو فى المقصف. ولابد أن تتذكر، الأمن غير متشدد كما هو فى السجون مشددة الحراسة، بكلابهم التى تتشمم أى شىء مريب وكاميرات

المراقبة التليفزيونية التى تتبع كل حركة تقوم بها، وهكذا يمكنك فى السجون المفتوحة أن تتصرف على طبيعتك مع فتاتك". توقف قليلاً ثم تابع قائلاً: "طبعًا، فى حدود معينة. أقصد أنك لا تستطيع أن تختلى بها بطبيعة الحال كما يفعلون فى سجون السويد. تعرف ذلك بالتأكيد ـ ماذا يسمونها هناك؟".

"زيارات زوجية".

"ليكن، المهم أنه اختلاء وهو ما لا يسمحون به هاهنا. أما هنا، فالحارس لن يبالى إذا ما وضع أحد المساجين يده فى يد فتاته، ولكن هذا يذكرنى بموقف جرى فى أحد السجون، عندما..".



ذكرته قائلاً: "نرجع لصاحبنا بيت".

"أوه، صحيح، بيت. على كل حال، أتت كارين لزيارة بيت يوم الأحد التالى. وسار كل شئ على خير ما يرام إلى أن سألها بيت عن صديقه براين، وهنا توقف تدفق الحديث على لسان

كارين فجأة، ولم تنبس بكلمة واحدة؟ واحمر وجهها مثل ثمرة الطماطم. وفهم بيت حقيقة الأمر على الفور، فهم ما تورطت فيه فتاته، لقد ارتبطت بأعز أصدقائه بينما هو بالداخل. لقد جعلته يستشيط غضبًا، أليس كذلك؟ وهكذا وثب بيت من مكانه وصفعها. تكومت كارين على الأرض. وانطلق الإنذار على الفور وجاء الحراس ركضًا من كل باب. اضطروا لأن يشدوه شدًا بعيدًا عن كارين ويجرجروه حتى غرفة الحبس الانفرادى. هل سبق لك أن جربت الحبس الانفرادى؟".

"كلا، لم يسبق لى".

"حسنًا"، سوف أحكى لك عنها. زنزانة خالية من أى شىء، حشية للنوم على الأرضية، وحوض اغتسال من حديد مركب فى الجدار ومرحاض من حديد أيضًا لا ماء به، وفى اليوم التالى رفع تقرير عن بيت، ومثل أمام مأمور السجن، ولابد ألا تنسى أن مأمور السجن له سلطة بلا حدود؛ فهو ليس بحاجة إلى قاض أو هيئة محلفين لمساعدته فى إقرار ما إذا كان المتهم مذنبًا أم لا - فقوانين وزارة الداخلية تكفيه تمامًا".

"وما الذى حدث لـ بيت إذن؟".

"عاد إلى السجن المشدد الحراسة، وتم شحنه إلى سجن لنكولن فى اليوم ذاته، بعد إضافة ثلاثة شهور أخرى إلى فترة عقوبته. بعض المساجين، عندما يعودون إلى السجن المشدد الحراسة يفقدون أعصابهم، ويبدأون فى تكسير المكان كله، ويتعاطون المخدرات، ويشعلون النيران فى زنازينهم؛ بحيث إنهم لا يخرجون من السجن أبدًا نظرًا لتمديد فترة عقوبتهم على الدوام. لقد سجنت ذات مرة مع واحد من هؤلاء الحمقى فى ليفربول. بدأ بفترة عقوبة ثلاث سنوات وهو مازال مسجونًا - وقد مرت الآن إحدى عشرة سنة. فى آخر مرة مثل فيها أمام مأمور السجن...".

قلت له محاولاً ألا أبدو ساخطًا: "لنرجع إلى بيت".

"آه، صحيح، بيت. لكن بيت على عكس هؤلاء الحمقى سار في الاتجاه المعاكس".

"الاتجاه المعاكس؟".

"بينما كان مسجونًا فى سجن لنكولن كان مستقيمًا ونظيفًا تمامًا، وبعد مضى ثلاثة شهور صار متميزًا من جديد، واستعاد كل المزايا التى كان قد خسرها. حصل على عمل بالمطبخ، وكان يكدح مثل العبيد، وبعد ستة شهور قدم طلبًا ليسمحوا له باستقبال زوار وأجيب إلى طلبه، باستثناء ألا تكون الزائرة هى كارين سلاتر، وعلى كل حال لم يكن يرغب بالمرة فى رؤية تلك المنحلة مرة أخرى. كلا، فهذه المرة طلب بيت زيارة من أحد أصدقائه القدامى والذى كان بخارج السجن فى ذلك الحين. وهكذا فإن هذا الصديق أكد له علاقة كارين وبراين، ليس هذا وحسب بل أخبره أنها انتقلت لتعيش معه فى بيته، بينما بيت وراء القضبان فى لنكولن. قال مايك: "يالها من امرأة وقحة، بل إن صديق بيت سأله عما إذا كان يريده أن يقتل براين، لكن بيت قال له: "كلا، انس هذا تمامًا، سوف أعتنى به بنفسى، كل شىء بأوان". لكنه لم يخض بالمرة فى أى جزئية تتعلق بما يخطط له، على اعتبار أنه فى النهاية دائمًا ما يفتح شخص ما فمه بكلمة تفضح المستور، وهو ما يحدث فى الشئون السياسية يا جيف".

"بيت".

"حسنًا، استمر بيت مستقيم السير وحسن السلوك. فراشه هو الأنظف على الإطلاق، يعمل طوال ساعات العمل المفروضة، يتجنب الكلمات النابية فى حديثه مع الحراس، ببساطة لم يرفع عنه تقرير واحد. والنتيجة؟ بعدها باثنى عشر شهرًا عاد إلى السجن المفتوح بخليج هولسلى، ولم يعد يتبقى من فترة عقوبته أكثر من تسعة أشهر".

"وحين عاد إلى سجن خليج هولسلى، هل سعى للتواصل مع كارين؟".

"لا، لم يقدم طلبًا للزيارة. الحقيقة أنه حتى لم ينطق اسمها بلسانه".

سألته، محاولاً أن أقلد اللغة الاصطلاحية للسجناء والمجرمين: "إذن ما كانت لعبته يا صاح؟".

"لم يكن فى عقله إلا لعبة واحدة يا جيف، كان كل ما يريد هو أن ينتقل إلى الجانب الآخر من السجن، أى المبنى الخاص بالسجناء الموثوق بهم".

اعترفت قائلاً: "لقد اختلط علىَّ الأمر فى هذه النقطة".

"كل هذا ليس إلا جزءًا من خطته المحكمة، أليس كذلك؟ عندما يدخل السجين أول الأمر إلى سجن مفتوح يتم تسكينه بغرفة فى أحد المبنيين الأساسيين".

"وهل سجنت هناك؟".

"نعم، إما المبنى الشمالى أو الجنوبى. ولكن إن صرت متميزًا، وموثوقًا بك ـ وهذا معناه ثلاثة شهور أخرى من التزام حسن السير والسلوك وكأنك المواطن المثالى ـ عندئذ ينقلونك إلى مبنى السجناء الموثوق بهم. وهو ما يمنحك المزيد من المزايا".

"مثل ماذا؟".

"يمكنك أن تتلقى زيارة من صديق كل يوم أحد. لم يكن بيت مهتمًا بهذا، ويمكنك أن تعود لمنزلك لتقضى يوم الأحد مرة كل شهر ـ ولم يكن بيت مهتمًا بذلك أيضًا. يمكنك أن تلتحق بوظيفة خارج السجن خلال أيام الأسبوع ـ مازال صاحبنا غير مهتم، حتى على الرغم من أن هذا سيكفل له كسب بعض الجنيهات الإضافية قبل أن يطلق سراحه".

سألته: "ولكن لماذا يتجشم المرء عناء الحصول على كل تلك المزايا مادام غير مهتم بها؟".

"ألم يكن الانتقال نفسه جزءًا من خطته المحكمة؟ أليس كذلك؟ مشكلتك يا جيف أنك لا تفكر كما يفكر المجرمون".

"إذن لماذا كان بيت متلهفًا لهذه الدرجة للانتقال إلى مبنى السجناء الموثوق بهم؟".

"طرحت سؤالاً جيدًا أخيرًا يا جيف، ولكن من أجل الإجابة عنه ستكون بحاجة لبعض المعلومات. كان بيت قد تبين بالفعل أنهم في المبنى المخصص للسجناء الموثوق بهم ليس لديهم إلا خمسة حراس فقط على مدار اليوم، ولكن في الليل يكون هناك حارسان اثنان فقط، على اعتبار أن السجين الذي وصل لهذا المبنى هو من الموثوق بهم ولا غبار عليه، ناهيك عن أن السجن يعاني من قلة عدد الحراس أساسًا، ولا تنس التالي، في السجن المفتوح لا وجود لزنازين ولا قضبان ولا مفاتيح ولا أسوار خارجية، وهكذا يمكن لأي شخص أن يلوذ بالفرار".

سألته: "ولماذا لا يهرب السجناء إذن؟".

"ليس هناك الكثير من السجناء الذين ينزعون للهرب بعد أن وصلوا لسجن مفتوح".

"ولم لا؟".

"ليس هناك ما يدعو لذلك؛ فقد اقتربوا من نهاية تنفيذ فترة عقوبتهم، كما لو أنه قبض عليهم بعد أن هربوا، وهؤلاء المغفلون يتم القبض عليهم بنسبة تسعة من كل عشرة يحاولون الهرب، فسوف يرسلون مباشرة إلى سجن مشدد الحراسة مع وقت زائد أضيف لفترة عقوبتهم. وعلى هذا انس الأمر؛ لأنه لا يستحق المحاولة. إنني أتذكر سجينًا اسمه ديل، كان مغفلاً كبيرًا. لم يكن أمامه إلا ثلاثة أسابيع وينهي تنفيذ فترة عقوبته، عندما حاول أن..".

قلت له من جديد: "بيت".

"أنت نافد الصبر بطريقة ساذجة، كما لو أن وراء كل منا مواعيد يجب اللحاق بها. أين كنا على أية حال؟".

قلت بعد أن راجعت ملاحظاتى: "حارسان فقط فى المناوبة خلال الليل فى مبنى السجناء الموثوق بهم".

" نعم، صحيح. ولكن حتى فى مبنى السجناء الموثوق بهم عليك أن تسجل حضورك فى السابعة صباحًا ومرة أخرى فى التاسعة مساء كل ليلة. والآن فإن بيت وكما أخبرتك حصل على عمل فى مخازن السجن، يسلم المساجين الجدد الملابس، ويزود السجناء العاديين بالمفارش والبياضات مرة كل أسبوع، وهكذا كان الحراس يعرفون مكانه على الدوام، وهو ما كان كله جزءًا من خطة بيت المحكمة، ولكن إن لم يسجل حضوره للمكتب الأمامى فى السابعة صباحًا ثم مرة أخرى فى التاسعة ليلاً، فسوف يرفع عنه تقرير؛ مما سيكون معناه أنهم سوف يرسلونه من جديد إلى المبنى الشمالى بدون أية مزايا حققها؛ لذا فإن بيت لم يُفوِّت نداء لتسجيل الحضور ولو مرة واحدة، وكانت زنزانته دائمًا غاية فى الترتيب والنظافة، ودائمًا ما يطفئ النور فيها قبل الموعد المحدد فى الحادية عشرة مساء بوقت طويل".

"كل هذا كان جزءًا من خطته المحكمة؟".

قال ميك: "أنت سريع البديهة، غير أن بيت واجهته عندئذ عقبة - أهذه هى الكلمة الصحيحة يا جيف، عقبة؟"، أومأت له برأسى، لكى لا أقاطع تدفقه فى الحديث. " خلال الليل، كان من المفترض بأحد الحراس أن يسير فى أنحاء المبنى عند الواحدة صباحًا، ويعود من جديد فى الرابعة صباحًا؛ ليتأكد من أن كل سجين نائم فى فراشه. كل ما كان على الحراس أن يفعلوه هو رفع ستائر الباب الخارجى، والنظر من خلال الحاجز الزجاجى وهم يمرون بمصباح يدوى مضاء على الفراش ليتأكدوا من أن السجين يغط فى نومه. هل سبق أن حكيت لك عن السجين الذى ضبط ذات مرة فى فراشه ومعه...".

قلت: "بيت"، دون أن أرفع عينى حتى نحو مايك.

"كان بيت يبقى مستيقظًا فى فراشه إلى أن يأتى الحارس عند الواحدة صباحًا ليتأكد من أنه بغرفته. يرفع الحارس الستائر، يضىء المصباح اليدوى ويوجهه نحو فراش السجين ثم يعود من حيث أتى. كان بيت يعود للنوم عندئذ، ولكنه يضبط الساعة المنبهة الخاصة به على الرابعة إلا عشر دقائق بحيث ينفذ عندها الروتين نفسه. وعند الرابعة صباحًا كان يظهر على الدوام حارس آخر ليتأكد من أن كل سجين نائم فى فراشه. اقتضى الأمر من بيت أكثر من شهرين ليكتشف أن هناك حارسين، وهما السيد تشامبرز والسيد دافيز، لا يتجشمان عناء القيام بالجولة الليلية للتأكد من أن جميع المساجين نائمون فى أسرّتهم. اعتاد تشامبرز أن ينام نومًا عميقًا، أما دافيز فلم يكن بمقدوره أن ينزع نفسه من أمام شاشة التلفاز. بعد ذلك كان كل ما تبقى على بيت القيام به هو الانتظار حتى يكون هذان الاثنان فى مناوبة واحدة خلال الليلة نفسها".

وهكذا وقبل موعد إطلاق سراح بيت بنحو ستة أسابيع، عاد لمبنى السجناء الموثوق بهم من عمله ليكتشف أن حارسى المناوبة لتلك الليلة هما تشامبرز ودافيز. عندما أعلن بيت حضوره ووقّع فى الدفتر الساعة التاسعة مساء، كان السيد تشامبرز بالفعل يشاهد مباراة كرة قدم على شاشة التليفزيون، وكان السيد دافيز رافعًا ساقيه على منضدة أمامه، بينما يحتسى الكوكا ويقرأ الصفحات الرياضية لجريدة الصن. صعد بيت إلى غرفته، وشاهد برامج التلفاز لما بعد العاشرة مساء بوقت قليل، ثم أطفأ ضوء غرفته. دخل فراشه وجذب البطانية عليه، ولكنه بقى بُحلة التمرينات والحذاء الرياضى. انتظر حتى تجاوزت الساعة الواحدة ببضع دقائق ثم تسلل إلى الردهة وتأكد من أنه لا وجود لأحد ـ ولا أى أثر للسيدين المحترمين تشامبرز ودافيز، وعندئذ سار حتى نهاية الردهة، وفتح باب

مهـرب الطـوارئ، واختفـى هابطًـا السلالم، تـاركًا إسفينًا من الـورق فـى حلـق البـاب، قبـل أن يقطع رحلـة من ثمانيـة أميال حتى وودبريدج.



لا أحد يعرف على وجه التحديد فى أى ساعة عاد بيت تلك الليلـة، لكـن المؤكد أنه قد وقع فى تقرير الحضور عند السابعة مـن صباح اليوم التالى. لقد وضع السيد تشامبرز علامة أمام اسمـه، وعندمـا اختلس بيـت نظـرة إلى أوراق الحارسين، كانت الأعمدة الأربعة أمام اسمه بها علامة فى كل خانة من الخانات ـ عند التاسعة، والواحدة والرابعة والسابعة. تناول بيت إفطاره فى المقصف ثم سجل حضوره فى المخازن ليتابع عمله.

"وهكذا أفلت بجريمته؟".

قـال ميـك: "ليس تمامًا، فـى وقت لاحق من ذلـك الصباح ظهـر حراس كثيرون فـى السجن وبدأوا يزحفـون هنا وهناك، دون أن يكونـوا مهتمـين بالعثـور إلا علـى رجـل واحـد. وانتهى بهـم الأمر فى المخازن، وقبضوا على بيت وأخذوه خارج السجن

للتحقيق معه. ظلوا يستجوبونه على مدى ساعات عن مقتل كل من براين باول وكارين سلاتر، اللذين عثر عليهما مخنوقين في فراشهما. لم يفلحوا في دفع بيت للنطق بأكثر من سطر واحد تمسك به وراح يردده باستمرار: " لا يمكن أن أكون أنا الفاعل يا سيادة المأمور. لقد كنت في السجن في ذلك الوقت. ما عليك إلا أن تسأل الضابطين، السيد تشامبرز والسيد دافيز، اللذين كانا في المناوبة ليلتها". قام الشرطي المسئول عن القضية بزيارة المبنى المخصص للسجناء الموثوق بهم وراجع دفاتر تسجيل حضور السجناء. تم قتل براين وفتاته في وقت ما بين الثالثة والخامسة، تبعًا للطبيب الجنائي، وعلى هذا فإن كان الضابط تشامبرز قد رأى بيت نائمًا في فراشه عند الساعة الرابعة صباحًا، فلا يمكن له أن يكون في وودبريدج في التوقيت نفسه، أليس كذلك؟ مسألة منطق، أليس كذلك؟



"وتم إجراء تحقيق مستقل بمعرفة وزارة الداخلية البريطانية. وقد شهد كل من السيدين المحترمين تشامبرز

ودافيز بأنهما قد تحققا من وجود كل سجين مرة عند الواحدة صباحًا ومرة أخرى عند الرابعة صباحًا، وفى الوقتين كان بيت نائمًا فى غرفته، وكان مما أسعد سجناء كثيرين آخرين أن يتقدموا للإدلاء بشهاداتهم فى التحقيق ويؤكدوا بلا أدنى شك أنهم استيقظوا من نومهم عند مرور ضوء المصباح اليدوى عليهم، وذلك عند قيام كل من تشامبرز ودافيز بجولتيهما. مما قوى من موقف دفاع بيت. وهكذا توصل التحقيق إلى أن بيت لابد أنه كان فى فراشه عند الواحدة صباحًا وعند الرابعة صباحًا فى الليلة المعنية، وهكذا لا يمكن أن يكون قد ارتكب جريمتى القتل".

كررت قولى: "وهكذا أفلت بجريمته".

فقال مايك: "هذا يعتمد على ما تقصد بقولك أفلت بجريمته؛ لأنه على الرغم من أن الشرطة لم تستطع بالمرة أن توجه هذا الاتهام لـ "بيت"، فإن الشرطى المسئول عن القضية فيما بعد قدم تقريرًا يقول فيه إن التحقيقات قد أغلقت، بما أنه لا يوجد أى شخص آخر يمكنهم التحقيق معه انتبه لهذه العبارة. وهو ما لم يكن نقطة بيضاء فى السجل الوظيفى لكل من تشامبرز ودافيز؛ وعلى هذا فقد انتويا أن يسوما بيت سوء العذاب".

ذكرت مايك قائلاً: "ولكن بيت كان أمامه ستة أسابيع فقط من فترة عقوبته قبل أن يطلق سراحه، وكان دائمًا حسن السير والسلوك".

"صحيح، غير أن حارسًا آخر، وهو صديق لـ دافيز، رفع تقريرًا بأن بيت قد سرق سروالاً من الجينز من المخازن قبل موعد إطلاق سراحه بأيام قليلة، وتم اقتياد بيت إلى الحبس الانفرادى وأعاده مأمور السجن إلى السجن مشدد الحراسة فى لنكولن فى الليلة نفسها، وقبل موعد تقديم الشاى، مع حكم بثلاثة شهور أخرى تضاف لفترة عقوبته".

"وهكذا انتهى به الأمر أنه قضى ثلاثة شهور أخرى فى السجن؟".

قال مايك: "نعم، ولكن هذا حدث قبل ستة أعوام، و مازال بيت حتى يومنا هذا مسجونًا فى سجن لنكولن مشدد الحراسة".

"ولكن كيف تمكنوا من ...؟".

"كان الحراس يعرفون كيف يبتكرون له تهمًا جديدة كل بضعة أسابيع، وكلما رفع عن بيت تقرير أمام المأمور أضاف هذا ثلاثة شهور أخرى إلى فترة عقوبته. وأراهن أن بيت سوف يقضى ما تبقى من عمره سجينًا فى لنكولن".

سألته: "ولكن كيف يفلتون بذلك؟".

"كأنك لم تسمع أى شىء مما قلته لك يا جيف، قلت لك إنه حين يشهد حارسان فى السجن بأن شيئاً ما قد حدث، فهذا إذن ما قد حدث، ولا يمكن لأى واحد من السجناء أن يخبرك بأى شىء مختلف. أتفهمنى؟".

أجبته: "أفهمك".

فى يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ صدرت التوصية رقم ٤٧ لعام ٢٠٠٢ والتى تنص على حكم المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان فى قضية إزيه وكونورز كالتالى: عندما يكون الجرم الذى يرتكبه أحد السجناء فى السجن شديدًا لدرجة تؤدى إلى إضافة أيام أخرى إلى

فترة عقوبته، فإنه تسرى عليه الحماية المتضمنة فى البند رقم ٦ من الميثاق الأوربى لحقوق الإنسان. أى إنه لابد من عقد جلسة نظر للدعوى من قبل محكمة جزئية مستقلة، ومن حق السجناء تلقى العون القانونى فى تلك الجلسات.

تم إطلاق سراح بيت بايلى من سجن لنكولن فى ١٩ أكتوبر ٢٠٠٢.

مأساة يونانية



نعرف جميعًا حكاية حصان طروادة، الهدية الجميلة التى تخفى فى باطنها شرًا وبيلاً، وهكذا نحذر من الهدايا اليونانية، ولكن جورج تساكيريس لم يكن واحدًا من هؤلاء اليونانيين الذين يخشى المرء من تقبل هداياهم.

كان جورج محظوظًا بما يكفى ليقضى نصف عمره فى لندن ونصفه الآخر فى موطنه أثينا. كان هو وأخواه الأصغر سنًا، نيقولا وآندرو، يديرون شركة إنقاذ ناجحة بشكل كبير، وهى الشركة التى ورثوها عن أبيهم.

التقيت أنا وجورج لأول مرة قبل سنوات عديدة فى أثناء حفل خيرى لمساعدة الصليب الأحمر. وكانت زوجته كريستينا ضمن أعضاء اللجنة المنظمة، وقد دعتنى لأشرف على البيع بالمزاد.

وفى كل مزاد خيرى قمت بإدارته على مدى السنوات، كان هناك سلعة أو شىء ما لا يمكنك أن تجد له مشتريًا، ولم تكن تلك الليلة استثناء فى ذلك؛ ففى هذه المناسبة، تبرع عضو آخر من أعضاء اللجنة المنظمة بلوحة زيتية تصور منظرًا طبيعيًا رسمتها ابنته دون مهارة ولا تليق أن تباع فى مزاد مثل هذا. وقبل أن أصعد إلى المنصة وأفتش فى أرجاء القاعة عن سعر لبداية المزايدة بوقت طويل، شعرت بأن المشترين سوف يتخلون عنى جميعًا مرة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك فإننى لم أضع سخاء جورج فى الحسبان.

تساءلت على أمل: "هل نفتح المزاد بألف جنيه؟" لكن أحدًا لم يهب لنجدتى. كررت قولى فى محاولة ألا أبدو يائسًا كل اليأس من بيعها: "ألف جنيه؟" وحين أوشكت تمامًا على التخلى عن المحاولة، ارتفعت يد مثل طوق نجاة وسط بحر من حلل السهرة الرجالية السوداء. كانت يد جورج.

قلت مقترحًا: "ألفان" غير أن أحدًا لم يكن مهتمًا باقتراحى. "ثلاثة آلاف" قلتها هذه المرة وأنا أنظر مباشرة نحو جورج، ومرة أخرى ارتفعت يده. أعلنت عندها فى ثقة: "أربعة آلاف" غير أن ثقتى كانت قصيرة الأجل، فعدت لأنتبه مرة أخرى نحو جورج. طالبت قائلاً: "خمسة آلاف"، ومن جديد أذعن لاقتراحى، وعلى الرغم من أن زوجته عضوة باللجنة المنظمة فقد شعرت بأن فى هذا ما فيه الكفاية. أعلنت قائلاً: "بيعت القطعة بخمسة آلاف، للسيد جورج تساكيريس" فعلا التصفيقُ وظهرت نظرة ارتياح على وجه زوجته كريستينا.



وهكذا فإن جـورج المسكين، أو لنتحرى الدقة جورج الثرى، كان يأتـى بانتظام لإنقاذى فى مثل تلك المواقف، وكثيرًا ما كان يشـترى أشيـاء سخيفـة، لا يكون عندى أمل فـى الوصول حتى لسعـر مناسب لفتح المزاد عليها. يعلـم الله وحده كـم من المال أرغمت الرجل على دفعه باسم المزادات الخيرية.

العـام الماضى، دفعتـه لشراء تذكرتـى سفـر إلى أوزبكستان، زائد تذكرتين من الدرجة الاقتصادية مقدمتين هدية مجانية علـى شركـة طـيران إيروفلوت، وبعـد المزاد شققـت طريقى إلى طاولته لأشكره على جوده وكرمه.

جلست إلى جانب جورج الذى قال لى: "لا داعى للشكر، فما مـن يوم واحد يمر بـى دون أن أتذكر كم كنت شخصًا محظوظًا وسعيـد الطالـع، وكم أنا محظـوظ لمجرد أنى مازلـت حيًا حتى الآن".

شممـت فى كلامـه رائحة قصة، فسألتـه: "محظوظ لأنك مازلت حيًا؟"

اسمحوا لى عند هذه النقطة أن أشير إلى أن المقولة المعروفة والرثة بأن حياة كل منا كتاب ممتع فكرة خاطئة. ومع ذلك فقد تقبلت على مدار الأعوام أن أغلب الناس قد عاشوا حدثًا واحدًا علـى الأقل خلال حياتهم يعد حدثًا فريـدًا حقًا، ويصلح تمامًا لصياغته فى قصة قصيرة، ولم يكن جورج استثناء فى هذا.

كررت متسائلاً: "محظوظ لأنك مازلت حيًا؟".

مسئوليـة الشـركة التجارية مقسمة بالتساوى تمامًا بين جورج وأخويـه: جورج يديـر مكتب لندن، فى حـين يبقى نقولاس فى أثينـا؛ ممـا يتيح لـ آنـدرو أن يتجول فى أنحاء العـالم كلما كان أحـد زبائنهـم غارقًا وبحاجة لمساعدته على أن يبقى طافيًا على وجه الماء.

وعلى الرغم من أن جورج كان يمتلك مؤسسات فى لندن، ونيويورك، وفى سان بول دوفينس بمدينة فينيسيا، فقد كان لا يزال يرجع بانتظام إلى أرض الأسلاف العظام؛ بحيث يبقى على اتصال بفروع شجرة العائلة الضخمة. هل سبق لك أن لاحظت كيف أن الأشخاص الأثرياء دائمًا ما تكون لديهم عائلات ضخمة ومتشعبة؟

فى حفل عقد مؤخرًا لصالح الصليب الأحمر، فى دورشيستر، لم يهب أحد لنجدتى عندما عرضت أحد قمصان اللعب لفريق ليوتر البريطانى للرجبى، قميص وقع عليه جميع لاعبى الفريق الذين عادوا توًا من رحلتهم إلى نيوزلندا مكللين بالهزيمة. لم أستطع أن أرى جورج فى أى موضع، بما أنه كان قد عاد لأرض أجداده من أجل حضور حفل زواج إحدى بنات العمومة المقربات منه. ولولا الحادثة الغريبة التى جرت فى حفل الزفاف ذلك لما تمكنت من رؤية جورج بعد ذلك أبدًا. وبطبيعة الحال لم أتمكن فى ذلك المزاد أن أحصل على سعر افتتاح لقميص لعب فريق ليوتر المهزوم.

كانت ابنة أخ جورج، واسمها إزابيلا، تعيش فى سيفالونيا؛ إحدى أجمل الجزر اليونانية التى تبدو كأنها جوهرة ثمينة فى البحر الأيونى. كانت إزابيلا قد أغرمت بشاب، هو ابن لأحد زارعى الكروم من أبناء البلد، وقد توفى أبوها منذ زمن. وعرض جورج أن يستضيف المدعوين ويعقد لهم حفل الاستقبال، الذى كان من المفترض عقده فى منزل العروس.

فى إنجلترا جرى العرف أن يدعى الأقارب والأصدقاء لحضور مراسم عقد الزواج ثم يتبع ذلك حفل الاستقبال، الذى غالبًا ما ينظم بداخل سرادق كبير فى فناء منزل والدىَّ. وعندما لا يكون فناء المنزل كبيرًا بما يكفى فإن الاحتفال ينتقل لنادى القرية أو قاعة البلدية الخاصة بها، وبعد إلقاء الخطب الرسمية وبعد انقضاء فترة معقولة من الوقت يغادر العريس

والعروس إلى حيث سوف يقضيان شهر العسل، وبعد أن يغادرا بوقت قليل ينصرف المدعوون كل إلى بيته.

أما بالنسبة لليونانيين، فإن مغادرة حفل قبل انتصاف الليل ليس مما جرى به العرف عندهم؛ فهم يفترضون أن أى احتفال فيه مرح وقصف ولهو بعد عقد مراسم الزفاف لابد أن يستمر حتى مطلع الفجر، فى الصباح التالى على الأقل، وخصوصًا إن كان العريس من مالكى مزارع الكروم. وعندما يتزوج اثنان من أبناء البلد بإحدى الجزر اليونانية، تسرى الدعوة للعرس بين السكان المحليين سريان النار فى الهشيم، دون أن يضطر أى من العائلتين لدعوتهم رسميًا؛ فإن المتطفلين على حفلات الزفاف كما نعرفهم هنا فى إنجلترا هو مصطلح غير موجود فى قاموس العادات الاجتماعية هناك؛ فأم العروس ليس عليها أن تكلف نفسها عناء إرسال بطاقات الدعوة المذهبة الحواف مع كلمات حارة تهيب بالمدعوين أن يلبوا دعوتها فى الركن الأدنى على يسار بطاقة الدعوة، وهذا لسبب بسيط تمامًا: لن يتجشم أحد عناء الإجابة على بطاقة الدعوة بالهاتف أو البريد، لكنهم سوف يحرصون على الحضور كل الحرص، ببطاقة دعوة أو بدونها.

وثمة اختلاف آخر بين الأمتين العظميين هو أنه هناك ليس من الضرورى أن تؤجر سرادقًا كبيرًا أو تؤجر قاعة دار البلدية للاحتفال، لأنه من غير المحتمل أن تسقط الأمطار فوق رءوسهم فى حفل عرس، وخاصة فى وسط الصيف - الذى يستمر حوالى عشرة شهور. أى شخص يمكنه أن يصير متخصصًا فى الأحوال الجوية فى اليونان.

اقترحت كريستينا على زوجها جورج، فى الليلة السابقة على حفل الزفاف مباشرة، بما أنه سيكون هو المضيف فمن الحكمة بالنسبة له أن يحافظ على صحوه ووعيه حتى نهاية الحفل، وأضافت أنه لابد من وجود شخص يحتفظ بعين يقظة

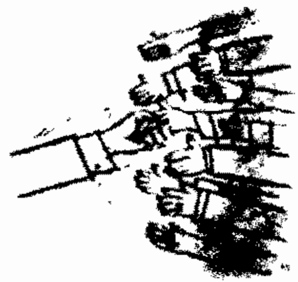
على مجرى الأمور، وخاصة عند وضع مهنة العريس وأهله كمزارعين للكروم في الاعتبار. وافق جورج على رأيها على مضض.

عقدت مراسم عقد الزفاف في دار عبادة صغيرة بالجزيرة، وقد اكتظت المقاعد بالمدعوين وغير المدعوين من الضيوف، قبل النطق بالعهود بوقت طويل. وبدماثته ولطفه المعهودين تقبل جورج في نفسه فكرة أنه بصدد أن يضيف ويرحب بجمع أكبر من ذلك الحشد قليلاً. راح يراقب ابنة أخيه الشابة ترتبط برباط الزواج مع الفتى الذي أحبته واختارته. وعلى الرغم من اختفاء إزابيلا تحت وشاح من دانتيلا بيضاء، فإن جمالها معروف من قبل كل شباب الجزيرة. كان خطيبها والذي سيصبح زوجها عما قليل، آليكس كالكونديس، طويلاً ونحيفًا، وكان خصره النحيل لا يبدي أي دليل على أنه سوف يكون وريثًا لمزرعة كروم.

وبالنسبة لمراسم عقد الزواج، يلتقي الإنجليز واليونانيون هنا لبرهة قصيرة ولكن سرعان ما يفترقون من جديد؛ فقد أقام المراسم رجل دين ملتح اكتسى بلباس ديني ذهبي اللون واعتمر قبعة طويلة سوداء. العبير حلو الرائحة الذي تطاير من المباخر والمجامر سرى عبقه في أرجاء دار العبادة، بينما رجل دين آخر يرتدي أكثر العباءات زخرفة وله أطول لحية بين الآخرين يترأس مراسم عقد الزواج، مع مصاحبة أناشيد وأدعية.

كان جورج وزوجته كريستينا من بين أوائل من غادروا دار العبادة بمجرد انتهاء المراسم؛ لأنهما أرادا أن يعودا إلى المنزل في وقت مناسب بحيث يرحبان بأول من يصل من الضيوف.

كان المنزل الريفي القديم لأهل العروس يربض على منحدرات تل فوق الأراضي المنبسطة للكروم؛ كان البستان الفسيح والمحاط بأيكات الزيتون المستعملة كمصاطب مرتفعة،



ممتلئًا بمن يغمغمون بأطيب الأمنيات للعروسين قبل وقت طويل من وصول العروسين. اضطر جورج لمصافحة أكثر من ألفي يد، قبل أن يظهر الزوجان الجديدان، السيد كالكانديس وحرمه، وقد أعلن وصولهما مجموعة كبيرة من أصدقاء العريس الأجلاف ممن طفقوا يطلقون الرصاص من مسدساتهم الصغيرة في الهواء، على سبيل التحية والاحتفال؛ وهى عادة يونانية أشك فى أنها قد ارتحلت إلى أحد أقنية الريف الإنجليزى، وبالطبع لم نشهدها فى دار بلدية بأى قرية.

إذا استثنينا أفراد العائلة المباشرين وأولئك الضيوف المنتقين ليجلسوا إلى مائدة الصدارة بجانب مربع الرقص؛ ففى حقيقة الأمر ومن بين كل الضيوف لم يكن هناك إلا قلة قليلة قد رآهم جورج من قبل ولو لمرة واحدة.

اتخذ جورج مجلسه فى وسط مائدة الصدارة، وإزابيلا عن يمينه وآلكس على يساره، وما إن جلس الجميع حتى بدأ تقديم الطعام صنفًا بعد آخر من الأطباق المحملة التى وضعت أمام الضيوف، وتدفق شراب الكروم كما لو أن اليونان قد عادت فى طرفة عين إلى سالف مجدها فى العصور القديمة، حين كانت تتدفق أنهار الشراب فى احتفالات الانتصارات.

ومن بعيد دقت ساعة دار البلدية الحادية عشرة مساء، وعندئذ أومأ جورج للإشبين بأنه قد يكون هذا هو الوقت المناسب لإلقاء كلمته. وبخلاف جورج، كان الإشبين نفسه قد صار متبعًا؛ ولا شك أنه نسى كل ما قاله فى تلك الخطبة القصيرة من كلمات فى الصباح التالى مباشرة. وتلا الإشبين

العريس نفسه، وعندما حاول أن يعرب عن حظه السعيد بفوزه بفتاة جميلة، تواثب أصدقاؤه الحمقى من جديد فوق مربع الرقص وأطلقوا المزيد من الطلقات فى الهواء.

كان جورج هو آخر المتحدثين؛ ولأنه كان مدركًا لتأخر الوقت، والنظرة المتبعة فى عيون ضيوفه، والزجاجات نصف الممتلئة المتناثرة على الطاولات، اكتفى بأن يتمنى للعروسين حياة مباركة، وهى تعبير ملطف فى اللغة اليونانية عن الرفاء والبنين. وعندئذ دعا هؤلاء الذين مازالوا قادرين على النطق بأمنية أن يتمنوا معه للعروسين أطيب التمنيات. وصاح الجميع بصوت واحد تقريبًا: إزابيلا وآليكس.

وما إن هدأ هدير التصفيق والتهليل حتى بدأت الفرقة الموسيقية عزفها. ونهض العريس من مكانه على الفور، والتفت نحو عروسه وطلبها للرقصة الأولى. خطا العروسان الجديدان إلى مربع الرقص، مصحوبين بوابل جديد من الطلقات، وتبعهما والدا العريس، وما هى إلا دقائق حتى انضم إليهم جورج وكريستينا.

بعد أن راقص جورج زوجته، ورقص العروسان، عاد إلى حيث يجلس فى المقعد المركزى من مائدة الصدارة، وهو يصافح المزيد من الأيدى على طول طريقه من الضيوف الكثيرين الذين نثروا أمنياتهم الطيبة من أفواههم.

وبما أن جورج قد أدى كل واجباته الرسمية فى الاحتفال فقد كان يصب لنفسه أخيرًا كأسًا من الشراب، وفى هذه اللحظة ظهر الرجل العجوز.

نهض جورج واقفًا على الفور لحظة أن رأى الرجل العجوز يقف بمفرده عند مدخل البستان. أعاد كأسه لموضعها على الطاولة وسار بهمة وبسرعة عبر الباحة ليرحب بالضيف غير المتوقع.

كان آندرياس نيكولاديس ينحني بشدة على عصا المشي الخاصة به. انزعج جورج من التفكير في الطريق الطويل الذي توجب على العجوز أن يقطعه صاعدًا الطريق من كوخه الريفي الصغير في منتصف طريق الجبال. انحنى جورج خافضًا رأسه للأسفل وقدم التحية للرجل العجوز؛ ذلك الرجل الذي كان يعد أسطورة في جزيرة سيفالونيا وكذلك أسطورة في شوارع أثينا كلها، على الرغم من أنه لم يغادر الأرض التي ولد عليها ولو لمرة واحدة، وعندما كان الناس يسألون آندرياس لماذا لم يغادر موطنه أبدًا، كان يجيب بكل بساطة: "الوطن هو جنة الله على الأرض، فمن ذا الذي يطمح لمغادرة جنة الأرض إلا ليصعد إلى جنة السماء!".



فـى عام ١٩٤٢، عندما احتل الألمان جزيـرة سيفالونيا، هرب آندرياس إلى التـلال وصـار زعيمًـا لحركـة المقاومـة، وهـو فى الثالثـة والعشريـن مـن العمـر، وعلى مدى الاحتـلال الطويل للجزيـرة لم يغـادر تلـك التلال أبـدًا، وعلى الرغم مـن المكافأة الضخمـة التـى رصـدت لـن يقتلـه، فـإن آندرياس وعلـى غرار الإسكنـدر المقدونـى، لم يرجـع إلى أهله وقومـه إلا بعد أن دفع الغزاة للعودة إلى البحر من حيث أتوا.

ومـا إن تم إعـلان السلام فى عـام ١٩٤٥، حتى عاد آندرياس مكلـلاً بالنصـر. تم انتخابـه عمـدة لجزيـرة سيفالونيـا، وهـو المنصب الذى تقلده، بالتزكية، على مدى الثلاثين عامًا التالية، والآن وقـد صـار فى الثمانينات من عمـره، لم تكن هناك عائلة فى الجزيرة لا تشعر بأنها تحمل دينًا فى عنقها نحو آندرياس، وقليلون جدًا هم من لا يزعمون أنهم يمتون إليه بصلة قرابة.

قـال جـورج وهـو يخطـو للأمـام محييًـا العجـوز: "طـاب مسـاؤك يـا سيدى، إن حضورك لزفاف ابنـة شقيقى لهو شرف كبيـر لنا جميعًا".

أجابـه آندريـاس وهو يحنـى رأسه فى المقابـل: "الشرف لى أنـا. إن الجـد الكبيـر لابنة شقيقك قاوم المحتـل معى ومات إلى جانبـى"، ثـم أضاف وهو يغمز بعينه فـى مرح: "وعلى كل حال، فهنـاك امتيـاز يقتصر على رجل عجوز مثلى، وهـو أن أقبل كل عروس جديدة على هذه الجزيرة".

قـاد جـورج ضيفه المميـز ببطء على طـول المحيط الخارجى لمربع الرقص، ثم اتجه به نحو مائدة الصدارة. توقف الضيوف عـن الرقـص وراحـوا يتصايحـون ويهللـون بينمـا العجوز يمر بهـم. أصـر جورج على أن يأخذ آندرياس مكانه فى مركز مائدة الصـدارة؛ بحيـث يمكنـه أن يتوسط العريـس والعروس. وعلى استحياء قبل آندرياس مقعد الشرف الخاص بمضيفه، وعندما التفتـت إزابيلا لـترى من يجلس بجانبهـا انخرطت فى البكاء

الحار وألقت بذراعيها حول الرجل العجوز. قالت: "بحضورك اكتملت فرحتى وصار الحفل لا ينقصه شىء".

ابتسم جورج وهمس لـ "آندرياس "قائلاً: " كم أتمنى الآن لو كان لى نفس هذا التأثير على النساء عندما كنت أصغر سنًا".

ترك جورج آندرياس جالسًا فى مقعده بمركز مائدة الصدارة، يتجاذب الحديث بكل سعادة مع العريس والعروس. التقط صحنًا فارغًا وسار ببطء نحو المائدة المحملة بالطعام. أخذ جورج وقته الكافى لكى يتخير أرق الأطعمة وأسهلها هضمًا على الرجل العجوز، وأخيرًا اختار زجاجة من الشراب من حقيبة زجاجات كان والده قدمها له فى ليلة زفافه. استدار جورج عائدًا ليأخذ ما جلبه إلى ضيف الشرف المتميز بينما كانت ساعة البرج تعلن انتصاف الليل، معلنة قدوم يوم جديد.

ومرة أخرى وثب شباب الجزيرة فوق مربع الرقص وراحوا يطلقون الرصاصات من مسدساتهم فى الهواء؛ مما بعث البهجة والحماس فى الضيوف المتجمهرين. قطب جورج فى ضيق، ولكنه للحظة سريعة استعاد أيام شبابه. واصل السير، حاملاً الطبق فى يد والزجاجة فى يده الأخرى، نحو وسط المائدة، ونحو مقعده الذى يشغله الآن آندرياس نيكولاديس.

وفجأة، ودون سابق إنذار، ركض أحد مطلقى الرصاص الشبان ممن كانوا أفرطوا فى الشراب وثملوا قليلاً، واتجه للأمام، وزلت قدمه على حافة مربع الرقص، فى اللحظة نفسها التى كان يطلق فيها آخر الرصاصات. تجمد جورج هولاً فى مكانه عندما رأى الرجل العجوز يسقط إلى الأمام وهو جالس فى مقعده، وتقع رأسه لترتطم بالمائدة. أسقط جورج من يده كلاً من الطبق والزجاجة على العشب بينما راحت العروس تطلق الصرخات. ركض مسرعًا نحو مركز المائدة،

ولكن كان الأوان قد فات؛ فقد قضى آندرياس نيكولاديس نحبه.

فجأة سرى في الحشد الضخم والمشتعل بالحماس اضطراب عظيم وفوضى، البعض يصرخ، البعض يبكى وينوح، بينما سقط آخرون على ركبهم هولاً ودهشة، لكن الغالبية حط على رءوسها الطير ولزمت الصمت المصدوم والكئيب، عاجزين حتى عن استيعاب ما جرى.

انحنى جورج فوق الجثة، ورفع العجوز بين ذراعيه. حمله ببطء سائرًا بالباحة، وقد تجمع الضيوف، عن يمينه وعن يساره، مثل ممر من الرءوس المحنية، بينما سار بينهم متوجهًا نحو المنزل.

كان جورج قد اشترى ، في المزاد، مقعدين بمبلغ خمسة آلاف جنيه، في حفل وست آند الموسيقى، ذلك الحفل الذى كان قد انتهى عندما روى لى حكاية آندرياس نيكولاديس.

التمعت عينا جورج بذكرى الرجل العجوز المناضل، وتهدج صوته وكأنه يراه أمامه وهو يقول لى: "يقولون إن آندرياس قد أنقذ حياة أهل الجزيرة جميعهم خلال زمن الاحتلال". توقف قليلاً قبل أن يضيف: "وكنت أنا من بين من أنقذ حياتهم، ولو بعد الاحتلال بزمن طويل".

المأمور



تساءل المأمور: "ولم يريد أن يقابلنى؟".

"يقول إنها مسألة شخصية".

"كم مضى عليه بعد أن خرج من السجن؟".

ألقت سكرتيرة المأمور بنظرة سريعة على الملف الخاص بـ راج ماليك. لقد تم إطلاق سراحه منذ ستة أسابيع".

نهض ناريش كومار واقفًا، دفع مقعده للوراء وراح يسير فى أنحاء الغرفة؛ وهو الشىء الذى كان يقوم به على الدوام عندما يكون بحاجة للتفكير فى مشكلة ما. كان قد أقنع نفسه ـ حسنًا، تقريبًا أقنع نفسه ـ بأن المشى فى الغرفة هو نوع ما من التمرين البدنى. مضى زمن طويل على الوقت الذى كان بمقدوره فيه أن يلعب مباراة هوكى خلال فترة ما بعد الظهيرة، وثلاث مباريات اسكواش فى المساء نفسه ثم يهرول عائدًا إلى مقر نقطة الشرطة. مع كل ترقية جديدة كان ينالها، ومع كل شارة فضية جديدة تضاف إلى كتفيه كان يضاف معها إلى محيط خصره بوصات جديدة.

كان يقول لمساعده رقم اثنين آنيل خان: "ما إن أتقاعد ويصير لدى المزيد من الوقت فسوف أبدأ التمرن مرة أخرى". دون أن يصدق العبارة؛ لا قائلها ولا سامعها.

بدأ المأمور ينظر خارج النافذة محدقًا للأسفل نحو شوارع مومباى التى تعج بالبشر، تحته بنحو أربعة عشر طابقًا؛ عشرة ملايين نسمة، يتراوحون من أفقر الفقراء إلى أثرى الأثرياء. من المتسولين إلى أصحاب المليارات، وكانت مسئوليته أن يكون رئيس الشرطة على جميع هؤلاء. ترك له سلفه الذى تقلد هذا

المنصب من قبله عبارة تقول: "في أفضل الأحوال، لا يمكنك إلا أن تبقى الغطاء الذى يكبت انطلاق الغليان". وبعد أقل من عام، حين نقل ناريش المسئولية على نائبه، لم يجد كلمات معبرة خيرًا من هذه ليقدمها له كنصيحة أخيرة.

كان ناريش كومار رجل شرطة طوال حياته، مثل أبيه من قبله، وما كان يتمتع به أكثر مما سواه فى وظيفته هو عدم القدرة على التنبؤ بأى شىء فيها بالمرة، واليوم لم يكن مختلفًا عن ذلك، على الرغم من أن أمورًا كثيرة قد تغيرت منذ أن كان بوسع المرء أن يقرص صبيًا من أذنه لأنه أمسك به وهو يسرق ثمرة مانجو، فمن يحاول القيام بهذا اليوم سوف يقاضيه الوالدان بتهمة الاعتداء على ابنهما وسوف يصرخ الصبى طالبًا لمحام يدافع عنه، ولكن لحسن الحظ، فإن نائبه آنيل خان قد صار يتقبل تمامًا أن المسدسات فى الشوارع، وتجار المخدرات، والحرب ضد المخربين، كل هذا جزء لا يتجزأ من قدر رجل الشرطة فى العصر الحديث.



عادت أفكار المأمور إلى راج ماليك من جديد، الرجل الذى كان هو مسئولاً عن إرساله إلى السجن فى ثلاث مرات مختلفة

علـى مدار الثلاثين عامًا الماضية. لماذا يرغب السجين القديم فـى لقائـه؟ ليس أمامـه إلا طريقة واحدة ليكتشـف بها الأمر. التفـت بوجهـه نحـو سكرتيرتـه، وقـال: "حـددى موعـدًا لى للقـاء ماليك، ولكـن بحيث لا يتجاوز وقت اللقـاء خمس عشرة دقيقة".

نسـى المأمـور أنـه وافـق علـى لقـاء ماليـك ولم يتذكر ذلـك إلا عندمـا وضعـت السكرتيرة الملف على مكتبـه قبل موعد وصول ماليك بدقائق معدودة.

قـال المأمور: "إن تأخر دقيقـة واحدة فقط ألغى الموعد دون تردد".

أجابتـه قائلـة: "لكنـه ينتظـر منـذ الآن فـى الردهـة يـا سيدى".

عبـس كومار مقطبًـا جبينه، وراح يتصفح الملـف. بدأ ينعش ذاكرتـه بشـأن السجـل الإجرامـى لسوابـق ماليـك، أغلب ذلك السجـل كان يمكنه تذكره بالاعتمـاد على الذاكرة وحدها؛ لأنه فى مناسبتين كان هو الضابط الذى قبض عليه بنفسه، الأولى عندمـا كان برتبـة رقيـب، وفى المرة الثانية كان قـد رقى حديثًا إلى رتبة مفتش.

كان ماليـك من المجرمين المهـرة والأذكياء، والمؤهلين تمامًا للاضطـلاع بمهـام خطـيرة، وعلى الرغم من ذلـك، ففى فترة شبابـه سرعـان مـا اكتشف أنه يملـك من السحـر والجاذبية ما يكفـى للنصـب والاحتيـال علـى السذج مـن النـاس، وخصوصًا النسـاء العجائـز؛ بحيث يستولى منهن علـى مبالغ مالية، دون أن يبذل قدرًا كبيـرًا من الجهد.

لم تكـن أولى عمليـات الاحتيـال الأولى له فريـدة أو غريبة على مومباى. كل ما كان بحاجة إليه هو آلة طباعة صغيرة، أو دفـتر أوراق مطبـوع عليه بيانات محددة، وقائمـة بالأرامل. ما

إن ينجح فى الحصول على الضحايا - حيث كان يحصل على أسمائهن من صفحات الوفيات فى صحيفة بومباى تايمز - حتى يصير منشغلاً بالعمل، وقد تخصص فى بيع أسهم لشركات تقع فيما وراء البحار، تلك الشركات التى لا وجود لها. كان هذا العمل يزوده بدخل منتظم، إلى أن حاول أن يبيع بعض الأسهم لأرملة نصاب آخر.

عند محاكمة ماليك، اعترف باستيلائه على أكثر من مليون روبية هندية، لكن المأمور شك بأن المبلغ كان يتجاوز ذلك بكثير؛ فعلى كل حال كم عدد النساء الأرامل اللواتى كن على استعداد لأن يعترفن بأن سحر ماليك قد سلب لبهن؟ حكم على ماليك بالسجن لمدة خمسة أعوام فى سجن بيونى، وفقد كومار أثره بعدها على مدار عشرة أعوام تقريبًا.

عاد ماليك للسجن مرة أخرى بعد القبض عليه متهمًا ببيع مبنى سكنى متعدد الطوابق على أرض اتضح فيما بعد أنها مستنقع، وفى هذه المرة حكم القاضى عليه بالسجن لمدة سبعة أعوام، ومرت عشر سنوات أخرى.

كانت جريمة ماليك الثالثة أكثر عبقرية بكثير، ونال عنها عقوبة بالسجن لفترة أطول بكثير كذلك. كان يقدم نفسه باعتباره سمسارًا لبيع بوليصات التأمين على الحياة. ولسوء الحظ لم يتم تسديد الأقساط السنوية ــ إلا بالنسبة لـ"ماليك" نفسه الذى سدد الدين من سنوات حياته.

اقترح محاميه على القاضى بأن يسدد موكله حوالى اثنى عشر ألف روبية لهؤلاء الذين مازالوا أحياء، لكن القاضى شعر بأن العائد المناسب لعمليات النصب تلك لابد أن يكون اثنى عشر عامًا فى السجن.

عندما قلب المأمور الصفحة الأخيرة من الملف، كان مازال حائرًا بشأن سبب رغبة ماليك فى مقابلته. ضغط زرًا تحت مكتبه لينبه سكرتيرته بأنه مستعد لموعده التالى.

تطلـع المأمور كومار ببصره عندمـا فتح الباب. حدق برجل لا يـكاد يتعـرف عليـه. لابـد أن ماليك كان يصغـر المأمور بعشر سنـوات، ولكنـه ظهـر وكأنـه فى مثل سـن المأمور، وعلـى الرغم مـن أن المعلومـات الـواردة فـى ملفـه تقـول إن طولـه خمس أقـدام وثمانـى بوصـات، وإن وزنـه مائـة وسبعـون رطـلاً، فـإن الرجـل الـذى دخـل مكتبـه لم يكـن مطابقًـا لهـذه المواصفات.



كانت بشرة النصاب القديم مجعدة وجافة، وظهره محنيًا، بحيـث بـدا حجمه أصغـر وأضـأل. كان واضحًا أنـه رجل قضى نصـف حياته خلف قضبان السجـن. كان يرتدى قميصًا أبيض اهـترأ نسيجـه عنـد الياقة والكمـين، وسترة واسعـة عليه لابد أنها خيطـت خصيصًـا له فـى ماضـى الزمان. لم يكـن هذا هو الرجـل الواثـق مـن نفسه الـذى قبض عليـه المأمـور قبل أكثر مـن ثلاثين عامًا، الرجل الذى كان لديه جواب حاضر على كل سؤال يطرح عليه.

توقف ماليك أمام المأمور وأسفر وجهه عن ابتسامة باهتة.

قال بهدوء: "شكرًا لك لموافقتك على مقابلتى يا سيدى".

حتى صوته كان متهدجًا ومنكمشًا.

أومأ المأمور، ولوح بيده مشيرًا نحو مقعد على الجانب الآخر من مكتبه، ثم قال: "إن أمامى نهار مزدحم بالمهام يا ماليك؛ فلذلك أريدك أن تدخل فى الموضوع مباشرة".

أجاب ماليك، قبل أن يتخذ مجلسه: "بالطبع، يا سيدى، الأمر ببساطة أننى أبحث عن عمل".

كان المأمور قد فكر فى أسباب عديدة قد تدفع ماليك لمقابلته، ولكن السعى لوظيفة لم يخطر بباله قط.

واصل ماليك، قائلاً: " قبل أن تضحك، اسمح لى أرجوك أن أعرض موقفى".

اضطجع المأمور فى مقعده وشبك أصابعه.

قال ماليك: " لقد أنفقت جزءًا أكثر من اللازم من حياتى فى السجون". توقف قليلاً، ثم تابع قائلاً: "ولقد بلغت مؤخرًا سن الخمسين، ويمكننى أن أؤكد لك أننى لا أرغب بالمرة فى العودة للسجن مرة أخرى".

أومأ المأمور برأسه، دون أن يعرب عن أى رأى.

واصل ماليك حديثه قائلاً: "سمعت الأسبوع الماضى يا سيدى المأمور أنك قمت بإلقاء كلمة فى الاجتماع السنوى للغرفة التجارية لمدينة مومباى. لقد قرأت كلمتك التى نشرت فى التايمز باهتمام عظيم، وقد وجهت كلمة إلى أصحاب الأعمال فى هذه المدينة أن يفكروا فى توظيف الأشخاص الذين سبق لهم أن سجنوا - وأن يمنحوهم فرصة ثانية، أنت قلت هذا يا سيدى، أو أن أصحاب السوابق هؤلاء بكل بساطة سيختارون الاختيار السهل ويعودون لحياة الإجرام. وهو الرأى الذى لا يسعنى إلا الاتفاق معه تمامًا".

قاطعه المأمور قائلاً: "ولكننى أوضحت تمامًا أنى أتحدث عن أصحاب السابقة الأولى فقط".

رد عليه ماليك الحجة بمثلها قائلاً: "وهذه هى النقطة تمامًا، إذا اعتبرت أن هناك مشكلة بالنسبة لأصحاب السابقة الأولى والوحيدة، تخيل فقط ما الذي ألاقيه وأعانيه عندما أبحث الآن عن عمل". توقف ماليك قليلاً وفرد رباط عنقه ثم واصل قائلا: "إذا كان خطابك فى الغرفة التجارية صادقًا ومخلصًا وليس مجرد كلام لإبهار وسائل الإعلام، فربما يتوجب على سعادتك أن تتبع القول بالعمل، وتضرب للآخرين مثلاً يتبعونه".

سأله المأمور: "وما نوع العمل الذى خطر لك؟ لأنك بطبيعة الحال لا تملك المؤهلات الكافية للعمل فى الشرطة".

تجاهل ماليك سخرية المأمور، وراح يتقدم فى سبيله بكل جرأة، قائلاً: "فى الصحيفة نفسها التى نشر بها خطاب سيادتك، كان هناك إعلان عن الحاجة لموظف أرشيف لسجلات قسم الشرطة الخاص بكم. لقد بدأت حياتى كموظف أرشيف بشركة بى آند أو للشحن، هنا فى المدينة. وعندما تراجع السجلات أنا واثق أنك سوف تكتشف أننى كنت أضطلع بمهام عملى بكل حماس وبمنتهى الكفاءة، وأننى فى هذه الشركة تحديدًا غادرت العمل بسجل لا تشوبه شائبة".

قال المأمور، دون أن يكترث بالإشارة للملف الماثل أمامه: "لكن هذا كان منذ أكثر من ثلاثين عامًا".

فأجابه ماليك: "إذن سوف أنهى حياتى المهنية من نفس نقطة البداية، موظف أرشيف".

لم ينطق المأمور بأى شىء لبعض الوقت فيما فكر فى الاقتراح الذى قدمه ماليك. انحنى للأمام فى نهاية الأمر، واضعًا يديه على المكتب، وقال: "سأفكر فى مطلبك يا ماليك. هل تعرف سكرتيرتى وسيلة اتصال بك؟".

أجاب ماليك وهـو ينهض من مقعده: " بلـى، لديها وسيلة اتصــال بى يا سيدى، يمكن العثور علىّ كل ليلة فى نزل جمعية الإحسان بشارع فيكتوريا". توقف لبرهة ثم قال: "وليس لدى أى خطط للانتقال إلى أى مكان آخر فى القريب العاجل".

عند تنـاول الغداء فـى قاعة الطعـام الخاصة بالضبـاط، روى المأمور كومار ما جرى باختصار لنائبه.

اندفـع النائب آنيـل خان فى الضحك. وقـال بحرارة: "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها".

أجابـه المأمور وهـو يتناول ملعقة أخرى من الأرز: "صحيح تمامًـا، وعندما تضطلع بمسئولياتى فى العام القادم، لعل هذه الحادثة الصغـيرة تعمل على تذكيرك بالعواقب الوخيمة التى قـد تنتـج عما تقدمه مـن تصريحـات وكلام، وخصوصًا عندما تطلق هذه التصريحات على رءوس الأشهاد".

نظر إليه آنيل خان عبر المائدة، وسأله: "هل معنى ذلك أنك تفكر بجدية فى توظيف ذلك الرجل حقًّا؟".

أجاب كومار: "أمر محتمل، لماذا، هل تعارض الفكرة؟".

ذكـره خـان قائلاً: "إنه عامك الأخير فـى الخدمة يا سيادة المأمـور، ولك سمعـة بالاستقامة والكفاءة تحسد عليها ويضرب بهـا الأمثـال. فلمـاذا تتخـذ مغامـرة قـد تعرض هـذا السجـل الوظيفى الرائع للخطر؟".

قـال المأمـور: "أشعـر أنـك تحمـل الأمـر مـا لا يحتمـل، إن ماليـك مجـرد رجـل محطـم، وسوف تـرى ذلك بنفسك إذا ما حضرت الاجتماع".

أجابـه خـان: "لكـن من كان محتـالاً ذات مـرة يظل محتالاً حتى آخر العمر، ولهذا أكرر، لماذا تخاطر؟".

أجابـه المأمـور: "ربمـا لأن هذا هـو التصـرف الصحيح، مع النظـر للظـروف، إذا مـا أغلقـت البـاب فـى وجـه ماليـك، فلن

ينصت أى شخص لآرائى بعد ذلك أبدًا، بما أننى أنصح بما لا أقوم به".

قال خان معترضًا: "ولكن العمل فى الأرشيف وظيفة ذات حساسية خاصة، فسوف يطلع ماليك على معلومات يجب أن تظل مقتصرة على الأشخاص الموثوق برشدهم العقلى ونزاهتهم".

قال المأمور: "لقد فكرت فى ذلك من قبل، إن لدينا قسمين للأرشفة: أحدهما فى هذا المبنى وهو يتسم كما أشرت أنت بحساسية شديدة، والآخر يقع فى ضواحى المدينة وهو يتعامل مع القضايا المنتهية، والتى إما توصلنا فيها لنتيجة نهائية أو لم نعد نتتبعها على الإطلاق".

قال خان وهو يعيد شوكته وسكينه إلى الصحن: "ومع ذلك لا أميل للمخاطرة بذلك".

أجابه المأمور: "لقد قللت من احتمالات المجازفة أكثر من هذا، سوف أضع ماليك فى مرحلة تدريب لمدة شهر، وسيكون هناك مشرف يراقبه بعين يقظة، ويعد تقريرًا ويرفعه إلىّ مباشرة، وإن تجاوز ماليك الخط الرفيع بخطوة واحدة فسوف يعود إلى الشوارع فى اليوم نفسه".

كرر خان قوله: "مازلت لا أميل للمخاطرة بذلك".

فى اليوم الأول من الشهر تسلم راج ماليك عمله بالقسم الخاص بسجلات الشرطة، الكائن بمبنى ٤٧ من شارع مهاتما درايف، بضواحى المدينة. كانت ساعات عمله تمتد من الثامنة صباحًا إلى السادسة مساء، لمدة ستة أيام فى الأسبوع، براتب شهرى قدره تسعمائة روبية هندية. كانت مسئولية ماليك أن يقوم بزيارة كل قسم شرطة فى الإقليم الخارجى، على دراجته ويجمع ملفات القضايا التى انتهت التحقيقات فيها، وبعد ذلك يسلمها إلى مشرفه المباشر، الذى كان يخزنها فى القبو، ونادرًا

ما يتم الرجوع إليها مرة أخرى.

وعند نهاية شهره الأول، رفع مشرف ماليك تقريرًا إلى المأمور وفقًا لما أمره به. قال للمأمور: "يرجو المرء لو أن لديه عشر نسخ من ماليك؛ فهو على عكس شباب هذه الأيام، يحافظ على مواعيده على الدوام، ولا يأخذ راحات أطول من الوقت المحدد له، ولا يشتكى أو يتذمر أبدًا عندما تكلفه بعمل خارج مهامه الوظيفية". ثم أضاف المشرف قائلاً: "وإذا سمحت سيادتك لى، فإننى أود أن أرفع راتبه إلى ألف روبية فى الشهر".

كان التقرير الثانى للمشرف أروع وأبدع؛ فقد قال: "فقدت أحد أفراد طاقم العمل نظرًا لمرضه خلال الأسبوع الماضى، وقد تولى ماليك العديد من مسئوليات الموظف المتغيب، ولا يعلم إلا الله كيف تدبر أمره للنهوض بعمله وبعمل زميله فى الوقت نفسه".

أما التقرير الذى قدمه المشرف فى نهاية الشهر الثالث لـ ماليك، فقد كان من الإطراء بحيث إن المأمور عندما ألقى كلمته على حفل العشاء السنوى فى نادى روتارى مومباى لم يكتف بمناشدة أعضاء النادى بمد يد العون للمساجين السابقين؛ بل مضى ليؤكد لهم أنه اتبع نصيحته الخاصة وعمل بها واستطاع أن يبرهن بالتجربة العملية على واحدة من النظريات التى طالما اعتنقها. إذا ما منحتم السجناء السابقين فرصة حقيقية فلن يعودوا لبراثن الجريمة.

وفى اليوم التالى كان أحد العناوين الرئيسية لصحيفة مومباى تايمز، هو:

المأمور يضرب مثلاً ليقتدى به الآخرون

وقد تم نقل عبارات كومار بتفاصيلها الدقيقة، إلى جانب صورة فوتوغرافية لـ راج ماليك، وكتب تحتها، سجين سابق تعرض للإصلاح، وقد وضع المأمور المقال على مكتب نائبه.

انتظر ماليك إلى أن غادر مشرفه ليتناول غداءه. كان المشرف دائمًا ما يقود سيارته بعد الثانية عشرة تمامًا ويقضى ساعة مع زوجته. ظل ماليك يراقب بينما كانت سيارة رئيسه تختفى عن النظر قبل أن يتسلل نازلاً إلى القبو. وضع كومة من الأوراق التى تحتاج لأن يتم تخزينها على ركن النضد، فقط فى حالة ما إذا دخل شخص ما دون سابق إنذار وسأله عما يفعل.

ثم انحنى وفتح أحد الملفات، بعد تسعة أشهر وصل أخيرًا للبحث فى حرف "الباء" ومازال لم يجد المرشح النموذجى لخطته، وقد عثر بالفعل على عشرات الأشخاص باسم "باتل" خلال الأسبوع السابق، وقد صرف نظره عنهم جميعًا، إما لأنهم لا يمتون بصلة للأمر أو غير متوافقين مع ما يدبر له فى رأسه. كان ذلك قبل أن يعثر على واحد، كان الحرف الأول من اسمه واسم أبيه هو الهاء.

رفع ماليك الملف الثقيل من الخزانة، ووضعه على النضد وبدأ يقلب صفحاته ببطء. لم يكن بحاجة لأن يقرأ التفاصيل مرة ثانية لكى يعرف أنه قد عثر على الورقة الرابحة.

دون الاسم بسرعة، والعنوان وأرقام الهواتف بنظام وترتيب على قطعة من الورق، ثم أعاد الملف إلى موضعه فى الخزانة. ابتسم، وخلال استراحة تناول الشاى، استطاع أن يتصل بالسيد "هـ. هـ. باتل"، ويحدد موعدًا لمقابلته.

قبل أسابيع قليلة من الموعد المحدد لتقاعد المأمور كومار، كان قد نسى كل ما يتعلق بأعجوبته التى اقترحها حينما حول ماليك من شخص طالح إلى شخص صالح. كان ذلك بالتحديد عندما تلقى اتصالاً هاتفيًا من السيد "هـ. هـ. باتل"، أحد أصحاب البنوك البارزين فى المدينة. كان السيد باتل يطلب لقاء عاجلاً مع المأمور ـ لمناقشة مسألة شخصية.

لم يكـن المأمور كومـار يعتبر السيد "باتـل" مجرد صديق، بـل أيضًا كرجل صاحب نزاهة وكرامة، وبكل تأكيد ليس واحدًا ممن يستعملون كلمة "عاجل" دون سبب وجيه.

نهض كومـار مـن خلـف مكتبه حين دخـل السيـد باتل إلى الغرفـة. أشـار لصديقـه القـديم نحـو مقعـد مريـح فـى ركـن الغرفة ثم ضغط زرًا تحت مكتبه. بعد دقائق ظهرت سكرتيرته ومعهـا قـدح الشاى وطبق بسكويت من نوع بـاث أوليفر، وظهر فى أثرها نائب المأمور.

قـال كومـار: "لقـد رأيـت أنه مـن الحكمـة أن يحضـر آنيل خان هذا اللقاء، يا سيد باتل بما أنه سوف يتولى جميع مهامى خلال أسابيع معدودة".

قـال السيـد باتل وهو يصافح خان بكل حرارة: "لقد سمعت بك بطبيعة الحال، ويسرنى أن تنضم إلينا".

مـا إن انتهت السكرتيرة من تقديم الشاى للرجال الثلاثة حتـى غادرت الغرفة. ولحظة إغلاق الباب، توقف المأمور كومار عـن أية محادثات لا داعى لها، وقال: "لقد طلبت لقائى عاجلاً من أجل مسألة شخصية يا سيد باتل".

أجـاب باتل: "نعـم، وددت أن تعلم أنى تلقيـت بالأمس زيارة من شخص يزعم أنه يعمل لحسابك".

رفع المأمور حاجبًا مندهشًا.

"السيد راج ماليك".

"إنه موظف أرشيف صغير فى ...".

"فى مهمة خاصة، إنه لم يتوان عن توكيد هذا".

بدأ المأمور يدق ذراع مقعده براحة يده اليمنى، بينما واصل باتـل حديثـه: "قـال ماليـك إنـك كنـت تملـك ملفًا يثبـت أننى خضعت لتحريات تتعلق بغسل الأموال".

قال المأمور بصراحته المعهودة: " وهذا صحيح يا سيد باتل؛ ففى أعقاب حادثة الحادى عشر من سبتمبـر كلفنى السيد وزير

الداخلية بإجراء تحريات حول أى مؤسسة تتعامل بمبالغ مالية ضخمة. وهذا يشتمل على الكازينوهات، ونوادى السباق، وفى حالتكم، يصدق على بنك مومباى أيضًا. لقد التقى عضو من فريق عملى بمدير الحسابات لديكم وقدم له النصح بشأن الغرض من هذا التفتيش، وأنا شخصيًا قمت بتوقيع شهادة إبراء الذمة الخاصة بشركتكم".

قال باتل: "إننى أتذكر؛ فلقد أعلمتنى بمجمل الأمر فى حينه، لكن رجلك ماليك...".

"إنه ليس رجلى".

"... قال إن بوسعه أن يتدبر أمر التخلص من ملفى". توقف قليلاً قبل أن يقول: "مقابل إكرامية صغيرة".

فقال كومار وهو يكاد يثب من مقعده: "ماذا قال؟".

سأل خان نائب المأمور فى هدوء: "إكرامية صغيرة إلى أى حد؟".

أجاب باتل: "عشرة ملايين روبية".

قال المأمور: "سيد باتل، لا أدرى ماذا يمكننى أن أقول لك".

قال باتل: "ليس عليك أن تقول أى شىء؛ لأنه لم يخطر بذهنى بالمرة، ولو للحظة واحدة، أنك قد تكون متورطًا فى أى شىء على هذه الدرجة من الحماقة، أو تحدثت مع ماليك على هذا الأساس".

قال المأمور: "إننى ممتن لك".

قال باتل: "لا عليك، لكننى أعتقد حقًا أنه ربما هناك آخرون أقل نزاهة منى..." توقف قبل أن يكمل: " خصوصًا وأن زيارة ماليك تأتى قريبة للغاية من موعد تقاعدك....". تردد ثانية ثم قال: "وإذا ما حصلت الصحافة على قصة كتلك، فمن السهل أن يساء فهمها".

قال كومار: "إننى شاكر لاهتمامك، وبالسرعة التى تصرفت بها، سأحمل دينك هذا فى عنقى إلى الأبد".

قال باتل: "لا أريد شيئًا فى المقابل سوى أن تعرف أن هذه المدينة سوف تظل تحمل ديونك لها فى عنقها إلى الأبد، وهكذا فحين تغادر هذا المكتب لابد أن تكون مكللاً ببريق المجد، وليس بعلامات استفهام تحوم حول رأسك، والتى كما يعرف كل منا سوف تبقى لوقت طويل بعد تقاعدك".

وبينما كان ينهض السيد باتل من مقعده أومأ نائب المأمور برأسه موافقًا على كلامه.

التفت السيد باتل بوجهه نحو المأمور قائلاً: "أتعرف يا ناريش؟ ما كنت أبداً لأوافق على مقابلة هذا الرجل الملعون إذا لم تذكره بكل فخر فى خطابك بنادى الروتارى الشهر الماضى: حتى إنه قدم لى المقال المكتوب عنه فى صحيفة مومباى تايمز. وافترضت بالتالى أن هذا الرجل قد أتى إلى بموافقتك ورضاك". التفت السيد باتل نحو خان، ثم قال: "كم أتمنى لك الحظ عندما تتقلد منصب المأمور"، ثم أضاف، وهو يصافح النائب: "من العسير عليك أن تكون خلفًا لمثل هذا السلف العظيم". ابتسم كومار للمرة الأولى خلال هذا الصباح.

"سأعود خلال دقيقة"، هكذا قال المأمور وهو يغادر المكتب ليرافق السيد باتل حتى الباب الأمامى.

راح نائب المأمور يحدق من النافذة بينما ينتظر عودة رئيسه. راح يمضغ قطعة بسكويت وهو يتفكر فى عدة بدائل محتملة لهذا الأمر، وعندما عاد المأمور من جديد إلى الغرفة، كان خان يعرف على وجه التحديد ما يجب عمله، ولكن هل سيكون بمقدوره إقناع رئيسه به؟

التقط المأمور سماعة الهاتف من فوق مكتبه وهو يقول: "سآمر بالقبض على ماليك وإلقائه وراء القضبان خلال ساعات قلائل".

فقال النائب خان بكل هدوء: "إننى أتساءل يا سيدى ما إذا كان هذا هو التصرف الصحيح - مع الوضع فى الاعتبار الظروف المحيطة".

فقال المأمور وقد شرع فى طلب الرقم: "ليس لدى خيارات أخرى".

قال خان: "قد تكون محقًا، ولكن قبل أن تتخذ قرارًا لا يمكن الرجوع عنه، ربما يكون علينا أن نفكر كيف سيمضى هذا الأمر كله"، توقف قليلاً ثم قال: "مع الصحافة".

"الصحافة ستجد يومها المشهود وسوف يقيمون الأعياد". هكذا قال كومار بعد أن وضع سماعة الهاتف مكانها، وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. "لن يترددوا إذا ما وجدونى مشوقاً باعتبارى محتالاً ومستعدًّا لقبول الرشاوى، أو حتى إذا ما وجدونى أفصل من الخدمة باعتبارى أكثر مأمورى الشرطة حماقة فى التاريخ. لا هذا السيناريو ولا ذاك يحتمل المرء أن يفكر فيه".

ألح النائب خان قائلاً: "ولكن علينا أن نفكر فى الأمر؛ ذلك لأن أعداءك - وحتى أصلح الرجال لهم أعداؤهم - سوف يرضيهم تمامًا أن تظهر كشخص مرتش، بينما لن يكون بمقدور أصدقائك أن ينكروا أهون تهمة، وهى السذاجة".

"ولكن بعد أربعين عامًا فى الخدمة، لا شك أن الناس لن تصدق..".

قال خان، مؤكدًا أسوأ مخاوف المأمور: " سوف يصدق الناس ما يرغبون فى تصديقه أيًّا كان، وبكل تأكيد لن يكون بمقدورك أن ترسل ماليك إلى السجن من جديد من غير أن تتاح له الفرصة للوقوف على منصة الشهود ليخبر العالم كله بروايته هو".

"ولكن من سوف يصدق ذلك ال....".

"لا يوجد دخان بلا نار، سوف يتهامسون بذلك فى ردهات قاعات المحكمة، وسوف تتم مقارنة هذا على استحياء بعناوين الصحف فى الصباح بمجرد أن يقضى ماليك يومًا أو اثنين فى الاستجواب من قبل محام ودود لا يرى فى موقفك أكثر من فرصة للصعود المهنى".

واصل كومار سعيه الحثيث فى أرجاء الغرفة، لكنه لم يجب.

قال خان: "دعنى أخمن عناوين الصحف التى ستتبع هذا الاستجواب". توقف قليلاً ثم أكمل: "المأمور يتلقى الرشاوى لكى يتخلص من ملفات أصدقائه". قد يكون هذا هو العنوان الرئيسى لصحيفة **التايمز**، أما الصحف الصفراء فالمؤكد أنها ستكون أكثر بهرجة: "نهر الرشاوى يصب فى مكتب المأمور بمعاونة فتى توصيل الطلبات"، أو ربما: "المأمور كومار يوظف محتالاً سابقًا لينفذ له أعماله القذرة".

ارتمى المأمور مرة أخرى على مقعد إلى جوار خان وهو يقول: "أظن أننى أتخيل الآن الوضع. ما الذى يفترض بى القيام به إذن؟".

فأجابه خان: " ما قمت به دائمًا فى الماضى، أن تلعب اللعبة على أصولها".

نظر المأمور نحو نائبه ليستفهم منه قائلاً: "ما الذى يدور بخلدك؟".

صاح المشرف بأعلى صوته، حتى قبل أن يضع سماعة الهاتف من يده: " يا ماليك! يريد المأمور كومار أن يراك حالاً".

سأله ماليك فى توتر: "هل ذكر السبب؟".

أجاب المشرف: "كلا، ليس من عادته أن يطلعنى على الأسباب وراء أوامره، ولكن لا تتأخر عليه لأنه ليس من نوع الرجال الذين يروقهم الانتظار".

أجابه ماليك: "حاضر يا سيدى". أغلق الملف الذى كان يعمل عليه، ووضعه مكانه على مكتب المشرف. ذهب نحو خزانته وفك قفل دراجته وغادر المبنى دون كلمة واحدة أخرى. عندما صار بالخارج على الرصيف بدأ يرتجف. هل كشفوا لعبته الأخيرة؟ لابد أنها لم تثبت نجاحها. فك السلسلة التى تمسك بعجلات الدراجة وشرع يفكر فى الخيارات المتاحة أمامه. هل يلوذ بالفرار، أم ينكر الأمر بكل وقاحة؟ لم يكن أمامه الكثير من الخيارات. وعلى كل حال، إلى أين بوسعه أن يهرب؟ وحتى إذا ما قرر أن يلوذ بالفرار، ما هى إلا أيام معدودة، ولعلها ساعات معدودة، قبل أن يقبضوا عليه.

انزلق ماليك على دراجته، واعتلى موضع الركوب وبدأ يدفع البدالين ببطء نحو مركز المدينة. كانت الطرقات البنية المتربة تعج بالدراجات الأخرى، والسيارات وأعداد لا تحصى من الناس، كل يتجه اتجاهًا مختلفًا. الصفير المتواصل لأبواق السيارات، والروائح المختلفة العديدة، وضربات الشمس، وضجيج الحياة اليومية؛ كل ذلك أكد أن مومباى لم تكن مثل أى مدينة أخرى على وجه الأرض. كان الباعة الجائلون يشقون طريقهم بأذرعهم بينما يمر ماليك على دراجته، ويوقفونه فى محاولة لأن يبيعوه سلعهم، بينما كان المتسولون يجرون إلى جواره ولكن دون أذرع؛ مما أعاق تقدمه. هل ينبغى عليه أن يكون صريحًا ويعترف بما كان يخطط له؟

دار بدراجته لبضع ياردات أخرى. كلا، لن يعترف بأى شىء، إنها قاعدة ذهبية قد تعلمها بعد سنوات طوال فى السجن. انحرف بالدراجة لكى يتفادى بقرة وكاد أن يسقط بسبب هذا.



افترض أنهم لا يعلمون أى شىء حتى يثبت العكس، وحتى عندئذ، فلتصرَّ على إنكار كل شىء، هكذا أخذ يفكر، وعندما استدار حول المنعطف التالى، لاح مقر الشرطة قبالته يوحى بالتهديد والخطر. إن كان عليه أن يهرب بفعلته، فيجب أن يحدث هذا الآن وإلا فلا. واصل الضغط على البدالين حتى صار على مبعدة ياردات قليلة من السلالم المؤدية إلى المدخل الأمامى. ضغط بشدة على المكابح المرهقة إلى أن تباطأت الدراجة ثم توقفت بدون ثبات. نزل عن الدراجة، وهى ملكيته الوحيدة فى هذه الدنيا، وربطها بالقفل إلى أقرب سياج. صعد السلالم فى بطء نحو مقر الشرطة، وشق طريقة خلال الأبواب الدوارة وتوجه متوترًا نحو مكتب الاستقبال. أخبر الضابط المناوب باسمه. ربما يكون قد حدث خطأ ما.

"لدى موعد مع...".

"أوه نعم". هكذا أجاب الضابط المناوب بنبرة منذرة بالشؤم، دون حاجة لأن يرجع إلى جدوله ثم أكمل قائلاً: "المأمور ينتظر أن يراك. سوف تجد مكتبه فى الطابق الرابع عشر".

استدار ماليك وبدأ يسير نحو المصعد، مدركًا أن عينى الضابط المناوب لم تتحولا عنه. ألقى ماليك بنظرة خاطفة نحو الباب الأمامى. ستكون هذه فرصته الوحيدة ليهرب، هكذا فكر بينما انفتح باب أحد المصاعد. دخل إلى المصعد المزدحم، والذى توقف عدة مرات فى رحلته البطيئة كثيرة المحطات نحو الطابق الرابع عشر. عندما بلغ الطابق الأخير، كان يتصبب عرقًا، ولم يكن السبب فى ذلك فقط الازدحام فى المكان وعدم وجود مكيف الهواء.

عندما انفتح باب المصعد أخيرًا كان وحده. خطا ماليك على الردهة الوحيدة فى المبنى المفروشة بالسجاد السميك. نظر حوله وتذكر زيارته الأخيرة للمكان. بدأ يسير ببطء نحو مكتب فى الطرف الأقصى من الردهة. كانت كلمة المأمور مطبوعة بحروف غليظة على الباب.

دق ماليك الباب بهدوء ــ تمنى أن يكون قد حدث شىء أكثر أهمية، جعل المأمور يغادر المكتب دون سابق إنذار. سمع صوتًا أنثويًا يدعوه للدخول. فتح الباب ليرى سكرتيرة المأمور تجلس خلف مكتبها، تدق على لوحة الأزرار بهمة ونشاط، وقد توقفت عن الدق لحظة رؤيتها لـ ماليك.

كل ما قالته له: "المأمور بانتظارك" ولم تبتسم أو تعبس أو يبدو عليها أى رد فعل بينما نهضت من مكانها. لعلها جاهلة بمصيره. اختفت السكرتيرة وراء باب آخر ثم عادت فى الحال تقريبًا. قالت: "سوف يقابلك المأمور الآن يا سيد ماليك"، وأمسكت بالباب مفتوحًا قبالته.

دخل ماليك إلى غرفة المأمور، ليجده جالسًا إلى مكتبه، وعيناه تفحصان ملفًا مفتوحًا. رفع رأسه ونظر مباشرة نحوه

وقال: "اجلس يا ماليك" لم يقل راج، ولا سيد، فقط ماليك.

اندس ماليك فى مقعد مقابل المأمور. جلس فى صمت، محاولاً ألا يبدو متوترًا بينما يراقب عقرب الدقائق فى ساعة الحائط التى خلف المكتب يكمل دورة من دقيقة تامة.

تحدث المأمور أخيرًا قائلاً: "ماليك" وهو ينظر من فوق الأوراق الموضوعة على مكتبه: " لقد قرأت توًا تقريرك السنوى الذى قدمه لى مشرفك".

بقى ماليك صامتًا، على الرغم من أنه شعر بقطرة كبيرة من العرق تنزلق فوق أنفه.

عاد المأمور ينظر نحو الأسفل، قائلاً: " إنه راض تمام الرضا عن أدائك فى العمل، ويثنى عليك كل الثناء، وهذا أفضل كثيرًا مما كان يمكن لى أن أتوقعه عندما جلست على هذا المقعد نفسه قبل حوالى عام من الآن". رفع المأمور رأسه وابتسم ثم أردف قائلاً: "والحقيقة أنه يوصى بترقيتك".

قال ماليك باقتضاب: "ترقيتى؟".

"نعم، على الرغم من أن الأمر ليس بهذه السهولة، بما أنه لا توجد الكثير من الوظائف المناسبة والمتاحة لشغلها فى الوقت الحاضر. ومع ذلك، أعتقد أننى عثرت على وظيفة مناسبة لمواهبك بصورة مثالية".

قال ماليك، وقد استرخى للمرة الأولى: "شكرًا، شكرًا لك يا سيدى".

فتح المأمور ملفًا آخر ثم قال مبتسمًا: "هناك وظيفة ـ وظيفة مساعد فى مشرحة المدينة"، أخرج صفحة منفردة من الورق وبدأ يقرأ منها.

"سوف تكون مسئوليتك أن تغسل الدماء عن الألواح الخشبية، وأن تنظف الأرضية على الفور بعد الانتهاء من تشريح الجثث وتخزينها. قيل لى إن الرائحة لن تكون سارة بالمرة، لكنهم سوف يزودونك بقناع للوجه، ولا شك لدى أن

المرء يمكنه الاعتياد على ذلك مع الوقت". واصل حديثه وهو يبتسم ناظرًا نحو ماليك: "هذه الوظيفة تعد ارتقاء إلى صف مشرف مساعد إلى جانب زيادة جيدة للراتب، كما أن فيها أيضًا مزايا أخرى لا تقتصر على أنه سيكون لديك غرفتك الخاصة أعلى المشرحة مباشرة، وهكذا لن تكون مضطرًا للإقامة فى بيت الإحسان الذى تعيش فيه بعد ذلك". توقف المأمور قليلاً، قبل أن يكمل: "وإذا ما واصلت الخدمة فى هذه الوظيفة حتى تبلغ الستين من العمر، سوف يصرف لك معاش تقاعدى لا بأس به". أغلق المأمور ملف ماليك ونظر نحوه مباشرة. سأله: "أية أسئلة؟".

فقال ماليك: "سؤال واحد يا سيدى، ألا توجد أية بدائل متاحة؟".

أجابه المأمور: "بلى، هناك بديل آخر. أن تقضى ما تبقى من حياتك فى السجن!".

عين المحب



فيما عدا حقيقة أنهما كانا طالبين فى المدرسة نفسها، لم يكن هناك أية قواسم مشتركة بين هذين الشخصين.

كان جيان لورنزو فينشى طفلاً مجتهداً منذ أول طابور صباح وقف فيه وهو فى عمر الخامسة، فى حين كان باولو كاستيللى ينجح دائمًا فى التأخر عن موعد الحضور، بطريقة أو بأخرى، وهذا أيضًا منذ أول طابور صباح يحضره.

كان جيان لورنزو يشعر بالألفة فى الحصص الدراسية، وبصحبة الكتب، ولا يجد أى مشقة مع كتابة المقالات واجتياز الاختبارات؛ حيث تألق وفاق أقرانه، وقد حقق باولو النتائج المبهرة نفسها ولكن فى ملعب كرة القدم، وأحرز نجاحًا فى تبديل السعرة والالتفاف المخادع وفى تصويب الكرة نحو شباك الخصم ليحرز هدفًا يدهش به فريقه بجانب الفريق الخصم. انتقل الشابان إلى مدرسة سانت سيسليا وهى من أفخر وأشهر المدارس الثانوية فى مدينة روما، وهناك أمكن لكل منهما أن يظهر مواهبه على نطاق أوسع.

عندما انتهت فترة الدراسة، تخرج كل منهما فى روما: تخرج جيان لورنزو كمعلم فى أعرق الجامعات الإيطالية، بينما تخرج باولو من أعرق نوادى كرة القدم الإيطالية كهداف. وعلى الرغم أن لكل منهما دوائره الاجتماعية ومحيطه المختلف؛ فقد كان كلاهما مطلعًا تمامًا على منجزات الآخر. وبينما راح جيان لورنزو يصقل مهاراته ويحقق النجاحات فى مجال واحد وحيد، كان باولو يكلل بالغار فى معركة رياضية بعد أخرى، وكل يحقق أهدافه على طريقته الخاصة.

بعد أن غادرا الجامعة، التحق جيان لورنزو بأبيه فى جاليرى فينشى للأعمال الفنية، وانطلق فى الحال لكى ينتفع بأعوام الدراسة فى عمل شىء له طابع عملى، بما أنه كان يتمنى أن يحاكى مثال والده ويصير أكثر تجار التحف الفنية احترامًا وشهرة فى إيطاليا كلها.

فى الوقت الذى بدأ فيه جيان لورنزو تدريبه مع والده، كان باولو قد حصل على لقب كابتن روما، محاطًا بهتاف وتملق المعجبين الذين يتحلقون حوله حيثما حل، بعد أن قاد الفريق القومى لإحراز بطولة أوربية مجيدة. لم يكن على جيان لورنزو إلا أن يقلب الصفحات الأخيرة فى أية صحيفة، وهذا بوتيرة يومية تقريبًا، لكى يتتبع مآثر زميل الدراسة القديم، وبنظرة على أبواب النميمة كان يعرف مَنْ آخر الجميلات التى تعلقت بذراع اللاعب الشهير: وهو اختلاف آخر بينهما.

سرعان ما أدرك جيان لورنزو أنه لكى يكتسب سمعة طيبة وطويلة المدى فى المهنة التى تخيرها عليه ألا يعتمد على إحراز هدف سريع فى لحظة إلهام غير متوقع، بل عليه أن يكرس الساعات الطوال للبحث والدرس، ويضيف إلى ذلك الحكم الفطين. كان قد ورث عن والده أهم صفتين من اللازم توافرهما فى أى تاجر أعمال فنية ـ العين الحساسة والأنف الحساس. علم أنطونيو فينشى ولده جيان كيف ينظر ـ ليس هذا وحسب، بل وأين ينظر ـ عندما يتعلق الأمر بالبحث عن التحف الفنية الأصلية. لم يتاجر الرجل العجوز إلا فى أفضل نماذج التصوير الزيتى والنحت الخاصة بعصر النهضة، التى لا تظهر أبدًا فى السوق المفتوح. فما لم تكن القطعة فريدة من نوعها، فإن أنطونيو لم يكن يغامر بسمعة متجره من أجلها. وسار الابن على نهج أبيه. لم يكن المعرض يبيع إلا ثلاث، أو أربع، لوحات فنية كل عام، لكن هذه اللوحات للفنانين الكبار كانت تصل لأسعار تقارب سعر هداف فريق روما نفسه. بعد

أن قضـى الأب أنطونيو أربعـين عامًا فى هذا المجال، كان يعرف مـن يمتلك أعظم وأروع المجموعات الخاصة من القطع الفنية، ليس هـذا وحسب، ولكـن الأهم منه، كان يعرف مَـنْ منْ هؤلاء علـى استعداد لأن يتنازل عن إحدى التحف الأصيلة، والأفضل من هذا من منهم بحاجة ماسة للقيام بهذا.

استغـرق جيـان لورنزو فـى عمله لدرجة أنـه لم يعلم بخبر إصابـة باولـو كاستيللى التى كابدها خلال مبـاراة إيطاليا أمام أسبانيا فى الكأس الأوربى. هذه العقبة الشخصية وضعت باولو فى الصفوف الخلفية لعالم كرة القدم، وكذلك تراجعت أخباره فى الصحف، وخصوصًا عندما صار واضحًا للعيان أن باولو قد انتهى تاريخ صلاحيته للبيع.

غادر باولو منصة المسرح العالمى فى الحين نفسه الذى خطا جيـان لورنـزو إليها؛ فقد بـدأ الأخير رحلاته فى أنحـاء أوربا، ممثلا المتجر فى عملية تنقيب لا تنتهى، لا يسعى فيها إلا وراء أنـدر النماذج الأصيلة والعبقريـة، وبغرض امتلاك تحفة فنية من الممكن أن يجد شخصًا يتحمل ثمن شرائها.

كثيـرًا مـا تسـاءل جيـان لورنـزو عما جـرى لـ"باولـو" منذ أن اعتـزل كـرة القـدم ولم تعـد الصحافـة تتبـع كل خطـوة من خطواتـه، لكنـه اكتشف ما جرى بين عشيـة وضحاها عندما تم الإعلان عن خطوبة باولو.

وكان اختيـار باولو لنسيبه يدل علـى أن مآثره سوف تنتقل من الصفحات الرياضية إلى صفحات المال والاقتصاد.

كانـت آنجيلينا بورتشيلـى هى الابنة الوحيـدة لـ"ماسيمو" بورتشيلـى، صاحـب نـادى رومـا لكـرة القـدم ورئيـس شركـة يوليتوكـس، أكـبـر شـركات الصناعـات الدوائيـة فـى إيطاليـا. أعلـن أحد العناوين الرئيسيـة لصحيفة من الصحف الصفراء بالخطوط العريضة: زواج اثنين من أصحاب الوزن الثقيل.



قلب جيان لورنزو الصحيفة حتى الصفحة الثالثة ليكتشف المغزى الكامن وراء تعليق مثل هذا. الزوجة المستقبلية لـ"باولو" كان طولها ست أقدام وبوصتين ـ وهو طول مناسب لعارضة أزياء، كما أسمعك تقول ـ ولكن ها هنا تنتهى المقارنة بينها وبين أى عارضة أزياء، بسبب المعلومة التى وصل إليها الصحفيون وأنهوا بها المقال، حول وزن آنجيلينا. تنوعت الآراء بين ثلاثمائة رطل وثلاثمائة وخمسين رطلاً، وفقًا لما أعلنته الصحف الصفراء والصحف العادية، كل من جانبه.

صورة واحدة تغنى عن ألف كلمة. راح جيان لورنزو يفحص أكثر من صورة لـ آنجيلينا، وأدرك أنها مناسبة تمامًا لأن تكون عارضة فى لوحات روبنز الفنان القديم، بما أنه أبدى اهتمامًا كبيرًا بالبدينات. فى كل صورة من صور عروس باولو،

وبصـرف النظـر عـن البـراعـة الظاهـرة لمصممـى الأزيـاء مـن ميلانـو، ومصففـى الشعر من باريس، وتجـار الحلى من لندن، ناهيـك عـن فيالق المدربـين الشخصيـين، ومتخصصى الحمية والمسدين، ما كان بوسع هذا كله أن يحول صورتها من فطيرة دسمـة إلى فتـاة الحفـل الأولى. أيًا كانت الزاويـة التى التقطت منهـا الصـورة، وعلى الرغم من المراعاة التـى أبداها المصورون، والتـى لم يبدهـا بعض منهـم، فلـم يفلحـوا إلا فـى أن يؤكدوا التناقض الفاحش بينها وبين خطيبها، وخصوصًا عندما كانت تقـف إلى جـوار بطل فريـق رومـا السابق. ولم تجـد الصحافة الإيطاليـة هوسًـا أفضـل مـن الهوس بـوزن آنجيلينـا؛ فلم تأت على ذكر أى شىء آخر عنها.

انتقـل جيـان لورنـزو إلى الصفحـات الفنيـة، ونسـى تمامًا كل مـا يتعلـق بـ باولـو وبعروسـه المستقبليـة عندمـا دخـل إلى المعرض فى وقت تـال من هذا النهار، وبعـد أن فتح باب مكتبه، وتلقـى تحيـة السكرتـيرة، التـى ناولتـه بطاقـة دعـوة كبـيرة الحجم ومنقوشة بحروف ذهبية. ألقى جيان لورنزو نظرة على بطاقة الدعوة.

السيد ماسيمو بورتشيلى
يتشرف بدعوة السيد:

جيان لورنزو فيتشى

لحضور حفل زفاف ابنته
آنجيلينا
على السيد باولو كاستيللى
فى فيلا بورجيزى

بعد ذلك بستة آسابيع انضم جيان لورنزو إلى نحو ألف مدعو آخر فى مقر فيلا بورجيزى. وسرعان ما اتضح أن السيد بورتشيلى قد عقد العزم على أن يقدم لابنته الوحيدة حفل زفاف لا يمكن لها أن تنساه أبدًا، لا هى ولا أى شخص يحضره.

كان موقع الحفل يقع فى حدائق بورجيزى على أحد التلال السبعة المطلة على روما العاصمة، بأراضيها الخصيبة وقصورها البيضاء فى الخلفية، كان المشهد يليق بحكاية خرافية عن أميرة فاتنة. تَمَشَّى جيان لورنزو فى أنحاء المكان، مشاهدًا بإعجاب التماثيل والنافورات المنحوتة بينما يلحق ببعض من أصدقائه القدامى والحاليين، بعض منهم لم يكن رآهم منذ أيام المدرسة. قبل مراسم عقد الزواج بنحو عشرين دقيقة، ظهر بعض الخدم بزى موحد مميز ومعاطف زرقاء طويلة مزخرفة بشرائط مذهبية ويرتدون شعرًا أبيض مستعارًا على الطراز الإيطالى القديم، وساروا بين الحشد الكبير. دعوا الضيوف ليأخذوا أماكنهم فى بستان الورد؛ لأن مراسم عقد الزواج على وشك أن تبدأ.

انضم جيان لورنزو إلى حشد ضخم وهم يتجهون صوب قوائم تم تثبيتها مؤخرًا على مقاعد مرتفعة نصف دائرية تحيط بمنصة عالية مزخرفة ومعدة بحيث تقام عليها مراسم عقد الزواج: كان هذا المكان أشبه بملعب كرة القدم حيث تجرى عليه أصيل كل يوم أحد مراسم من نوع مختلف. نظر جيان بعينه الخبيرة نحو المنظر البديع المطل على روما العاصمة، وما جعل المشهد داعيًا للدوار بدرجة أكبر هو عدد النساء رائعات الحسن، وقد ارتدت كل واحدة منهن ثوبًا توقع جيان أنه لم يستعمل من قبل ولو مرة واحدة، ولن يتم ارتداؤه مرة أخرى. وكانت النساء تتلقى كلمات الإطراء والإعجاب من رجال أنيقين يرتدون بذلات طويلة الذيل وقمصانًا بيضاء، دون اختلاف

بينهم إلا فى ألوان ربطات العنق الطويلة والملونة التى تظهر فيهم حسن التباهى والغرور. أدار جيان لورنزو النظر فيما حوله ليكتشف أنه محاط بمجموعة من القادة السياسيين، وأباطرة الصناعة، والممثلين، وشخصيات المجتمع البارزة، جنبًا إلى جنب مع كثيرين من أعضاء فريق باولو القديم.

الممثل التالى الذى ظهر على الساحة كان باولو بنفسه، مصحوبًا بإشبينه. كان جيان لورنزو يعرف أنه لاعب كرة قدم شهير، لكنه لم يستطع تذكر اسمه. سار باولو على الطريق المعشوشب وحتى البقعة المقابلة للمنصة، وفهم جيان لورنزو تمام الفهم السبب وراء عدم قدرة النساء على رفع أعينهن عنه. صعد باولو إلى المنصة، واتخذ مكانه منتظرًا أن تنضم إليه عروسه.

بدأت أوركسترا الآلات الوترية المكونة من أربعين عازفًا فى عزف لحن الزفاف لـ مندلسون، وقد كانت شبه مخبئة بين الأشجار وراء مكان عقد الزواج. نهض ألف مدعو واقفين من مقاعدهم واستداروا لكى يروا العروس بينما هى تتقدم ببطء فوق الخضرة والعشب الكثيف وذراعها فى ذراع أبيها الفخور.

قالت السيدة التى تقف قبالة جيان لورنزو: "يا له من ثوب جميل!". أومأ بالموافقة، وراح ينظر نحو أمتار الحرير الفارسى التى تجرجرت فى ذيل بديع لثوب آنجيلينا، دون أن يعبر عن الفكرة الوحيدة التى لابد أنها قد جالت بخواطر جميع الضيوف. وعلى الرغم من ذلك فإن النظرة التى كانت على وجه آنجيلينا أبدت رضاها التام عن مظهرها. لقد كانت تسير صوب الرجل الذى تعشقه، مدركة أن نساء كثيرات من الحاضرات يتمنين لو كن فى مكانها.

بينما صعدت آنجيلينا إلى المنصة، طقطقت الألواح الخشبية. ابتسم زوجها بينما تقدم خطوات للأمام ليستقبل عروسه. واستدار الاثنان ليواجها رجل الدين الكبير. لعل

واحدًا أو اثنين من الضيوف قد أخفق فى مواراة ابتسامة السخرية عندما التفت رجل الدين نحو باولو وسأله: "هل تقبل أن تتخذ من هذه المرأة زوجة شرعية لك، وتعيش معها على السراء والضراء، وفى الرخاء والفقر...".

ما إن تم عقد الزواج بين العروسين، حتى عاد جيان لورنزو أدراجه إلى بستان الورد، لينضم إلى ألف مدعو آخر من أجل تناول العشاء. الوليمة الكبيرة التى تلت ذلك بدأت بتناول أثمن المشروبات فى العالم وأطباق الأرز المطهو بالكمأ، وانتهت بحلو خميرة الشوكولاتة وشاتو ديوم. بالكاد تمكن جيان لورنزو من النهوض من مكانه عندما حان وقت الاستماع إلى كلمة العريس ليرد بها على كلمة الإشبين.

أعلن العريس قائلاً، وهو يلتفت بوجهه نحو العروس المتألقة: "إننى أسعد إنسان على وجه الأرض، لقد وجدت المرأة النموذجية بالنسبة لى، وأدرك تمامًا أننى موضع حسد كل رجل أعزب من الحاضرين الليلة" وهى عبارة لم يستطع جيان لورنزو أن يتفق معها كل الاتفاق، لكنه سرعان ما أزاح من عقله الأفكار السيئة. واصل باولو قائلاً: "وكما تعلمون كنت أول خاطب يفوز بقلب آنجيلينا. ولم يعد علىَّ بعد الآن أن أبحث عن المرأة المثالية؛ فقد عثرت عليها. أرجو أن تنهضوا وتقدموا معى تحيتكم، وأطيب تمنياتكم للعروس، آنجيلينا، ملاكى الصغير". نهض الجمع فى وقت واحد وحيوا آنجيلينا، صائحين باسمها مع التصفيق والأمنيات، وصاح واحد أو اثنان: "ملاكه الصغير".

بعد انتهاء الكلمات الموجهة للجميع، بدأت فرقة أخرى بالعزف ـــ وكانت فى هذه المرة فرقة جاءت بالطائرة خصيصًا من نيو أورليانز. سمع جيان لورنزو أن آنجيلينا قد ذكرت لأبيها الحبيب أنها تحب موسيقى الجاز.

بينما شرعت الفرقة الموسيقية فى العزف، راحت أنهار الشراب الثمين تتدفق، وأخذ الزوجان الجديدان يتحركان بين ضيوفهما؛ مما أتاح لـ جيان لورنزو بلحظة خاطفة أن يقدم شكره لكل من باولو وعروسه لأنهما دعواه لهذه الليلة التى لا تنسى. قال للعروس: "ليلة مثل هذه تمحو أساطير عائلة ميدتشى بأكملها".

قال باولو مقترحًا، قبل أن ينتقل كل منهما لمجموعة أخرى من الضيوف: "لنبق على اتصال، إن آنجيلينا مفتونة بالفنون الجميلة، كما تعرف، وتفكر فى أن تبدأ بتكوين مجموعتها الفنية الخاصة بها". تلك كانت آخر كلمات سمعها جيان لورنزو، قبل أن ينتقلا إلى مائدة أخرى.

قبيل أن تطلع الشمس، ويقدم الإفطار للمدعوين، انطلق السيد والسيدة كاستيللى إلى المطار، بينما تلوح لهم ألف يد تلويحة الوداع. قادتهما السيارة خارج أراضى بورجيزى وبدا باولو على عجلة قيادة سيارته الفيرارى من أحدث الطرز؛ وهى ليست السيارة النموذجية بالنسبة لعروسه. عندما بلغا المطار قاد باولو حتى وصل عند مهبط طائرات خاص وأوقف سيارته إلى جانب طائرة خاصة من طراز لير كانت بانتظار المسافرين. غادر الزوجان الجديدان السيارة الفيرارى وتركها متوقفة بالممر، وصعدا السلالم واختفيا بداخل الطائرة، طائرة الأب الحبيب. وفى غضون دقائق من ربط الأحزمة، انطلقت الطائرة إلى آكابلكو، المحطة الأولى فى شهر عسلهما الذى سيمتد إلى ثلاثة أشهر.

على الرغم من كلمات باولو لـ جيان لورنزو قبل أن يفترقا، فإنه عندما عاد الزوجان كاستيللى من شهر عسلهما لم يحاولا أى محاولة للاتصال بـ جيان لورنزو، وعلى الرغم من ذلك، كان مازال بمقدوره أن يتتبع مآثرهما ومنجزاتهما بوتيرة يومية تقريبًا فى أعمدة النميمة والشائعات بالصحف القومية.

بعد ذلك بأسبوع قرأ أنهما سوف ينتقلان للعيش فى فينيسيا؛ حيث قاما بشراء فيلا من النوع الذى يحتل صوره، ليس فقط فى الصفحات الداخلية، بل أغلفة المجلات مصقولة الصفحات. افترض جيان لورنزو أنه على الأرجح لن يلتقى بزميله القديم مرة أخرى.

عندما تقاعد أنطونيو فينشى، كان سعيدًا أن يسلم مسئولية أعمال العائلة إلى ابنه. وهكذا صار جيان لورنزو المالك الجديد لجاليرى فينشى، وبعدها صار يمضى نصف وقته مرتحلاً فى أنحاء أوربا بحثًا عن تلك اللوحات الزيتية النادرة التى تجعل جامعى التحف تتقطع أنفاسهم من الإعجاب، دون أن يهينوا التاجر بأى اقتراحات للمساومة حول الثمن.

كانت إحدى تلك الرحلات إلى فينيسيا، ليرى عملاً من أعمال كاناتيلو الذى تملكه كونتيسة بالما ـ وهى سيدة نبيلة، طلقت من زوجها الثالث، وللأسف فقدت جاذبيتها التى تكفل لها زوجًا رابعًا، فقررت أن تفترق عن واحد أو اثنين من كنوزها الفنية. كان شرط الكونتيسة الوحيد هو ألا يكتشف أحد أنها تواجه مصاعب مالية مؤقتة. كان كل تاجر تحف فنية بأوربا يعلم بأمر ديونها المتراكمة وحساباتها الائتمانية غير المدفوعة. وكان جيان لورنزو ممتنًا كل الامتنان أن الكونتيسة قد اختارته هو لتطلعه على خصوصياتها التى لا يعرفها أحد.

أخذ جيان لورنزو وقته الكافى ليدرس المجموعة الفنية المعتبرة للكونتيسة، وتوصل لحقيقة أنها كانت تملك نظرة عين خبيرة فى الفن، كما فى الرجال. بعد أن اتفقا حول ثمن تمثال كاناتيلو، أعرب عن أمله أن تكون هذه الصفقة بداية علاقة مثمرة وطويلة.

فقالت الكونتيسة، وهى تمد يدها لتأخذ الشيك من جيان لورنزو : "دعنا نبدأ العلاقة بعشاء فى مقهى هاريز

يا عزيزى".

كان جيان لورنزو يحاول أن يختار ما بين قهوة الأفوجاتو وقهوة الإسبرسو، عندما دخل باولو وآنجيلينا إلى هاريز تتبعهما كل الأنظار، بينما كبير الندل يقودهما بنعومة وأناقة إلى مائدة فى الركن.

همست الكونتيسة: "والآن ها قد حضر شخص ما يمكنه أن يتحمل شراء مجموعتى الفنية *بأكملها*".

وافقها جيان لورنزو قائلاً: "بلا شك، ولكن بكل أسف فإن باولو غير مهتم إلا بجمع السيارات النادرة والغريبة".

قاطعته الكونتيسة قائلة: "والنساء اللاتى يتسمن بنفس تلك الصفات أيضًا".

"لست متأكدًا مما تحب آنجيلينا أن تجمعه".

قالت الكونتيسة: "بضعة أرطال كل عام، لقد أتت لتناول الشاى ذات مرة معى أنا وزوجى الثانى وقد كادت أن تأكل البيت بما فيه ومن فيه. عندما غادرت كان بسكويت الشاى قد نفد من منزلنا بالفعل".

قال جيان لورنزو: "حسنًا، لنحاول أن نعوض ذلك الليلة، ما رأيك فى تناول حلوى الزاباجليونى، لقد قيل لى إنه طبقهم المفضل هنا؟".

لم تبد الكونتيسة أى اهتمام بحلوى الزاباجليونى، وأكملت نميمتها بكل بساطة، متجاهلة تلميح رفيقها على المائدة قائلة: "أيمكنك أن تتخيل هذين الاثنين واقعين حقًا فى حب بعضهما البعض؟".

اندهش جيان لورنزو من أن الكونتيسة كانت قادرة على طرح سؤال كثيرًا ما خطر بذهنه لكنه لم يشعر أبدًا بقدرته على التعبير عنه. الأسوأ من ذلك أنها واصلت الحديث لتصرح بأمور، تفتقر للحياء، لم يسبق لها أن خطرت ببال جيان لورنزو.

كان جيـان لورنـزو يستحـى مـن مجـرد تخيل مـا تقوله له الكونتيسـة، وحاول من جديـد أن يغير موضوع الحديث. "لقد كنـت أنـا وهـو فـى المدرسـة الثانويـة معًـا، تعرفـين أن المدرسـة والتعليم شىء لا يطيقه الرياضيون".

"علـى المرء أن يكون رياضيًـا حتى يتمكـن من إرضـاء كوم اللحم هذا".

أضـاف قائـلاً: "وقد حضـرت زفافهما، كانـت مناسبة ليس مـن السهـل نسيانها، رغـم أنى أشك فى أنه بعـد كل هذا الوقت يستطيع حتى أن يتذكر أننى كنت واحدًا من المدعوين".

"هـل تجـد فى نفسـك حقًا الاستعـداد لأن تمضـى ما تبقى مـن حياتك متزوجًا من هذا المخلوق، بصرف النظر عن مقدار المال الذى يمكنها أن تقدمه لك؟" هكذا سألته الكونتيسة، دون أن تولى انتباهًا بكلمات مضيفها.

قـال جيان لورنزو: "إنه يزعم أنه يعشقها، ويدعوها ملاكه الصغير".

"فـى تلـك الحالة، فإننى لا يمكننى تخيل فكرته عن الملاك الضخم!".

قـال جيـان لورنزو: "ولكن إن لم يكن يشعـر بهذا، فبوسعه أن يطلقها".

قالت الكونتيسة: "غير ممكن بالمرة، لابد أنك لم تسمع عن اتفاقهما المالى الذى سبق الزواج".

أقـر جيـان لورنـز، فى محاولـة ألا يبـدو مهتمًـا: "كلا، لم أسمع".

قالـت: "إن رأى والدهـا فى لاعب الكـرة المطرود من الملعب هذا هو نفس رأيى فيه. وقد جعله العجوز بورتشيلى يوقع على اتفـاق ينص على أنـه إذا طلق ابنته لن يحصل على خردلة، كما أن باولـو أرغـم علـى التوقيع على وثيقـة أخرى يقـر فيها بأنه لـن يفشـى أبـدًا مضمون هذا الاتفـاق لأى شخـص، بمن فيهم

آنجيلينا".

فتساءل جيان لورنزو فورًا: "إذن فكيف نما هذا إلى علمك".

"عندما تكون لديك خبرة سابقة بالعديد من اتفاقيات ما قبل الزواج ـ كما لدى أنا يا عزيزى ـ فإنك تسمع بتلك الأمور من مصادر موثوق بها".

ضحك جيان لورنزو وطلب الفاتورة.

ابتسم كبير الندل، وقال: "لقد تم دفع الحساب بالفعل يا سيدى" ثم أومأ ناحية باولو: "دفعه زميلك القديم فى المدرسة".

قال جيان لورنزو: "كم هو لطيف منه!".

ذكرته الكونتيسة قائلة: "بل كم هو لطيف منها؛ فهى نقودها".

قال جيان لورنزو: "اسمحى لى رجاء بدقيقة واحدة. فلابد أن أشكرهم وحسب قبل أن أغادر". نهض من مكانه، واتجه ببطء عبر الغرفة المزدحمة.

نهض باولو، قبل أن يصل جيان لورنزو إلى مائدتهما بوقت طويل، ثم قال له: "كيف حالك؟ تعرف طبعًا ملاكى الصغير"، والتفت مبتسمًا نحو زوجته: "ولكن كيف يمكنك أن تنساها؟".

ألقى جيان لورنزو التحية على آنجيلينا.

"لا يمكننى أن أنسى حفل زواجكما المشهود الرائع".

قالت آنجيلينا: "الليلة مثل هذه تمحو أساطير عائلة ميدتشى بأكملها".

انحنى جيان لورنزو انحناءة صغيرة فى اعتراف بالتقدير.

سأله باولو: "هل تتناول عشاءك مع كونتيسة بالما،أليست هى؟ لأنه لو كان الأمر كذلك، فإنها تمتلك شيئًا ترغب فيه

ملاكى الصغير". لم يعلق جيان لورنزو. "كم أتمنى يا جيان لورنزو أن تكون عميلة عندك وليست واحدة من أصدقائك؛ لأنه عندما ترغب ملاكى الصغير فى شىء ما لن يمنعنى أى شىء عن الحصول عليه من أجلها". مازال جيان لورنزو يتحلى بحكمة الصمت؛ فهو لم ينس أبدًا أن والده قال له ذات مرة: ليس هناك من يعقد صفقات بالمطاعم إلا نادل المطعم، عندما يقدم الفاتورة للزبائن. واصل باولو كلامه قائلاً: "ولأنه مجال عمل مجهول تمامًا بالنسبة لى، وأنت معروف بأنك واحد من أبرز خبراء بلدنا فيه؛ فلعلك تكون من الطيبة بحيث تكون ممثلاً لـ آنجيلينا فى هذه المسألة".

قال جيان لورنزو، بينما كان يضع رئيس النادل حلوى الشوكولاتة أمام زوجة باولو، إلى جانب سلطانية من كريم فراشيه: "سيكون هذا من دواعى سرورى".

قال باولو: "ممتاز، لنكن على اتصال".



ابتسم جيان لورنزو وصافح صديقه القديم. إنه مازال يتذكر جيدًا المرة الأخيرة التى قدم فيها باولو هذا العرض له، ولكن مع ذلك هناك من الأشخاص من يقدمون هذه الاقتراحات كأنها نوع من الحديث المهذب. التفت جيان لورنزو نحو آنجيلينا، وسلم عليها وقبل يدها، وانحنى قليلاً قبل أن يسير عائدًا عبر موائد المطعم لينضم من جديد إلى الكونتيسة.

قال جيان لورنزو، وهو ينظر إلى ساعته: "أخشى أنه حان وقت ذهابنا، وخاصة أنه علىَّ أن أستقل أول طائرة إلى روما فى الصباح".

سألته الكونتيسة، وهى تنهض من مكانها: "هل نجحت فى بيع تمثال كاناتيلو الخاص بى لصديقك القديم؟".

أجاب جيان لورنزو: "كلا" وهو يلوح باتجاه مائدة باولو: "ولكنه اقترح أن نبقى على اتصال".

"وهل ستتصل به؟".

أقر جيان لورنزو قائلاً: "قد يكون هذا صعبًا قليلاً؛ لأنه لم يعطنى رقمه، وأشك فى أنه بإمكان المرء العثور على رقم السيد والسيدة كاستيللى بدليل الهاتف".

أخذ جيان لورنزو أول طائرة إلى روما فى الصباح التالى. وكان من المفترض أن يتبعه تمثال كاناتيلو بإيقاع أكثر تمهلاً. وما إن وضع قدمه فى الجاليرى حتى خرجت سكرتيرته من المكتب قائلة بسرعة: "لقد اتصل باولو كاستيللى مرتين هذا الصباح، وقد اعتذر عن عدم إعطائك رقم هاتفه"، وأضافت: "وتساءل إن كنت ستتكرم وتتصل به، ما إن تصل إلى هنا".

سار جيان بهدوء إلى غرفة المكتب، وجلس إلى مكتبه وهدأ. ثم تناول الرقم الذى وضعته السكرتيرة أمامه. أجاب رئيس الخدم على الهاتف أولاً، والذى حول المتصل إلى السكرتيرة،

قبل أن يتحدث أخيرًا إلى باولو.

بدأ باولو الحديث قائلاً: " بعد أن غادرتنا مساء الأمس لم تتحدث ملاكى الصغير عن أى شىء آخر؛ فهى لم تنس أبدًا زيارتها إلى منزل الكونتيسة؛ حيث رأت لأول مرة مجموعتها الفنية الرائعة. وتساءلت إن كان سبب لقائك بها بالأمس هو ...".

قال جيان لورنزو: " لا أظن أنه سيكون من الحكمة أن نناقش هذه المسألة على الهاتف"؛ فقد علمه أبوه أيضًا أنه نادرًا ما يبرم تاجر محترم اتفاقًا على الهاتف، ولكن لابد أن يجرى هذا وجهًا لوجه، على الدوام تقريبًا. على المرء أن يسمح للعميل أن يرى اللوحة، ثم تدعه يعلقها على جدار فى منزله لبضعة أيام؛ حتى تأتى اللحظة الحاسمة عندما يعتبر المشترى أن اللوحة صارت ملكه بالفعل، ولا يجب أن يبدأ التاجر التفاوض حول السعر قبل تلك اللحظة.

قال باولو بنبرة جادة: "إذن سيكون عليك أن ترجع إلى فينيسيا، وسوف أرسل لك الطائرة الخاصة".

طار جيان إلى فينيسيا يوم الجمعة التالية. كان بانتظاره سيارة رولزرويس؛ لتأخذه إلى فيلا روزا.

قدم رئيس الخدم التحية لـ جيان لورنزو عند الباب الأمامى قبل أن يقوده عبر سلالم رخامية هائلة إلى جناح الغرف الخاصة والذى كانت كل جدرانه عارية تمامًا وهو ما يداعب أحلام وطموحات كل تاجر أعمال فنية. كان جيان لورنزو يتذكر المجموعة الفنية لـ آنجيلينا التى جمعها والده على مدار ثلاثين عامًا، والتى تعد حاليًا إحدى أهم وأفخر الأعمال الفنية.

أمضى جيان لورنزو معظم نهار السبت ما بين الوجبات وآنجيلينا تقوده فى أنحاء مائة واثنتين وأربعين غرفة من غرف فيلا روزا. سرعان ما اكتشف عن مضيفته أكثر كثيرًا

مما كان يتوقعه.

لقد أبدت آنجيلينا اهتمامًا صادقًا برغبتها فى أن تبدأ بجمع مجموعتها الفنية الخاصة، وكان من الواضح أنها قد زارت جميع المعارض الفنية الكبرى فى أنحاء العالم. استنتج جيان لورنزو أنها لا تفتقد إلا ما يكفى من الشجاعة لتتصرف من تلقاء نفسها بناء على قناعتها الخاصة - وهى مشكلة متوقعة لدى الابنة الوحيدة لثرى عصامى - رغم أنها لا تعوزها المعرفة الفنية ولا الذوق الرفيع. شعر بالذنب لأنه صدق افتراضات مسبقة عنها لا تعتمد إلا على الأعمدة التى طالعها فى الصحافة. وجد جيان لورنزو نفسه يستمتع بصحبة آنجيلينا، بل وبدأ يتساءل عما وجدته تلك المرأة الخجولة وثاقبة النظر فى باولو.

خلال تناول العشاء فى تلك الليلة، لم تغب عن ملاحظة جيان نظرة العشق والوله فى عينيها كلما نظرت إلى زوجها، حتى إنها نادرًا ما قاطعته عندما يتحدث.

وعلى الإفطار فى الصباح التالى، لم تكد آنجيلينا تنطق بكلمة. كان باولو هو من اقترح أن ترافق زوجته ضيفهما فى الأراضى والبساتين المحيطة بالمنزل، وفى تلك اللحظة عادت الحيوية مرة أخرى إلى آنجيلينا.

رافقت آنجيلينا جيان خلال مساحة ستين فدانًا تقريبًا من البساتين المزودة بقطع فنية مثبتة بها، أو بالأكشاك الصغيرة التى يرتاح بها المتجولون لتهدئة عيونهم من نور الشمس. وكلما اقترح جيان لورنزو اتجاهًا ما كانت تستجيب له بحماسة وعلى استعداد تام لأن تقاد، مادام سوف يأخذ بيدها.

على العشاء فى تلك الليلة، كان باولو هو من أكد رغبة ملاكه الصغير فى تكوين مجموعة عظيمة من الأعمال الفنية فى ذكرى والدها الراحل.

تساءل باولو: "ولكن من أين نبدأ؟" وهو يمد يده خلال المائدة ليمسك بيد زوجته.

اقترح جيان لورنزو قائلاً: "ربما نبدأ بشىء من أعمال كاناتيلو؟".

قضى جيان لورنزو الأعوام الخمسة التالية يتنقل ما بين روما وفينيسيا، وواصل الحصول على اللوحات من الكونتيسة؛ كى يعلقها فى فيلا روزا. ومع ظهور كل درة فنية جديدة كانت شهية آنجيلينا لا تصبح إلا أكثر اشتياقًا للمزيد. وجد جيان لورنزو نفسه يسافر إلى مسافات أبعد، حتى أمريكا، وروسيا، وحتى كولومبيا؛ حتى يتمكن من إشباع نهم " ملاك باولو الصغير"، وبدا أنها قد استقر عزمها على أن تتفوق على الملكة كاثرين الأولى فى حبها لجمع التحف الفنية.

كانت آنجيلينا تصير أسيرة كل قطعة فنية أصلية يضعها أمامها جيان لورنزو - كاناتيلو، كارافاجيو، تينتورتو، بيلليني، ودافنشى كانوا من بين فنانى إيطاليا. بدأ جيان لورنزو يملأ الأماكن الفارغة على جدران الفيلا، ليس هذا وحسب ولكنه أيضًا جلب تماثيل موضوعة فى أقفاص مجهزة ومرسلة من كل ركن فى العالم، من أجل وضعها إلى جانب تماثيل مهاجرة أخرى فى الحديقة الشاسعة - تماثيل لكل من مور، وبرانكيوزى، وميرو، وجياكوميتى، وبوتيرو ، صاحب التخصص فى تصوير ونحت البدناء، وهو المفضل لدى آنجيلينا.

ومع كل صفقة جديدة كانت تقوم بها، كان يهديها جيان لورنزو كتابًا عن الفنان. وكانت آنجيلينا تلتهم تلك الكتب فى جلسة واحدة وتطالب بالمزيد على الفور. كان على جيان لورنزو أن يعترف بأنها صارت أهم عملاء المعرض، ليس هذا وحسب بل أيضًا تلميذته الأكثر توهجًا بالحماس والنجابة - وما بدا على أنه نزوة حب مع تمثال كاناتيلو تحول بسرعة كبيرة إلى

علاقة غرامية عميقة مع جميع كبار الفنانين فى أوربا. وكانت مسئولية جيان لورنزو أن يزودها باستمرار بعشاقها الجدد، وهو أمر تقاسمته آنجيلينا مع الملكة كاثرين الأولى.

كان جيان لورنزو يزور عميلاً فى برشلونة، كان يعرض للبيع لوحة ثمينة لـ موريلو؛ وذلك لأسباب تتعلق بالضرائب، عندما تناهت إليه الأنباء، كان يعتقد أن الثمن المطلوب للوحة مرتفعًا أكثر من اللازم، على الرغم من أنه يعرف أن آنجيلينا ستكون مستعدة لدفعه. كان فى قلب عملية المساومة عندما اتصلت به سكرتيرته، وأخذ جيان لورنزو أول طائرة متاحة عائدًا إلى روما.



نشرت كل الصحف، وبعضها بأدق التفاصيل، خبر وفاة آنجيلينا كاستيللى. أزمة قلبية عنيفة انتابتها بينما كانت فى حديقتها تحاول تحريك أحد التماثيل من مكان إلى آخر.

الصحف الصفراء لم تكن مستعدة لأن تحزن على السيدة النبيلة ولو ليوم واحد، ومضت لتخبر قراءها فى الفقرة الثانية مباشرة من الخبر بأن السيدة قد أورثت زوجها كل ثروتها، ونشروا مع الموضوع صورة باولو مبتسمًا وسعيدًا، لابد أنها التقطت قبل الوفاة بوقت طويل.

طار جيان لورنزو إلى فينيسيا بعد ذلك بأربعة أيام ليحضر الجنازة.

كانت دار العبادة الصغيرة وسط حدائق فيلا روزا ممتلئة عن آخرها بأفراد عائلة آنجيلينا وأصدقائها، بعض منهم لم يرهم جيان لورنزو منذ حفل الزفاف الخرافى، أى قبل ذلك بنحو جيل.

عندما جاء حاملو النعش إلى دار العبادة، ووضعوه بكل رفق أمام المبنى، انهار باولو وشرع يبكى. بعد انتهاء المراسم، قدم جيان لورنزو خالص عزائه، وأكد باولو له أنه كان واحدًا ممن أسهموا فى إثراء حياة آنجيلينا مما لا يمكن مكافأته بأى شكل، وواصل قائلاً إنه ينتوى أن يكمل المجموعة الفنية تخليدًا لذكراها. شرح قائلاً: " فهو الشىء الذى كانت ملاكى الصغير ترغب فيه بشدة، وهكذا لابد أن يتم".

ولم يعد باولو للاتصال به منذ ذلك الحين.

كان جيان لورنزو على وشك أن يضع ملعقته فى برطمان المربى - وهى عادة أخرى كان ورثها عن أبيه - عندما رأى عنوان الصحيفة. بقيت الملعقة مغروسة فى المربى بينما راح هو يقرأ الخبر للمرة الثانية. كان يريد أن يتأكد من أنه لم يسئ فهم العنوان الرئيسى. عاد باولو ليحتل الصفحة الأولى، معلنًا وقوعه فى الحب من النظرة الأولى - اقلب حتى صفحة ٢٢ لمزيد من التفاصيل".

وبسرعة قلب جيان لورنزو الصفحات حتى وصل إلى العمود الذى نادرًا ما تجشم عناء قراءته، " أخبار مجتمع روما، نحن نقدم لك الحقيقة الكامنة وراء الشائعات" باولو كاستيللى، الكابتن السابق لفريق روما، وتاسع أثرى الشخصيات فى إيطاليا، بصدد أن يتزوج من جديد، دون أن تمر سوى أربعة أعوام على وفاة ملاكه الصغير. وأعلن العنوان: " هناك ما هو أكثر من مجرد المظهر الخارجى"، ومضت الصحيفة لتؤكد لقرائها أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض أكبر مما بين الزوجتين، الأولى والثانية، فإن آنجيلينا كانت صاحبة بلايين، بينما جينا نادلة تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا من نابولى، وابنة مفتش ضرائب.

ضحك جيان لورنزو ضحكة صغيرة عندما رأى صورة جينا، مدركًا أن كثيرين من أصدقاء باولو لن يتمكنوا من منع أنفسهم من مضايقته والسخرية منه.

وفى كل صباح كان جيان لورنزو يجد نفسه يقلب الصفحات للوصول إلى عمود " أخبار مجتمع روما"، على أمل أن يعرف بعض الأنباء السارة حول الزواج الوشيك. بدا أن الزواج سيتم عقده فى دار عبادة فيلا روزا، والتى لا تكفى مساحتها إلا لمائتين من المدعوين لا غير، لذا ستكون الدعوة قاصرة على أقرب الأصدقاء وأفراد العائلة المباشرين. لم تعد العروس قادرة على مغادرة بيتها الصغير دون أن يطاردها فيلق من المصورين، وكما أعلنت الصحيفة فإن العريس عاد للتردد على صالة الألعاب الرياضية، على أمل أن يفقد بضعة أرطال قبل أن يجرى الزفاف، لكن المفاجأة الكبرى بالنسبة لـ جيان لورنزو جاءت عندما أعلنت الصحيفة لقرائها ــ خبرًا حصريًا ــ بأن السيد جيان لورنزو، تاجر القطع الفنية المعروف فى روما، وزميل الدراسة للعريس باولو، سوف يكون بين المدعوين المحظوظين.

ووصلته دعوة الزفاف بالبريد فى الصباح التالى.

طار جيان لورنزو إلى فينيسيا فى المساء السابق للمراسم ونزل بفندق سيبريانى. قرر أنه من الحكمة أن يتناول وجبة خفيفة وأن ينام مبكرًا، عندما تذكر أحداث الزواج السابق.

نهض جيان لورنزو مبكرًا وأخذ وقته الكافى ليرتدى ملابسه من أجل الحفل؛ ورغم هذا فقد وصل إلى فيلا روزا قبل موعد بدء المراسم بوقت طويل. رغب فى أن يتمشى بين التماثيل التى توزعت فى الفناء، وأن يرى من جديد بعض أصدقائه القدامى. ابتسم له تمثال دوناتيلو، وبدا تمثال مور متفاخرًا وملكيًا، وأضحكه تمثال ميرو، وانتصب تمثال جياكوميتى طويلاً ونحيفًا، ولكن ظلت النافورة التى تتوسط الفناء هى قطعته المفضلة؛ فقبل عشرة أعوام، كان عليه أن ينقل كل قطعة منها، حجرًا بعد آخر، وتمثالاً صغيرًا وراء آخر، من باحة ريفية فى ميلانو، أما تمثال الصياد الهارب لـ بيللينى فقد بدا أكثر تلاؤمًا مع كل ما يحيط به. كم أسعده أن يرى عددًا من الضيوف الآخرين الذين وصلوا باكرًا، وفى نفوسهم رغبته نفسها كما هو واضح.

ظهر حاجب واحد بحلة سوداء سار وسط الضيوف ليدعوهم للذهاب إلى دار العبادة؛ لأن المراسم سوف تبدأ بعد قليل. كان جيان لورنزو واحدًا من بين أول من لبوا دعوة الحاجب؛ لأنه أراد أن يجلس فى مكان جيد يسمح له بأن يشاهد العروس وهى تدخل.

وجد جيان لورنزو مقعدًا خاليًا فى الصفوف الوسطى بحيث يتيح له رؤية غير مشوشة للمراسم. كان بوسعه أن يرى الفرقة الموسيقية الصغيرة فى أكشاكها المخصصة لها، وقد بدأوا بالفعل يعزفون مقطوعة مسائية مصحوبة برباعى وترى.

قبـل الثالثة بخمس دقائـق دخل دار العيـادة باولو واشبينه وسـارا ببـطء بـين المقاعـد. كان الإشبـين، كمـا يعـرف جيـان لورنـزو، لاعبًـا مشهورًا لكرة القدم، غـير أنه مازال لا يمكنه أن يعـرف اسمـه. اتخذ الاثنـان موضعيهما إلى جانـب المنصة، فى حـين انتظـر باولو ظهـور العروس الشابة. بدا باولـو فى حالة بدنيـة لائقـة، كان رشيقًا وتعلـو بشرته سمـرة محببة، ولاحظ جيـان لورنزو أن النساء مازالت تحدق نحوه بنظرات والهة. لم يلحظهـن باولـو ولم تغادر وجهـه الابتسامـة الماكـرة التى تشبه ابتسامـة القط الشرير فى كتـاب لويس كارول " أليس فى بلاد العجائب".

كان هنـاك جـو من التوقـع والانتظار عندمـا توقف العزف الوتـرى، وبدأ عزف لحن الزفاف المميز لاستقبال دخول العروس. سارت الشابة ببطء بين صفوف المقاعد وذراعها فى ذراع والدها، وكانت تتنفس بهدوء بينما تمر بكل صف جديد.

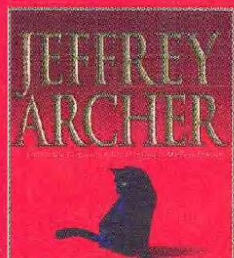
كان بوسـع جيان لورنـزو أن يسمع صوت اقترابها؛ لذا فقد التفـت لـيرى جينا للمـرة الأولى. بمـاذا كان سيجيب لـو سأله شخـص لم يحضـر الزفاف عنها وطلـب منه أن يصفها له؟ هل عليـه أن يصف لـه شعرها الأسـود الكثيف والطويـل والجميل، أم علـى الأرجـح يعلـق حول بشرتهـا الناعمة الخمريـة، أو حتى يضيـف ملاحظـة مـا حول ثـوب زفافهـا المميـز والـذى يذكره تمـام التذكـر؟ أم أن جيـان لورنـزو سـوف يقول لجميـع هؤلاء المتسائلين إن سبب إعلان باولو عن حبه لها من النظرة الأولى قـد اتضح كالشمـس. كانت لها الابتسامة الخجولة نفسها التى كانـت لـ آنجيلينا، ونفس الغمازات المشرقة حول عينيها، والرقة نفسهـا التـى بـدت جلية لكل مـن لـه عينـان، أم أن الصحفيين، كمـا يظـن جيـان، سوف يكتفـون بالقـول إن العروس الجديدة لم تكـن بحاجـة لأن تعـدل مـن ثـوب زفـاف آنجيلينـا بـأى درجـة؛ لأنهـا ملأته تمامًا ـ آمتار وأمتـار من الحرير الفارسى

تجرجرت من وراء العروس، بينما كانت تسير ببطء نحو محبها المخلص!

النهاية



٥٠



«جيفري آرتشر» هو كاتب تصدّرت مؤلفاته قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. استغل هذا الكاتب الفترة التي قضاها سجيناً في إبداع مجموعة من الأعمال الأدبية الفريدة. وفي الاثنتي عشرة قصة التي تضمها مجموعته القصصية الخامسة هذه. تتجلى سماته الأدبية البديعة.. حيث التركيز والدقة اللذين يتميز بهما أدب «آرتشر» قادران دوماً على إمتاع القارئ. ففي قصصه لا يفلت المجرم دائماً بجرمه. ولا تكون سيادة العدالة حتمية، ولكن في كل الحالات يكون القارئ هو الرابح الوحيد.

بينما كان «جيفري آرتشر» سجيناً على مدى عامين، متنقلاً بين خمسة سجون مختلفة، التقط أفكاراً عدة لقصص قصيرة. وتتنوع تلك القصص ما بين حكاية «الرجل الذي سرق مكتب بريده» إلى قصة رجل أعمال كبير يحاول أن يسمم زوجته خلال رحلتهما إلى سانت بطرسبرج. مما يتمخض عنه في الحالتين عواقب غير متوقعة. وفي قصة أخرى، ينتهي الأمر بصاحب المطعم الإيطالي ماريو إلى السجن. لأنه لم يستطع أن يفسّر لرجال الضرائب كيف تسنى له أن يمتلك يختاً وسيارة فيراري ومنزلاً في فلورنسا. في حين أن دخله المعلن سنوياً لا يزيد على سبعين ألفاً من الجنيهات.

Jacket design©www.blacksheep-uk.com
Cat©Alamy

6 281072 058593
282204321